



تاج المفرق في تحلية علماء المشرق البلوي

To PDF: www.al-mostafa.com

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلاة على سيدنا وعلى آله وصحبه

قال عبيد الله سبحانه، الراجي عفوه وغفرانه، خالد بن عيسى ابن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن علي بن خالد البلوي، لطف الله به وأخذ بيده وبرحمته آمين.

الحمد للذي فرض حج البيت على من استطاع إليه سبيلا، وجعله تأسيس إبراهيم خليلا، وقال وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، ومن أصدق من الله قبلا، وجعل جزاء الحج المبرور الجنة، وأصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا، نحمده على نعمه التي قدمها ظلا ظليلا، وأولاها مقاما ورحيلا، ونصلي على نبيه محمد الذي بعثه بالحق رسولا، وفضله على جميع مخلوقاته تفضيلا، وأنزل عليه الكتاب تبيانا لكل شيء وتفصيلا، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل نصرته وخدا وذميلا، وذللوا بين يديه أعناق الجابرة تذليلا، وجردوا الإماطة صدأ الدين عضبا صقيلا، ومهدوا سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ونستوهب من الله سبحانه لأملأنا الكرام من آل نصر الذين تبوأنا في أيامهم من العدل كل وثير المهاد، وجمعنا بفضل مساعيهم المبرورة، وتحت رايتهم المنشورة المنصورة بين الحج والجهاد، أن يجدد الرحمة على من قضى منهم وسلف، ويتم النعم على من خلف، ويخص بالتأييد والحسنى والمزيد، رافع رايات فخرهم، والقائم بأعباء نصرهم، والمجدد لآثارهم ومآثرهم، والمحيي لمكارمهم ومفاخرهم، فخر الملوك الجليلة، وناصر الملة، والبدر الذي زان أفق الملك من أبنائه السعداء والأمرء بالنجوم والأهلة، إمام الهدى، وغمام الندى، وحسام الله المسلول على العدى مولانا السلطان أمير المسلمين وناصر الدين، أبا الحجاج يوسف بن مولانا السلطان هازم أحزاب المشركين وقد جاشت، ومسلط سيوفه العضاب على عاتي تلك الرقاب فما استنت ولا حاشت، أمير المسلمين المقدس السعيد الشهيد، أبي الوليد ابن نصر، وصل الله لهم عادة تأييده وعضده، وجباهم بكل نعمة من عنده.

هذا تقييد، أطلعه عون من الله وتأييد، قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية، وذكر معاهد الوجهة المشرقية، جعلها الله تعالى في ذاته وابتغاء مرضاته، بمنه وكرمه، وألمت مع ذلك بذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء الذين يطئون ذيل البلاغة، ويجرون فضول البراعة، ولهم كلام يتألق منه شعاع الشرق، ويترقق عليه صفاء العقل، وينبث فيه فرند الحكمة، ويعرض على حلى البيان، وينقش في فص الزمان،

ويحفظ على وجه الدهر، ويفضح عقائل الدر، ويخجل نور الشمس والبدر وألمعت بذكر نبذ من فوائدهم، واختيار طرف من أناشيدهم، ومزجتها بما جرت إليه العبارة، وحسنت فيه الإشارة، من قطع الشعر المناسبة قطع النور، المنتظمة من جواهر اللفظ، البعيدة الغور، الغريبة الحفظ، الآخذة من الحسن باوغر الحظ، مقتديا في ذلك كله بقول القائل:

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم

في العين فضل ولكن ناظر العين

حرفان في ألف طومار مسودة

وربما لم تجد في الألف حرفين

ولما بوبت ما ألفت، ورصعت ما جمعت، وشعشت ما وضعت، فجاء كما تراه حسن الزي، عذب الري، عالي القدر، غالي الدر، مسبوك الحلية والتبر، فيه للمسمع مراد، وللفكر معاد، وللألباب مسرح ومرتاد. سميته: بتاج المفرق، في تحلية علماء المشرق. ودعوت الله تعالى في مواطن الإجابة، أن يوفقي فيه للإجادة والإصابة، وأن ينفع به كل من يلتمس النفع به في المطالعة أو الكتابة، وهو سبحانه سميع الدعاء، مجيب النداء، محقق الرجاء، وهو حسبي ونعم الوكيل. فأقول مستعينا بالله سبحانه: أي خرجت قاصدا للحج، وطالبا للعلم من بلدي قنورية: البلد الذي طال سناه، وطاب مغناه، وانتطق بالجوزاء، وناجت أبراجه بروج السماء، فكأنه في الحصانة جبل منيع، وفي الحسن ربيع بديع:

بلد صحبت به الصباية والصبا

ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته

وعليه أغصان الشباب تميد

فوقع اتفاق الخروج من صحوة يوم السبت، الثامن عشر لصفر من عام ستة وثلاثين وسبعمئة، مودعا لجميع الأهل، ومتجرعا من ذلك ما ليس بالعذب ولا بالسهل:

وقلت يا قلبي عليك السلام

ودعت قلبي يوم ودعتهم

فان عيني بعدهم لا تنام

وقلت للنوم انصرف راشدا

وليس في العالم نوم حرام

محرم يا عين أن ترقدي

وكان لذلك الوداع موقف مشهور مشهود، نثر فيه من جمان الدمع لؤلؤ منظوم منضود، وفيه قلت:

كل در لنا وكل عقيق

موقف للفراق أرخص فيه

ودموع كالشمل في التفريق

بجموع كوجدنا في اجتماع

وقد أعدت الركاب، وطاشت الألباب، وحضر للوداع جميع الأحباب، وأنا أصير كصير ميت على التزاع، وأقول ما خلق الله من عذاب أشد من وقفة الوداع، أعالج السياق، وأعاین المنايا بين أخفاف النياق:

لعلي أرى من بالجناب الممنع

أقول لصحبي حين ساروا، ترفقوا

وأسقى ثراها من سحائب أدمعي

والثم أرضا ينبت العز تربها

فقد أقسمت أن لا تسير غدا معي

وينظر طرفي أين أترك مهجتي

عليها وقد حلت باكرم موضع

وما أنا ان خلفتها متأسفا

ولما تبرأ التابع من المتبوع، وطفئت نيران الوداع بمياه الدموع، وعطف المودعين لي بالعودة لقطرهم والرجوع، وهم بين راجع بالجسم وهو لي بالقلب مصطحب، وضاحك بما يرجوه لي وهو على وداعي منتحب، أخذت في الارتحال، وأنشدت بلسان الارتحال، بل بلسان الحال:

أم وداعا يكون هذا اللقاء

ليت شعري أنلتقي بعد هذا

خير زاد تزودوني الدعاء

فاذكروني وزودوني دعاء

ثم امطيت الطرق طريقه، ولم أبلعه في الأناة ريقه، والفراق يردى فريقه، وقلت:

وأتلقت باقي العمر؟ يا ضحوة السبت

أأذهب، أيام الشبيبة والنوى

وقل لاجتماع الشمل: لابد من شت

فقل لجديد العيش: لا بد من بلى

وسرت بعزمة لا يفل حدها، ولا يتجاوز حدها، وخرمة لا يثنى رسنها، ولا يلم بعين وسنها، وأخلقنا في السير شباب ذلك النهار، وجاريت بدموعي جريان تلك الأنهار، وبت بساحة واد حللنا به بين ظفر التوحش ونابه، أكن الوجد ما غاية الشكلى ان تكنه، وأجن من الحنين ما لا تطبق الجوانح أن تجنه، وأردد:

فكيف إذا مرت عليك شهور !

أ هذا ولما تمضي للبين ليلة؟

حتى إذا بقى من الليل حد الوصية من المال، قضينا على معزول السرى بالاستعمال، وسرت أحمل أنفاس الصبا حقائب الوجد، وأتمتع من شميم عرار نجد، فما طلع من الغد وجه النهار، ولا بدا فيه حاجب

الأسفار، إلا وقد أشرفنا على "المرية"، تتلع إلينا أجياد قصايها وغرفاتها وتبتسم عن ثغور أسوارها، وبلج شرفاتها، كالعذارى شددن مناطفا، وتوجن بالأكيل مفارقا، كأن تراهما عنبر، وحصاها عقيق، وهواها نسيم وماءها رحيق، مغان لها عندي معان وأماكن، فسكانها للنفوس سواكن.

دمن طالما التقت ادمع الح زن عليها وادمع العشاق

فهناك شاهدت الأطباء مختلطة بالآرام، والغزاة أنيسة النفور والشادي يبادر بالسلام، والعطف من العطف لا يخلو، والحقف يحمل الغصن يمر في كل حين وكلما مريحلو، فحمدنا عند الصباح السرى ودخلنا المدينة أم تلك القرى:

ألوى الضلوع من الولوع بخطر من شيم برق أو شميم عرار وأنىخ حيث دموع عيني منهل يروي وحيث حشاي موقد نار

وعند دخولنا إليها مررنا على بعض البساتين المجاورة لها، فحيانا بوجه مشرق، وحبانا من مذانبه برواء مغدق.

ودولاب إذا أن يزيد القلب أشجانا سقى الغصن وغناه فما يبرح نشوانا

فدخلت المدينة بقلب غير داخل، وتلقيت المنام بطرف شحيح بالكرى باخل، وكلما فتشت للأوطان في فكري ذنبا، اجعله سببا للسلو، أو عيبا أركن به إلى الراحة والهدوء، قال الاختبار لا سبيل إلى ذلك، وجعل يعرض علي من حسناتها ما جلا به ظلام الليل الحالك، ولولا أني رجعت إلى جميل الصبر بعد الذهاب، وعللت الروح التي راح سرها لقرب الإياب، لأمسيت أثرا بعد عين، ولكنت أحد من قتله يوم البين:

البين جر عني نقيع الحنظل والبين أكلني وان لم أكل ما حسرتي! ان كنت أقضي إنما حسرات نفسي أنني لم أفعل نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

فحللت منها الحل المودود، وحللت بها المشدود والمعقود، وجددت بعلمائها العهود، وأقمت الازم منها معهدا مألوفاً، ومشهدا بالحبائب محفوفاً، إلى أن هبأ غراب دار الصنعة، وتيسر اندفاعه في يوم الجمعة،

فجددت الوداع، وشاع خبر الجواز وذاع، وفارقت من فارقت لا عن ملالة، وودعت من ودعت لا عن تعويض، وركبت فيه بباب الديوان في يوم الأحد، السابع لجمادى الأولى من العام المذكور ثم وقفت ماشيا على الماء وقفة المتسلم، وودعت الأندلس وداع المتأمل المتألم، وأنشدت:

خليلي هذا موقف من متيم **فعوجا قليلا وانظراه يسلم**

وسرنا في أطيب هواء، واحسن استواء، إلى أن وافينا "مرسى هنين" فزلنا بها ضحوة يوم الثلاثاء، التاسع لجمادى الأولى المذكور، فرأيت بليدة نصيرة، لا كبيرة ولا صغيرة، جميلة المنظر، متوسطة بين الصغر والكبر، موضوعة أسفل جبلين، بين بحر وشجر، يخفضها ارتفاع قلعة، دار صنعة، وأسواق موفورة، ومساجد معمورة، ولقرها من الأندلس هي مذكورة، لقيت بها الخطيب، أبا عبد الله بن جابر، فجزر الوحشة بالإيناس وأنشدني لبعض الناس:

أبشر بخير عاجل **تنسى به ما قد مضى**
فرب أمر مسخط **لك في عواقبه الرضى**

ثم خرجت منها صبيحة يوم الخميس، الحادي عشر لجمادى الأولى المذكورة وسرنا نلتهم الأرض التهام الضمير نرتبط بالجد ارتباط الفعل بالضمير، إلى أو وافينا مدينة "تلمسان"، فحللنا به ضحوة يوم الجمعة، الثاني عشر من الشهر المذكور، فرأيت مدينة قل مثلها، وجل عرارها وبانها واثلها، بطاح وادواح، وربى ملاح، وضياء وانسراح، وبسيط له اتساع وانفساح، ومياه لها على در الحصا انسحاب وانسياح، وروضات يعتري ويعترض إليها اهتزاز وارتياح، وجنات ريقها ندى وثغورها اقحاح، فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء، ممتدة الغاية في الحسن والانتهاء، جوها صقيل، مجتلاها جميل، ونشرها أريج النفس عليل.

وأرض من الحصباء بيضاء قد جرت **جداول ماء فوقها تتفجر**

كما سبحت تبغي النجاة أراقم **على روضة فيها الأفاق منور**

وكم للعباد من أطراد مذاربها واخضرار جوانبها، من نفحات رحمة، وبيضاء تربي على كل مستحمة، تحييك بالوجه الوسيم، وترى الغصن يصلى بتحيات النسيم، فزلت منها بالحلة المنصورة، الحاضرة للمدينة المذكورة، محلة السلطان العادل، الهمام الباسل، ملك الإسلام والمسلمين وناصر الدنيا والدين، أبي الحسن بن السلطان الفاضل الغمام الهاطل، أمير المسلمين، نخبة الملوك والسلاطين، أبي سعيد العابد، المرباط المجاهد أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، أيدهم الله تعالى وأسعدهم، فما حططنا الركاب، ولا وضعنا الاقتاب إلا والشمس يتبين زوالها، وطهارة المكتوبة يتعين استعمالها فأطمنا وعشاء السفر، وأخذنا في غسل الجمعة بالأثر، ثم تمتعنا بالخطبة والخطيب، بعد أن أخذنا

بحظ وافر من الطيب، والعود الرطيب، وند ما له ند، تعاطيه من السنة، إذا أدخلته النار حكى رائحة الجنة، وجلنا في المحلة، وهي روض يثمر خيلا وأعنة، وبحر يزخر قنا وأسنة، وذوائب الأعلام تخفق، وألسنة عذباتها تكاد بالنصر تنطق، والأحوال قد استقامت، والأخبية على القاعدين فيها قد قامت، وهي مبيضة كسقيط الثلج، مصطفىة كبيوت الشطرنج، وقد أشرق الجو بإشراق الحمائل والنبات وأشرف على مدينة أهدت بها الأزهار والأثمار من جميع الجهات، فأقمنا هنالك درر الأنباء، ونحتلب در النعماء، وأنا امرح في جهاتها، مرح العين في منتزهاتها، حتى تمتعت في ذلك الجمع الحافل، بلقاء جماعة من الأفاضل، وأنشدني بعضهم لبعض أهلها وهو الكاتب أبو بكر بن الخطاب، رحمه الله تعالى، وهو مع سائر نظمته عندي بالإجازة عن الشيخ الخطيب المحدث الحاج الفاضل أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري رحمه الله، قال أنشدنا شيخنا الكاتب الأديب البليغ أبو بكر بن خطاب بتلمسان لنفسه:

سرى البدر فارتاع الفؤاد لومضه فبت وجفني لم يذق طعم غمضه
تبدى كعرق في الغمامة نابض يدل على سقمي تواتر نبضه
سجدت له لما تراءى يمانيا وأكملت من دمعي طهوري لفرضه
وقضيت من حق الصباية واجبا برئت من العشاق ان لم أقضه

وذكرني عصر الشباب وطيبه وعيشا تحلينا مليا بغضه
وعهدا شددنا عقده بيد الوفا فلا بطشت كف تمد لنقضه
فيا ساري البرق الذي ضاعف الأسى على دنف ما زال يشقى بنضه
أعندك من أهل العقيق رسالة أقارضك عن إبلاغها خير قرضه
وإلا فبلغهم تحية موجه يعاني الذي ينهد رضوى لبغضه
وجرد على واديهم ذيل ديمة تتمنم بالأزهار صفحة أرضه
حنيني إلى الوادي لأجل جوارهم مجاورة المخفوض تعدى بخفضه

ثم زرت تربة ولي الله تعالى ابن مدين مرة أولى وثانية، وأقمت بالحلة أياما ثمانية، وكان خروجي منها ورحيلي عنها في صبيحة يوم السبت، الموافق عشرين جمادى الأولى المذكور، ولم نزل نقطع مهامه قفار، ونجوز في أودية وبحار، ونشاهد من الأرض والسماء كل نهر سائل وغيم مدرار، إلى أن وردنا "مدينة الجزائر"، في آخر يوم الخميس الثاني لجمادى الثانية من العام المذكور والليل قد غول، والنهار قد تحول،

والقلب لا يصبو إلا لأول منزل، ولا يحن إلا إلى الحبيب الأول، ولما طرزت طرة الظلام يد إلا صباح،
وأرسل الفجر في رداء السحر خيط الصباح أسرعنا مبادرين، وبادرنا مسرعين، وتفرقنا في سكك المدينة
أجمعين، فرأيت محيا صبيحا وتربا مليحا ومسجدا عتيقا، وبناء أنيقا، وأناسا قد سلكوا إلى الحسن
والإحسان طريقا، من مدينة أقسمت بعلو هضابها إلا بفوز مبسم الثريا برشف رضائها، فلا ترتقيها إلا
الظنون، وكأنها ضب ومن يطمع فيها نون، قد أحاط بها البحر إحاطة السوار بالزناد فألبس ذلك الجسم
روح الجحد، وركب خلائق الوهد على ذلك النجد، فأقمنا بما نحكم في حزن الأنس وسهله، حكم الصبي
على أهله، حتى قرب أمد الرحيل، وغلب واجبه على المستحيل، فعزمت على الخروج، وسرت على
بياض ذلك الساحل وخضرة تلك المروج.

يا بياضا أدرى دموعي حتى عاد منها سواد عيني عتيقا

وخرجنا في صبيحة يوم الاثنين السادس لجمادى الثانية المذكورة فدخلنا في أمر عظيم، وطريق غير
مستقيم، وعذاب يوم عظيم، نصعد على التهائم ونغور في النجود ونسلك كل مخدع لم يكن بالمألوف
ولا بالعهود. ولا كان مسلكا إلا للذئاب واللصوص والأسود، إلى شعراء بالخوف مشعرة، وأرض خالية
مقفرة، وجبال منخرقة في الجو وعرة، تقطع الأسباب، وتخلع الأبواب، وتذكر الصراط والميزان والحساب،
وأظن الخطابي إياها عنى بقوله:

سلكت عقابا في طريقي كأنها صياصي ديوك أو أكف عقاب
وما ذاك إلا أن ذنبي أحاط بي فكان عقابي في سلوك عقاب

فبقينا نكابد عظيم ذلك الأمر، ونسير ولا نفارق ساحل البحر، ونرقى العنق التي تقربنا من السماك
وتدنينا من النسر، وقد اشتد البرد، وبلغ الجحد، وفرع الجهد، ووقع الثلج، وعمى النهج، وابتلى به الفج
والمرج، فتصبح وصباحنا أبيض، وجناحنا لا ينهض، والعروق لا تنبض، والبروق لا تومض، والخيام
لجمودها واقفة على غير عمودها، والنيران مقرورة، وشفاه الجليد مطرورة، والزناد كابية، والصعاد نائية،
والوجوه في عبوس، والوجود في بوس، وقد جمدنا كأننا بلا نفوس، فنبت الأيدي على ان تبطش،
والأقدام عن أن تنهض، وأسود يومي منه وان كان به أبيض، وجاءت السماء بسيل عرم، ولهب قر
يضطرم، وقد صوب الغمام سهامه، ولبس الجو لحرب المحل لأمه، فلم يبق قطر إلا وقد نفدت فيه تلك
السهام، ولا أفق إلا وعلاه من خيوط الودق المحتبسة مثل القتام، فلا أحد إلا وجد من ذلك ما أقلقه،
وأحرق قلبه بتواليه وان كان في الحقيقة أغرقه، وسرنا والعناء قد بلغ منا الغاية وانتهى بنا إلى النهاية، حتى

وصلنا إلى "بجاية"، فدخلناها في يوم الاثنين الثالث عشر لجمادى الثانية "المذكور" بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمن يطير، وخطاها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح، وملت عليها في بيض وصفاح، يمتد أمامها بسيط أخضر، مد البصر قد أجرى الله فيه مذانب الماء تسقيه، وتضرب في نواحيه، كأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد، مخوفة بالزمرد والعسجد، والبساتين ملتفة الأشجار، يانعة الثمار، والنهر الأعظم ينساب بين يديها قد انعطف عليها انعطاف السوار، والحدائق تنتظم بحافيته، وتفيء ظلها الوارفة عليه، فهي النضيرة الدوح، العذبة الأنهار، الطيبة الهواء المشرقة الأضواء، التي اجتمعت عليها الأمراء، وسلم لها الهواء، وشيد فيها البناء، وبعد لها الصيت المدود والثناء، انتظم فيها من الوادي والبحر، قلاذتان على ذلك النحر، قد حلينا ذلك البلد، وتجلينا كوالد وما ولد، قد مرجها الله بحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، فإذا ضاحكتهما الشمس أنعكس الضياء، وزاد الاحتفال في النور والأفياء، إلى حدائق قد انتظمت انتظام الأحباب، وشقائق ترفل في أثواب الشباب، وتسدل أذيالها بين تلك القباب.

ق تراها حريرة خضراء

ورياض كأنما نثرت فو

واخضرار الرياض منها سماء

أعين النرجس الجنى نجوم

غطيط وللغصون لقاء

للثرى تحتها شيات وللما

فأول من لقيته من أرباب المحابر، وركاب أعواد الكراسي والمنابر، فاضل الأفاضل وكبير الأكابر، الشيخ العالم المحدث، أبو عبد الله محمد بن جعفر رحمه الله، قصدت لقاءه والأخذ عنه وقدمته وكنت أسمع من ملفوظ حامده، ومحفوظ محامده، ما هو بغية السامع وحلية للمسامع، فلما رويت من مكارمه ما رويت، استصغرت ما سمعت لعظيم ما رأيت واستقللت ما سمعت أذناي، لما عاينته عينا، وأنشدت لنجم الدين بن مهذب الدين:

عن مجدكم وسناكم أطيب الخبر

كانت محادثة الركبان تخبرني

أذني بأحسن مما قد رأى بصري

حتى التقينا فلا والله ما سمعت

فأنزلي بمنزله الكريم، وقابلي بالترفيح والتكريم، وأقمت معه فيه يفيض على من كرمه بحرا زائرا، ويفاوضني من علمه منهلا لا أجده له أخرا، ويرويني بمسوغاته الفاضلة، ويرويني من مسوغاته الحافلة، فلا أدري من أي بحريه أعجب، ولا أيهما أروى وأعذب، حتى قلت له:

كرما فتغر البرق منه يضحك

أبكيت عين الغيث لما فته

فارتاح وتهلل، وأكثر من الأفضل وما قلل، وجرى على عادته في المكارم والانطباع فأنشدته:

ولو صورت نفسك لم تزد لها

على ما فيك من كرم الطباع

سمعت عليه تصانيف كثيرة، وأجازني وكتب لي بخطه، وكان رحمه الله إمام هدى وعدالة، ووحيد معارف وجلالة، حالي الرواية، كامل المعرفة والدراية، رصين العقل، إماما في التحديث والنقل، متفاوت الكرم، بعيد الهمم زكي الشيم، حسن المفازع، مليح المبادئ والمقاطع، واقعا من النفس أحلى المواقع، ذكر لي: قال ذكر لي الشيخ القاضي أبو العباس الرندي قال: كنا جلوسا بحضرة تونس مع القاضي بها أبي العباس ابن الغماز لارتقاب شهر شوال، وإذا بطفل صغير وسيم قد نظر ورآه قبلنا فقال القاضي ابن الغماز: كنا جلوسا مع الشيخ أبي الربيع بن سالم الكلاعي بمدينة بلنسية لارتقاب هلال شوال فأول من رآه غلام وضئ الوجه من قرابة الشيخ، فارتجل الشيخ ساعتئذ:

تواري هلال الأفق عن أعين الوري

وغطى بسجف الغيم زهوا محياه

فلما أتى "شقيقه" ليزوره

تبدى له دون الأنام فحياه

ومما أنشدته فاستغربه وحفظه وكتبه، ما أنشدني الشيخ الخطيب المحدث الحاج الفاضل أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد إجازة قال أنشدني ناصر الدين نصير بن أحمد بن علي المصري المناوي الحمامي بحمامة بمصر لنفسه في فتى اسمه فرج الله على طريق التورية.

أقول لقلبي وقد ذاب في

هوى شادن حاز حسنا غريبا

تصبر إذا كنت في شدة

عسى فرج الله يأتي قريبا

وأنشدني لبعضهم عند الوداع:

يا راحلا ودموع العين تسبقه

هل من سبيل إلى لقياك تتفق

ما أنصفتك جفوني وهي دامية

ولا وفي لك قلبي وهو محترق

وقد أفادني من فرائد الفوائد، ما لا يفيد إلا فرائد العلماء إلا ما جد، كانت مجالستي إياه ببحاية آخر العهد به فإنه توفي بعد انفصالي منها ونزوحني عنها على أحسن ما أجرى الله حاله عليه من حسن السيرة وخلوص السريرة، جدد الله عليه من الرحمة والمغفرة، وجعله من الذين قال الله فيهم وجوه يومئذ مسفرة، ثم لقيت بها جملة من الفضلاء وجملة من العلماء قد ضمهم الولاء في فلكه:

لهم همم كما شمخت جبال

وأخلاق كما هشت بطاح

ترى بهم النجوم، ولا ظلام

واوضح النهار ولا صباح

قصدت الرؤية لهم والرواية عنهم، فنحوا نحوه، وحذوا حذوه، واقتدوا بفعله، وان لم يدركوا شأوه:

يا بارقا بأعالي الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن فانتك الشنب

ثم أخذت في حركة الخروج من ذلك القطر الذي هو حاضرة البحر ونادرة الدهر، وموطن الفضلاء من أهل العصر الذين طبق ذكرهم تطبيق الغمام ونم كما نمت بأزهارها الكمائم، ولهم مآثر بتعاطي الركب حميها، ويتعاطى نوافح رياها:

وما أراني بمستوف مناقبهم ولو نظمت لهم زهر النجوم حلا

ففارقت الصبر عند مفارقة تلك المنازع، وودعت الجلد عند وداعي لذلك المسجد الجامع. وسرت وقلبي في تلك التلاع وتلك الاجارع، وقد خامرني الفرق، واستولى على جفني الأرق، وأولعت بما يولع به المشفق. وأنفقت دمعي وكل امرئ مما عنده ينفق، ورحم الله زهيرا المهلي، فعن حالي عبر بقوله:

إلى كم جفوني بالدموع قريحة وحتى م قلبي بالتفرق خافق

ففي كل يوم لي حنين مجدد وفي كل أرض لي حبيب مفارق

ومن خلقي أني ألوف وانه يطول التفاتي للذين أفارق

وأقسم ما فارقت في الأرض موضعا ويذكر إلا والدموع سوابق

فيممت خير ميمم وفارقت غير مذمم، وخرجت منها في صبيحة يوم الأحد الحادي عشر لرجب الفرد، من العام المذكور، على ضفة الوادي الكبير بين المنازل والقصور:

يا وادي القصر نعم القصر والوادي من منزل حاضر ان شئت أو بادي

ترى قرى قررة والعيس واقفة والضب والنون والملاح والحادي

فعبرت من الوادي الصغير بمثل ما أجرتة جفوني من الدموع، وخطرت من الرشة على ما أبرزته من الربيع والربوع، واحتزت على الربيع الرفيع، وحررت بالبديع البديع، وسلكت على تلك المربع الرائقة بالترهة والتوديع.

ولقد وقفت بها وكف ربيعها في نسج حلة نورها يتأنق

وسدا خيوط المزن يرسلها الحيا أبدا وأكمام النبات تفتق

والروض تولاه الولي ووسمه الوسمى وجشمته نسماات الرياح، وأظللته رايات الصباح، وغازلت كواكب الفجر عيون نرجسه الوقاح، وباكرت الصبا تقبيل ثنايا غوره الوضاح:

من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغواذي من ثغور الأقاح

والأرض قد أخذت زخرفها وآزنت، وبينت من حكمة الله سبحانه ما بينت ورباها قد تعممت بملونات الأزهار، وأراقم المذانب قد انسابت في مغائر الأنهار، والزمان قد استقبل اذاره، وخلع عذاره:

فالنور عقد والغصون سواف
والجزع زند والسرى سوار

رقص القضيب بها وقد شرب الثرى
وشدا الحمام وصفق التيار

ثم جزنا الوادي الكبير وهو بحر عباب، وفي كل رقعة من أثوابنا ميزات. وسرنا والموج غمر، وذلك الماء على الأجساد ثلج وفي أكبادنا جمر، والريح ترمي بحاصب، والودق يأتي من كل جانب، والدوافع ترعب، والمذانب تتعب، والقطر قد ملأ كل خرق وسبب، وورد آتیه من كل آتی ومذهب، وجاء بكل صبح وغيب. ولم تزل الأمطار تتوالى وتزل:

كأن السحاب دوين السما
نعام تعلق بالأرجل

فادمعها سح وسكب وديمة
ورش وتوكاف وتنهملان

فسرنا على تلك الحال، ونحن من طوفان تلك السحاب في أعظم الأوحال، وقد أعيى الركوبة ما أدهى حمله من مستنقع الأثقال، حتى وصلنا إلى "قسطنطينة" والركاب فاشلة، والنفوس ذاهلة، والتلاع سائلة، وجفون السحاب هاملة هائلة، والشآبيب مستمرة، وحلاوة العيش ممرة، والأوحال تمنع من خروج يعيد الأبدان معفرة، والثياب معصفرة، فحللنا منها في حصن حصين، ومكان مكين، وربوة ذات قرار ومعين، وقاعدة أمن وتأمين، وتمهيد وتسكين، صحيحة الهوى، بعيدة المهوى وبسبب ذلك تنسب إلى الهوى المقصور، فيقال: قسطنطينة الهوى، ناهيك من مدينة تحوم حول سحاب القطر، وتسوم بارتفاعها مراقي الكواكب الزهر، وتصون بامتناعها من حدثان الدهر، وتصول ببساط الملك وبسيط الزهر، وتروق بناعم الروض وهامر النهر، وتفخر بجمال المحاسن كل الفخر، ويخترق بطاحها نهر ينساب فيها انسياب الأرقم، ويدور بها دور السوار بالمعصم، ويغوص ببعض حافاتها فيغيب عن العين، ثم يبدو بخارجها كأنه سبائك اللجين، فيسيل على تلك البطاح سيلا، ويتخللها جداوله فتجر بها ذيلا، وتعمها شربا، وتسقي منه بماء واحد ورياه تعود منه بما شئت من صلة وعائد:

نهر يهيم بحسنه من لم يهم
ويجيد فيه الشعر من لم يشعر

ما أصفر وجه الشمس عند غروبها
لا لفرقة حسن ذاك المنظر

بها تتوفر الأرباح، وبأعلاها تتبارى الرياح، وبشتى أقطارها يتلاقى التاجر والفلاح، ويعتز الساكن منها في الحصن الأحمى، والموطن الأسمى، والحل الأسنى، والعيش الأهنى، ويمسك له في خزائنه الواسعة من ياقوت

القوت ما يفنى الدهر وهو لا يفنى، تهابه النفس عند موافاته وتأوي الفتحة الكواسر بأدنى حافاته، وتزل أقدام الصاعدين إليه على أكثر صفاته، وتعجز أوصاف الواصفين عن بعض صفاته:

يأوي إليه كل أحور ناعب وتهب فيه كل ريح صرصر
ويكاد من يرقى إليه مرة من دهره يشكو انقطاع الابهـر

وبادرت فدخلناها في يوم الجمعة السادس عشر لرجب المذكور. وبادرت إلى لقاء الفضلاء، ومباحثة النبلاء، اجتلى واجتنى ولا اجتنب، وأنا والطرس في ملأ انتقى منهم وانتخب. فمما أنشدني المـترل، رب المـترل الشيخ الإمام الرواية الحاج الفاضل المتفضل: أبو الحسن علي بن عبيد الله لبعضهم:

ما رأينا ما سمعنا كزمان نحن فيه
كل من تلقى تراه يشتكي ما تشتكيه

وذكر لي قال كتب بعض السؤال إلى بعض أهل هذه المدينة يستجديه ويستحثه بقوله:

ماذا أقول إذا سئلت وقيل لي ماذا لقيت من الجواد المفضل
ان قلت: أعطاني، كذبت، وأن أقل: يخل الجواد بما له لم يجمل
فاختر لنفسك ما أقول، فأني لا بد أخبرهم وان لم أسئل

فأجابه المسئول بقوله:

أعجلتنا، فأناك عاجل برنا قلا، ولو أمهلتنا لم نقلل
فخذ القليل وكن كأنك لم تقل، ونكون نحن كأننا لم نسال

وأخبرني قال: أقبل أعرايي إلى داوود بن المهلب فقال له: أي مدحتك فاسمع. فقال على رسلك، ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج فقال: قل، فان أحسنت حكمناك، وان لم تحسن قتلناك فانشأ يقول:

أمنت بداود وجود يمينه من الحدث المغشى والبؤس والفقر
فأصبحت لا أخشى بداود نبوة من الحدثان ان شددت به أـزري

له حكم لقمان وصورة يوسف وحكم سليمان وعدل أبي بكر

فقال له: قل قد حكمناك، فان شئت على قدرنا وان شئت على قدرك. قال: "بل على قدري" فأعطاه خمسين ألفاً، فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدرة الأمير؟ فقال لهم: لم يكن في ماله ما يفني بقدره، فقال له داود: أنت في هذه أشعر منك في شعرك، وأمر له بمثل ما أعطاه.

وأنشدني أيضا قصائد تقيدت في غير هذا، واجازني جميع مروياته، فهو روضة الأدب الناعمة الغضة، وصحيفة الرواية النقية المبيضة، وحامل المكارم المنقضة والمحامد المرفضة، وجامع المحاسن التي بها أدمع الصباية منقضة، ألسنا لمن وأخاه، السني في كل ما يتوخاه، العاكف على ما يحمد عقباه. العارف بما رواه ورواه، الحفي بمن آتاه المنيب إلى أواه، الخاشع لمولاه، أبو الحسن بن عبيد الله، تغمده الله برحمته، وجعل الجنة نزله ومثواه، برحمته، ولم أزل أو إلى أهل الولا، واختص بذوي السؤدد والملا، حتى جاء الفراق، ومارق ولا راق، فأنشدتهم وقد قوى العزم، لأبي المغيرة بن حزم:

ق وجدان غيره بالحبيب

واجد بالخليل من برحاء الشو

وقلبي لغيركم كالقلوب

ان قلبي لكم كالكدب الحرى

وخرجت منها ضحوة يوم الأحد الثامن عشر من رجب المذكور في جمع وافر، ذي خف وحافر، سرنا نفتني البداء، ونغتنى في كل ثنية جرداء، قد دأبنا على الترحال، وركبنا متون الوحال، سمونا على الماء كسمو حبابه حالا على حال، إلى أن وافينا بلد العناب، "وتسمى أيضا بونة" وصلناها أيضا يمين الله على أفضل الأحوال، ودائرة البيضاء يمين مركز الزوال، فدخلناها في يوم الجمعة الثالث والعشرين لرجب المذكور، فرأيت مدينة مكينة، وقلعة حصينة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، ومعدومة الشبيه والنظير في القلاع، تزهت حصانة أن ترام أو تستطاع قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة، سامية الأرجاء، واسعة الفناء، موضوعة على نسبة حسنة في الاعتدال والاستواء، والمدينة العجيبة كالعروس في ناديها قد رفلت في درع واديها، وامتنعت بحسامه المسلول من غير الأيام وعواديتها، فأخذت به من المطالب معتصما، وتجلت في سواره معصما فبكل مسقط نظرة ما اشتتهت الأنفس من نعيم ونضرة، نهر هتان، يحفه بستان، ومرآي لخواطر الأدباء فتان:

وتدور في أيدي السقا عفار

نهر يسيل كما يذوب نضار

وإذا انحنى جزع به فسوار

فإذا استقام فصارم دامي الطبا

خفقت بظهر مهب ريح نار

مغرورق التيار، ملتطم كما

فكأن ذا خد وذاك عذار

فاحمر وأخضر النبات بشطه

لها أرض تقتنص النظر بتدريج أزهارها، وأطراد أنهارها، وتؤمن الراكض بها من هفوة غبارها، وكبوة عثارها، كأنما نسج أديمها منسج، واستوت أطرافها وأوساطها فجوها سحسج، ومتى تكلمت الفصول أعاد الله شبابها، فأنشأها خلقا جديدا، وجعل عودها مشمرا وظلها ظليلا مديدا، فيالله اتساع ظواهرها

وبواديها، والحسن البادي ببحرها وبواديها، وارتفاع تلك القلعة والحصن، وما أوتي من النعمة والحسن، قد عمرت نجاهه وغيطانه، واستقر بين خصب الوادي، ورحب النادي ثواؤه واستيطانه سعدت إليه فرأيت حصنا مستقلا، وكثيرا من الحسن لا مقلا، بل معقل الحسن ومستقره، ومجاز الأنس وممره، قلعة قد عقد الجبل حبوتها، وأزلق العراب أن تطأ ذروتها، وعصم سوار الوادي الملوي معصمها، وحمى غرر دهمائها أدهمها، فالخيل تصعد منها أنجما في فلك، بين طالع كطالعها أو غارب كغارها، والأرجل منها على كرة لا تستقر بأخص راجلها ولا بحافر فرس راكبها وكأنها قد اعتزت لولا ما جعل الله الأرض ذلولا، وأمر أهلها أن يمشوا في مناكبها، فمشيت منها في مركب سام، وألف بالنجوم مسام، ثم خرجت من المدينة في صبيحة يوم الأحد الخامس والعشرين لرجب المذكور سالكا سبيل جبل الحفاء، ومالكا من الرجاء ما برح به الحفاء، من جبل يقرع الواصل إليه سن الندم، ولا يكاد يشرب الماء إلا من قليب دم، قد أفرط في الجفا، واشتهر بالحفا، وجمع بين غلظ الشعراء والأرض الوعراء، فسلكناه منه في عقاب كفى بسلوكها للمجرمين من عقاب، نكتنف الفرع ونلتحف الجزع، إلى أن جزمنا عوامله بالحذف، ومنعتها علاته من الصرف، وأسفر لنا وجهه العيوس ومحياه الذي في مشاهدته البوس، عن قطعة من العرب كقطع الليل، حملت علينا حمل السيل، فكان زوال كل ما ملكناه أسرع من لحسة الكلب أنفه، وناهيك عن صبيحة ذلك اليوم فجاءة حال، وسرعة انتقال "وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال".

لقونا فضموا جانبينا بصادق من الطعن مثل النار في الحطب البيس

وانقلبت اعدى من جام ونجوت برأس طمرة ولجام، منهزما مكلما، يشعب جرحي دما، وصحابي قد منحوا الأكتاف والرقاب، ودماءهم تسيل على الأعقاب،

وتركتهم تعس الرماح ظهورهم من بين مقتول وآخر مسند

ولم نزل نخوض أحشاء كل واد كالثعبان، نتلقف نفس الجريء فكيف بالجبان، فكأن تلك الأودية سيوف لقتل الأنس مسلولة، ولولا زرقه ألوانها لقلت دماء مطلولة، خاتم نظامها ومسك ختامها، ومنتهى كمالها وتمامها، وآخر عذابها وانتقامها يسمى "أبو جردة" قيل لأنه يجرد الإيمان من قلب شاربه، كفاك هذا من أوصافه ومناقبه، وهو على أثني عشر ميلا من الحضرة، لم تنبت قط حوله عشبة نضرة، ترابه قد أسود، وماؤه قد أظلم، ويقال أنه من أودية جهنم، تعذر علينا جوازه في القارب فما توسطته راكبا إلا والمركب قد غمرته المياه وحملتني وإياه، وكنا من المغرقين لولا أن رحم الله، ثم خرجت ساجدا، وقد ذهب الوادي

بأكثر القوم، بسبب ما أنعم الله به علي من معرفة السباحة والعموم، وحصلت على ساحل النجاة ولا شيء إلا مبلولا، ولا شد إلا محلولا أو محمولا.

لا تحسب المجد تمرا أنت أكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فوصلت إلى "حضرة تونس المحروسة" في ليلة يوم السبت أول من شعبان المكرم من العام المذكور بعد اللتيا والتي، وانضاء جسمي ومطيتي، وأخلاق البيتين اللذين لم أحلها عن فكري ورويتي.

يقولون تونس مصر عظيم وأرجأؤها جنة زاهرة

نعم هي مصر لأربابها وللواردين هي القاهرة

فأرحت الراحلة من الرحل، واستبشرت بالخصب بعد المحل، ولا بد دون الشهد من أبر النحل، فبتنا بها جيران دولاب يهدل، وأغصان تثني وتعتدل، وستر الظلام ينسدل، وتلك الحضرة تتلفع بثمارها تلفع الكاعب بخضرة خماتها، قد سلت على بساط الروض من المذانب حساما، وضحكت تغور شرفاتها ابتساما، والدولاب بندب من الزهر الداوي هديلا، ويتوسل للروض بدموعه فيخلف له بديلا، فبت أجاب أنين ذلك الدولاب، وأجري بدمعي دمه في الانسكاب، وأنشد فيه لبعض الأعراب:

باتت تحن وما بها وجدي واحن من طرب إلى نجدي

فدموعها تحيا الرياض بها ودموع عيني أحرقت خدي

ولما تفرى عن وجنة الأفق عذار العييب، وتتوج كسرى المشرق بالتاج المذهب، طفقت أتمشى في الأماكن المكيئة، وأتخلل سكك المدينة وأتعجب من محاسنها المستيئة، ووضوح قدمها ورسوخ قدمها وبهجتها وانفراجها، وانفساح رباها وأبراجها، ورونق رياضها، وتذلل الهموم لفرجتها وارتياضها، واتساع جنباتها وإفنائها، وكما لها في البلاد البحرية وغنائها، وإيناع حدائقها المحدثات، وإحرام حجيج الأنس في ذلك الميقات، فدخلت منها جنة حفت من طرفها بالمكاره، وعقيلة عقلت قلب الطائع والكاره، فهي الدمية الغراء، والقبة اللعساء، والخريدة العيناء، تزهى بها المحافل، ويحتقبها الطالع والآفل والله در القائل:

لتونس تؤنس من جاءها وتودعه لوعة حيث سار

فيغدو ولوحل أرض العراق يحن إليها حنين الحوار

ويأمل عودا ويشتاقه اشتياق الفرزدق عود النوار

فالتاح بتونس الأنس، وانشرحت النفس، وصلحت الحال واللبس، ووجدتها كما قال أبو الحسن المري:

تؤنس بالغرب خير دار

تؤنس من حلها غريبا

حللت عقد البعاد لما

حللت من أهلها قريبا

وظللت ألقى أكابر الأولياء، وآخذ عن العلماء الأتقياء، فأول من لقيته بها من الأولياء والأفراد، والعلماء الزهاد، السيخ العالم الولي لله تعالى، أبو الحسن علي، المشتهر بالمنتصر، أفاض الله علينا من بركاته. هو صدر من صدور أئمة الدين، وكبير من كبراء الأولياء المهتدين، وقدوة في أفراد العلماء الزاهدين، حامل لواء المعارف، ومحرز التالد منها والطارف، وحافظ للكتاب والسنة، ومحافظ على اتباع الشريعة والملة، قائم بأعباء صلاح الأمة، باسط للضعفاء وذوي الحاجات جناح الرأفة والرحمة، كثير الصيام والقيام، دائم الخلوات ومستجاب الدعوات وقورا صموتا، مهابا معظما:

قابله فمئنت منه مهابه

شغلت علي فصاحتي وبياني

ولثمت قرب فئائه فكأنما

قبلت من طرب خدود غواني

رحل إلى المشرق قديما ووعى الكثير، وشأنه كبير، وله من المكاشفات وإجابة الدعوات ما هو أشهر من أن يذكر، حللت بحلاله، وانضويت إلى جلاله، وخيمت بسوارف ظلاله، فألقيت فيه ركنا عظيما ومأوى كريما وابابرا رحيمًا وإماما أوسعني إفادة ونصحا وتعلينا، وسبب ذلك أن أخي أبا بكر محمدا لما خرج إلى وجهته الحجازية، وعلم الله تعالى منه صلاح النية وخلوص الطوية، وانتهى إلى الحضرة التونسية، جملة عوارف الألفاف الخفية، وعطفته عواطف القدرة الربانية، إلى لقاء شيخنا هذا والتبرك به، وطلب الدعاء منه فتفرس رضي الله عنه فيه مخايل النجاة ولاحت له عليه دلائل الصدق والإنابة، فضمه إلى جانبه الشامخ القواعد، وكفله كفول الوالدة والوالد، حتى جعل تحت حرمة، واختص بصحبته، وظهر فيه صدق فراسته وبركة دعوته، ثم ارتحل عنه مشرقا بعد تراخي المدة، وتوالي الأيام والأشهر الممتدة، قرير العين، ملي اليدين، فائزا بحظوة الدارين وحين وردت موارد، وحضرت معاهده، وسألت عن مطلع شمس، مسير يومه وأمس، فأخبرت أن الذي نعينه بالسؤال، قد بانت برحيله الرحال، سقطت على التراب مغفرا، وأفضت فأنشدت حين سرى:

ماذا وقوفك والركاب تساق

أين الجوى والمدمع المهرق

الغير هذا اليوم يخبأ أو ترى

بخلت عليك بمائها الأماق

حتى لقد رحلوا بقلبك والكرى

ان النواظر لا الدموع تراق

ثم نزلت منازل، فتمتعت بها دهورا، وأقمت ألامها ليالي وأياما وشهورا، وجعل الله لي بصحبة هذا

الشيخ انتفاعا وظهورا، ولهذا الرجل الصيت البعيد، والباع المديد، زهدا وانقباضا، ونصيحة لعباد الله تعالى وحذبا على ضعفائهم، ووضع له القبول في الأرض فلم يختلف اثنان في فضله، ولي منه حظ لا أعده به حظا عسى الله ان ينفع به "وثانيه" في الفضل والولاية، والعلم المتسع والدراية، الشيخ العالم خطيب الجامع الأعظم، والراقي يقدم الصدق وذروة مناره، المعظم، أبو عبد الله بن عبد الستار، نفع الله تعالى به إمام من أئمة الفروع والتفسير، وسراج يقتدى به في ظلمات الدياجير، انتهى من الفضل إلى أقصى أمده، وكرع في بحره لا في تمده وحل منزلة مقنعة من عالم اللسان، ونظرت به عين التعين كالإنسان، أضاء بأنوار معارفه البلاد، وترادف على محله العلمي القصاد، وعلا سنه وسناه، وبلغ من وعي المعارف الدينية والأحاديث الكريمة النبوية قصده ومناه، له جلاله السيق، ومهابة الولاية والصدق، ومكانة القبول عند الخالق الخلق، ذو في الدنيا وأغراض عن زهرتها، وعزوف عن طلاهما، وكان يدرس العلوم في مدرسة الكتبيين التي استوطنها، فسمعت عليه كثيرا من التفسير والحديث والفروع والأصول وغير ذلك، ولازمته وانتفعت به، وشاهدت له كرامات ومقامات تصدر إلا من مثله أو من الولي الذي من قبله.

رحل إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فغاز من ذلك بغاية سوله، ونهاية مطلبه ومأموله، وتواتر عنه أنه لما عاد إلى وطنه، أعاد جميع صلواته التي كان صلاحها في سفره، إذ لم ترتضها عبادته التزيهة ومعالي سيره، وها هو قد طعن في السنين، ونيف على التسعين، فما ضعفت له قط موارد العبادة، ولا تعطلت منه تلك المدرسة عن الدول المعتادة ومما تقلت منها: ان الواقدي رفع إلى المأمون قصة يشكى فيها غلبة الدين وقلة الصبر، فوقع عليها، أنت رجل فيك خلطان، السخاء والحياء، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك، وأما الحياء فهو الذي بلغ بك ما أنت عليه، وقد أجزنا ذلك بمائتي ألف درهم، فان كنا أصبنا إرادتك فأزدد في بسط يديك وأن كنا لم نصبها فجنايتك على نفسك، فأنت كنت حدثني وأنت على قضاء الرشيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير: ان مفاتيح الأرزاق بازاء العرش يتزل الله للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم فمن كثر كثر له، ومن قل قل له، قال الواقدي: وكنت أنسيت هذا الحديث فكانت مذاكرته إيائي به أعجب إلى من صلته. وأعززهما بإمام الدنيا ومتبوء الذرة العليا، وسابق الغاية القصيا، والشيخ العالم، قدوة الأئمة وواحد أسانيد الأمة أبو عبد الله بن برال أبقى الله تعالى بركته، رجل أتاه الله تعالى كتابه وفتح عليه فيه أبوابه، ووفقه في أدائه إلى الصواب فأصابه، فاجتمع الناس إليه وتناغى المجودون من أهل القرآن في التلقف منه، واثالوا إليه عمن سواه فقامت له سوق، وأجلى خبره عن تقديم أمثل الخبرة، وأطباقهم على تفضيله، وكان هذا الشيخ قد أوتي من حسن اللفظ بالقرآن ما لم يؤته أحد ممن بقى على الأرض في هذا الوقت بإجماع، حضرت قيامه

في ليالي رمضان بالاشفاق وانتدب الناس إسماعه من النواحي والبقاع فما قرع سمعي ولا وقع في أذن قلبي، أحسن منه صوتا ولا أحلى تلاوة، ولا أطيب إيرادا، ولا أعذب مساقا، ولا أعجب أحكاما، ولا أغرب ترتيبا، ولا أجمل جملة وتفصيلا. ولقد كنت في حين قراءته على قساوة قلبي، وغباوة لبي أتغاشي وأتلاشي ويضج جامع تونس باهله، ويغص جمعه، فبين بك وداع وخاشع وساقط من القيام، وعادم وجوده في ذلك المقام، كلهم يفعل فيه صدقه، ويسكنهم نطقه، ويسكرهم ذوقه، قرأت عليه القرآن العظيم بالقراءات السبع جمعا في ختمة واحدة والإدغام الكبير في رواية أبي عمرو بن العلاء وترك الهمز من طريق أهل الرقة، بطريق أبي عمرو الداني رحمه الله تعالى وهو آخر من قرأت عليه السبع من الأئمة المقرئين والأساتذة المبرزين عددهم اثنا عشر شيخا ما منهم إلا من قرأت عليه القرآن العظيم بالقراءات السبع أفرادا وجمعا أو أفرادا، أولهم الأب المرحوم ناجلي، الكفيل بتربيته في نشأتي وناحلي أول موهبة من تدريبي في بدأتي والذي عيسى رضي الله عنه قاضي بلدة قنورية وخطيبها ووالي كافة أمورها مدة من أربعين سنة قرأت عليه بالقراءات السبع على والده جدي الأستاذ الخطيب الحاج الزاهد أبي جعفر أحمد، وقرأ والده جدي بالقراءات السبع على جماعة منهم والده الخطيب الصالح أبو إسحاق إبراهيم وقرأ والده جد والذي بالقراءات السبع كذلك على جماعة منهم والده الفقيه أبو جعفر أحمد بن علي بن أبي خالد رحمة الله على جميعهم، وهكذا تتصل لي هذه السلسلة بالقراءة السبع إلى سابع جد والله الحمد، وحدثني شيخني هذا أنه قرأ بالقراءات السبع أفرادا مع الإدغام الكبير في رواية أبي عمرو بن العلاء وترك الهمز من طريق أهل الرقة ثم جمع السبع في ختمة كاملة، وقرأ قراءة أبي محمد يعقوب الحضرمي على الشيخ الفقيه المقرئ الصالح الرواية أبي العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن أبي الفتح الأنصاري المشتهر بالبطرني وحدثه أنه قرأ بالسبع القراءات على الشيخ الفقيه المقرئ الخطيب القاضي أبي محمد عبد الله بن يوسف بن أبي بكر بن عبد الأعلى المغافري السبرتي بقراءة نافع أفرادا وجمعا وباقي السبع ختمة جمعا لكل إمام ثم جمع عليه السبع في ختمة كاملة مع الإدغام الكبير، قال قرأت على خاتمة المحققين بل المقرئين بشرق الأندلس أبي جعفر أحمد بن يحيى بن عون الله الحصار بقراءة نافع أفرادا وجمعا وجمعت عليه السبع في ختمة كاملة كما قرأت بالقراءات السبع بالأفراد والجمع مع الإدغام الكبير فيهما على الشيخ الفقيه الزاهد أبي الحسن

علي بن محمد بن علي بن هذيل البنسي، قال قرأت جميع ذلك على الشيخ الفقيه المقرئ أبي داود سليمان بن نجاح الأموي، قال، قرأت جميع ذلك على الإمام الحافظ أبي عمرو وعثمان بن سعيد بن عثمان الداني بسنده في كتاب التيسير، وقد قرأت جميعه عليه وقرأت عليه جميع القصيدة اللامية المسماة بحرز الأمان التي من نظم الإمام أبي القاسم بن فيرة الشاطبي رحمه الله قراءة تثبت وتبين لمعانيتها وإعراب لمشكلها،

وإيضاح لأسرارها، واستخراج لغوامضها وجميع عقيلة أتراب القصائد من نظم الشاطبي أيضا وحدثني بجميع ذلك عن شيخه أبي العباس البطرن المذكور، ولشيخه هذا أسانيد غيرها، وسماع وتبتل، وانقطاع ومواصلة للقرآن واعتناء بذلك الشأن فجمع بين علو الإسناد، والسلسلة الذهبية وتوسع كثيرا في اللغة العربية. وتتبع أنواعا من هذه الطريقة الأدبية يعمر بها مجالسه أنشدني لبعض الشعراء:

أني غريب بأرض لا كرام بها كغربة الشعرة السوداء في الشمط
لا أطلق العين في شيء أسر به ولا أنال الرضى إلا على سخط
وأنشدني لبعضهم:

ان الليالي للأنام مناهل تطوي وتنتشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار
وأنشدني لبعضهم:

تمتع بالرقاد على الشمال فسوف يطول نومك باليمين
ومتع من حبك باجتماع فأنت من الفراق على يقين

وكان رضي الله عنه رقيق الاشادات، طبع العبارات، حلو الحكايات، عالي الروايات، تبهجك طلاقته ويرضيك بشره مع مروؤة ظاهرة، وتمام خلقة، وهدى وسمت ووقار لأكفاء له، إلى حسن البيان وعذوبة اللسان.

ملح كالرياض غازلت الشم س رباها وافتر عنها الربيع
فهي للعين منظر مؤلف الحس ن وفي النفس سنودد مجموع
ذكر لي قال دخل بعض الملوك على جارية له، وقد دهن شعره بدهن بيضه به، فقال يخاطبها:
كل البياض مليح لا شيء في الحسن بعده
فأجابته:

أهواه من كل شيء إلا من الشيب وحده
فاستحسن جوابها، وأحسن ثوابها، وأخبرني، قال دخل بعض الشعراء على بعض الكبراء مادحا له بشعر
قاله فيه فوجد عنده حجاما قد قص من شعره وأجزل له في العطاء ولم يعط الشاعر فقال مرتجلا:
أرى من جاء بالموسى مواسي وراحة ذي القريض تروح صفرا
فهذا منجح ان قص شعرا وهذا مخفق ان نص شعرا

وأخبرني قال: مدح أبو الحسن بن الفضل أحد الوزراء بمراكش وكان أقرع فلم يشبه، فقال:

دعا به المجد فلم يسمع

أهديت مدحي للوزير الذي

يهدي به مشطا إلى أقرع

فحامل الشعر إليه كمن

وأخبرني قال: أهدى سالم بن قاسم من بني مهنا الحسينين لصلاح الدين ابن أيوب مروحة بيضاء وفيها مكتوب بالأحمر بيتين وهما هذه:

ساد من فيه سائر الخلق طرا

أنا من نخلة تجاور قبراً

صرت في راحة ابن أيوب أقرأ

شملتني سعادة القبر حتى

وقد كان الرسول بما قال لصلاح الدين، خذ هذه فما أهدى لك ولا لبيك قط مثلها، فغضت السلطان من هذا الكلام فقال الرسول لا تعجل وانظر ما فيها من الكلام، فلما نظرها وقرأ البيتين قبلهما ووضعهما على رأسه وقال: صدق الشريف ما وصلتني قط هدية مثل هذه. وقرأت عليه من كتب القراءات والحديث وغيرها تصانيف كثيرة، استوفيتها بأسانيدھا في برنامج روايتي، وأجازني إجازة تامة، مطلقة عامة، وكتب لي بخطه، ومولده عام ثمانية وستين وستمئة.

وأشفعهم بأوحد الزمان، وفريد البيان والتبيان، العديم النظراء والأقران، والمرتقى درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان، الشيخ العالم المشاور أبو عبد ابن الحباب، حبر، بحر، حافظ لافظ، ذو أبهة وبهاء وحبوة مملوءة من علم، خالية من ازدهاء، برع بأحسن الصورة، في مطالع الحسنى إلى أنهي كمال وأكمل انتهاء، برع بأحسن الصورة، وفرع من الجمال أرفع السورة فيسوق الغصن الناضر وأضحت حدائق محاسنه نزهة الأحداق والنواظر، انفرد بفنى المعقولات والمقولات، واتحد في علمي اللسان والبيان فما يجارى، في شيء من ذلك ولا يبارى، وهو فيما عدا ذلك من الفنون يفوق القدور ويفيض على مزاحمة البحور، ويحلى من فوائده الطلا والنحور، وله تأليف وتصانيف فيها للعلوم صنوف، وهي في الأذان شنوف، ولها ظهور على غيرها وشفوف، وقلائد قصائد تنجلي بجمالها الخرائد، وتحسد حسنھا النيرات الفراقد ونشربل نور، أو أنجم زهر، أو لجين أو تبر، أو يواقيت أو در، أو حصباء بللھا نھر أو شذور رصعت فشطر وشطر:

سجد الربيع لبردها الرفراف

نظم ونثر في رياض بلاغة

أ نظام در أو نظام قواف

لم أدر من عجب بها وتعجب

كان زمن شبابه، وتعلقه بطلب العلم واستفتاح بابه، رئيس إنشاء الدولة الحفصية، والمستقل بحمل الراية التونسية، فملا الدلو ومد الرشاء، وأنال الإنشاء ما شاء، وأزال عن جفون الطريقة الأدبية العماية والعشاء، فلما أحرز في ذلك الفن قصب السبق وحازه، وقطع فيه صدر العمر واستقبل إعجازه، عطف إلى تعليم العلوم، وعكف على تدريب تدریس المعدوم منها والمعلوم، فأفاد الأفاضل، والأفراد وأمتع الجهابذة والنقاد، وأسمع الأسماع ما اشتهى كل منها وأراد، إلا أنه كثير الأنس مؤثر لراحة النفس، قلما ينضبط لطالب، ولا يغتبط إلا بذي فهم ثاقب، وسهم في العلوم مسدد صائب، فمجالسه مجالس علم وإيناس، وتقريب لأناس، وتبعد لأناس، وكنت بحمد الله من الفريق الأول لا بالمشكوك فيه ولا بالمتأول، فسمعت وأخذت وأجازني الإجازة التامة، وكتب لي بخطه أنشدني لبعض المشاركة يعرض بآخر ينعت بسراج الدين، وكانت قبيلته بجيلة فضمنها البيتين وهما:

عراقي فتيلته نحيلة

لنا في البيت من خرف سراج

فلا كان السراج ولا الفتيلة

يضيء لمن تعاوده بدهن

وأنشدني لسراج الدين الأمدى:

وراح إليه سريعاً وراجا

بني أفدى بالكتاب العزيز

لكوني أباه وكوني سراجا

فما قال لي أف مذكاًن لي

ويتلوه البحر المتلاطم الأمواج، والمنهل الذي نروى بعذبه بقاع الوهاد وتلاع الفجاج، والمجموع الذي نزلت بساحته مفترقات العلوم نزول الماء الشجاج قاضي القضاة وإمام الفقهاء والنحاة ورب العقل الوافر والحصاة، الشيخ العالم العلامة قطي الشورى وعماد الفتيا، قدوة علماء الإسلام، أبو عبد الله بن عبد السلام رضي الله عنه، رجل نشأ في العفة والصيانة وتبوأ ذروة الطهارة والديانة، وصعد من هضبة التقى على أعلى المكانة، فلم تعرف له قط صبوة ولا حلت له على غير الطاعة حبة، على أن المسهب في الأوصاف الكريمة، والمشيّد بالمناقب المشيدة، سكت مع سبقه ومسيء في إحسانه، وقاصر عن إدراكه، وهيهات يضرب في حديد بارد، ويطلب ما ليس له بواجد، من رام بيده لمس الشمس، وتعاطى برجله لحاق البرق، صرف همته العلية، وفكرته الوفادة الزكية، إلى انتحال فنون العلوم، وافتتاح المعكوم منها والمختوم، ملك أعنتها، وقاد أزمته، وأوضح أشكالها، ووسم إغفالها، وحل أقفالها وتلقى بالسهل والرجب آتياها عليه واقبالها، فهو اليوم وحيد الأوان، وعلامة الزمان، والمشار إليه بالبنان والبيان ما قرن به فاضل من العلماء الارحجه، ولا ألقى إليه مبهم من العلم إلا كشفه وأوضحه، عدلا في أحكامه، جزلا

في إقدامه مراقبا لله في فعله وكلامه، له صادقات عزائم، لا تأخذه معها في الله لومة لائم، إلى نزاهة عن الدنيا، وهمة نيطت بالثريا، ولهجة فيها ترقق ماء البشر فأحيا وحيا.

يصدق بشره خلق رضى

يقابلني له خلق وضيء

حضرت مغتنما وملتزما بتدريسه الذي هو ضالة الناشئ الناشد، وبغية القاصي والقاصد وحديقة الرأي الرائد، وحقيقة الفوائد، فسمعت وانتفعت وأخذت عنه شرحه لكتاب ابن الحاجب الفرعى فقرات وكتبت وأجازني في غير ما مرة، وكتب لي بخطه ومولده سنة ست وسبعين وستمائة وسمعت منه بمثله من تونس جميع موطا الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه في مجالس كثيرة آخرها ضحوة يوم الجمعة الثالث عشر لصفر من عام أربعين وسبعمائة وأذن لي في روايته عنه وحدثني أنه قرأه أجمع بلفظه على الأستاذ المقرئ أبي العباس المشتهر بالبطونى المتقدم الذكر بسنده فيه وقرأه كذلك أيضا على الشيخ المحدث الرواية المعمر أبي محمد عبد الله بن هارون الطاعى، وحدثه به عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن بقى قراءة لبعضه وسماعا لسائره بمدينة قرطبة أعادها الله دار اسلام عن أبي عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجي قراءة عليه عن أبي عبد الله محمد بن فرج الفقيه مولى الطلاع سماعا عليه قال سمعته على القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله ابن المغيث عن أبي عيسى يحيى بن عبد الله ابن يحيى بن يحيى عن عم أبيه عبيد الله بن يحيى بن يحيى عن مال بن أنس رضى الله عنه ورحمهم وهذا السند لا يوجد مثله بالمغرب علوا واتصالا بالقراءة والسماع، وقرأته أيضا عام ثلاثين وسبعمائة على والدي وأخبرني أنه قرأ منه جميع كتاب الصلاة عرضا عن ظهر قلب على والده جدى عن جماعة حلة منهم والده الخطيب أبو إسحاق وغيره وقرأته بالمسجد من مدينة مالقة المحروسة عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة على الشيخ الخطيب الزاهد الولي الله تعالى أبي عبد الله محمد بن أحمد الهاشمي الطنجالي بسنده فيه وقد قرأته وسمعته بالأندلس وبغرب العدو على غير من ذكرته رضى الله عن جميعهم. وقد آن أن يبرز فارس ميدان التسجيل المتميز في عناق تلك الحلبة بالغة والتحجيل الحرز فضل السبق الموجب للتعظيم والتبجيل الشيخ العالم المتصوف أبو عبد الله بن عمر أرضاه الله تعالى، علم الجماعة، وقلم التأيد والاستطاعة، ورب الفكرة المطاعة، ومن له في النظم والنثر القلم الأعلى، والقدم الأولى، واللفظ الأجل، والقدح المعلى، والبدايع التي تستفاد وتستعاد وتستحلى، وله في الطريقة الصوفية مقام عال، واشتات معال، وخاطر يجول بين واسع مجال فيبرز نفائس لثال وعرائس جمال ويأتي بسحر حلال، وبحر زلال بين بديهة وارتجال، ووخذ وارقال وانحفاز واستعجال.

وخاطر يغرف من كل بحر

مكارم مثل الحصا كثرة

رحل إلى المغرب والمشرق فعلت روايته وعظمت آياته، وكثرت مبالاته بالعلم وعنايته، فبدأ في سماء المعالي بل المعارف شمسا تتجلى بزهر هدايته مشكلاهما، ولاح في جيد العوارف سلكا تتحلى بذر كفايته لبائها، وأقام مشتغلا بالعلم سنين، وانعقد النكاح بينه وبين عقائل الآداب بالرفاء والبنين، فيلد من مخلدات فكره خرائد تنهادهما الملوك وفرائد تزدان بها التيجان والسلوك، تحلت به الدولة الأندلسية كما تجلت عنه الحضرة التونسية فهو الآن متولي ديوان إنشائها ومدلى أشطان رشائها قد استقر عنه من عرف له شأنه وعاف بعده وشانه واقتنى نظمه فزانه وأذخر مرجان نثره وجمانه. دخلت الحضرة المذكورة على حين أخذ مني البين أخذته وفلذ من فؤادي فلذته، فتفرست أدبه الرائق ومذهبه الواضح الطرائق فكان جنباه العلي مطمح نفسي ومسرح أنسي ومصلح ما نضى من لبسي، وانضى من عنسي فكانت فراسة لاح صدقها، وأومض برقها سحابها، وهمل ودقها، ولما عجت إليه وقصدت منزله للسلام عليه، أنشدت بيتين اثنين استأذنته بهما وهما:

أتاك بقلب من أسى البين مفجوع

ببابك يا مولى الكتابة كاتب

تؤمن من خوف وتضمن من جوع

وحاجته تقبيل يمينك، أنها

فارتاح إليهما ارتياح الصداق لليل القبول، ومد لهما يمين اليمن والقبول، ودارت بيننا المخاطبات نظما وتكررت بيننا المراسلات والمراجعات قلا وكثرا، ولم أزل مدة إقامتي بتلك الحضرة تحت ظله الوارف وفضله المحمود المطارف خرج مستريحا في بعض أزمنتها الطيبة إلى بعض جناته التي هي مني النواظر، وملعب الغصون النواضر ومهب الأنفاس العواطر وراحة الأبدان والخواطر، حلال الحلل التي توشىها أيدي الغمام الماطر، فما ألم بها حتى وجه إلى مع بعض خدامه مركوبا من عتاق الخيل، جامعا لضياء الصباح وغسق الليل نقلني إليه، وأحلني لديه، فوافيت والربيع قد أهدى نوافحه، وأسدى لواقحه، وأسدل ملاحفه وأسبل مطارفه، وألان معاطفه وأفاض معارفه، ومد بروده، وأمال قدوده، وحشد جنوده، وحشر بيضه وسوده، ونشر ألويته وبنوده، وملأ قهامة ونجوده، ونظم جواهره وعقوده، ورقم صحائفه وعقوده، وأعطى موافقه وعقوده، والغمام قد بكى على ميت الروض فأحيا نوره وأضحك ثغره وحدق أحداقه، وأرضى أوراقه، وأصفى ملبسه، ووشى سندسه، والنسيم قد جر على بساط البسيطة ذيوله، وأجال بملعبه خيوله، واستنطق أطياره، وشق أنواره، وأفشى أسرارها، وأذاع شيعه وعرارها، وفضض أنوارها، وذهب أزهارها، ونثر درهمه وديناره، وحيا ورده وبهاره، وصافح آسه وجلناره، وأطاب ثناياه وأخباره، والمذانب تسل السيوف، وترى لنفسها على الأنهار الشفوف، وتخرق من مكملات الثمار الصفوف، وتدور على

سوق الغصون كالحلاخل، وتلتوي بها التواء اللسان المجادل، وتلك السواقى تحن حنين الحوار، وتضرم في القلب المشوق حر الأوار، وتهيج لوعة الصب المغترب النازح الدار، وتفجر من بين أضلاعها أمثال الشفار، كما قال الرئيس أبو عبد الله بن أبي الحسين:

ومحنية الأصلاب تحنو على الثرى وتسقي بنات الترب در الترائب

تعد من الأفلاك أن مياهها نجوم لرجم المحل ذات ذوائب

وأطربها رقص الغصون ذوابلا فدارت بأمثال السيوف القواضب

وما خلتها تشكو بتحنانها الصبا ومن بين مثليها أطراد المذائب

فخذ من مجاريها ودهمة لونها بياض العطايا في سواد المطالب

فحللت منها شرفا، وتبوأ عرفا، واجتنت تحفا وطرفا، وأقمنا فيها ليالي وأياما أمنين، تغازلنا أعين النرجس وتقابلنا حدود الورد وتصافحنا أكف الياسمين:

في رياض من الشقائق أضحت يتهاذى بها نسيم الرياح

زرتها والغمام يجلد منها زهرات تفوق لون الراح

قلت وما ذنبها فقال مجيبا سرقت حمرة الخدود الملاح

ومما أنشدني هناك لنفسه:

حسن المرية ريح جرى عليها فعما

فكل وجه تراه تراه بدارا أتما

وأنشدني وقال لي: أنشدني الحاج الفاضل أبو زكرياء بن واش الفاسي، وقال أنشدني بعض الشيوخ المحاورين البغداديين وقد مر به بحرم مكة، شرفها الله تعالى، الفقيه أبو جعفر بن شيخنا الإمام رضي الدين الطبري، وهو إذ ذاك فتى، فقال له الشيخ، "ما الذي تقرأ وبم تشغل من الكتب"، فقال له الفتى، "بالتنبية" فأنشد الشيخ بديهة.

ومهفف الأعطاف ساج طرفه يغدو على الفقهاء للتعليم

شغلوه بالتنبية جهلا منهم لو انصفوا شغلوه بالتنويم

وأنشدني وقال لي، دخل الأديب الشهير أبو بكر بن قزمان، رحمه الله تعالى، على بعض البلاد فأعطى نعله ليصلح له، وهو مستوفز قد نفذ ما عنده، فخاطب في الحال بعض الناس من أهل البلد بقوله:

وفد تعذر قيراط من الثمن

دفعت قرقي لقراق يصلحه

قدر السؤال بقدر الناس والزمن

فامنن على شاعر خفت مؤنثته

وأنشدني لبعضهم:

ونادى الجود حي على الزوال

خبت نار العلى بعد اشتعال

وإلا في الدفاتر والآمال

فقدنا الجود إلا في حديث

لما حاربت إلا بالسؤال

ولو أني ملكت الأمر يوما

وقد ثبتوا لا لأطراف العوالي

لأن الناس ينهزمون منه

وقرأت وسمعت عليه جميع صحيح مسلم بن الحجاج، رحمه الله تعالى، فأكمل لي جميعه عليه ما بين قراءة وسماع بحق قراءته لجميعه، بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة، سنة ثلاث عشرة وسبعمئة على الشيخ الإمام الخليل عليه السلام رضي الدين أبي أحمد إبراهيم بن محمد الطبري المكي الشافعي، قال: قرأته أجمع بالحرام الشريف اتجاه الكعبة المعظمة، سنة خمس وسبعين وستمئة على الشيخ الأوحى شمس الدين أبي عبد الله محمد بن النعمان بحق قراءته، على الشيخ أبي الفضل محمد بن أبي المعالي بن الجياب السعدي، على الشيخ الشريف أبي المفاخر سعيد بن الحسين الماموني، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن الفضل الصاعدي الفراوي، عن الشيخ أبي الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي، عن الشيخ بن أحمد بن عيسى الجلودى، عن أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان النيسابوري، عن الإمام، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، قال: "وقال الشيخ أبو أحمد إبراهيم بن محمد رضي الدين الطبري، وأخبرني به، أعلى من هذا الشيخ المحدث أمين الدين عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر الدمشقي، قراءة عليه وأنا أسمع، بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة سنة تسع وخمسين وستمئة قال: أخبرنا به الشيخ أبو الحسن المؤيد الطوسي، اجارة عن الإمام أبي عبد الله محمد بن الفضل الصاعدي الفراوي، وبسنده المذكور". وقد أجازني الإجازة التامة، وكتب لي بخطه.

"وآخر سبعهم"، وموثر شفيعهم، إمام المعارف، وروضة الآداب الناعمة الأفنان، الرائقة المطارف، الفائزة من المجد الموثل بالتالد والطارف، الشيخ العالم الولي: أبو عبد الله لبن حريز فرع الأصل الغزير، وطبع الأدب المخجل أسلاك الدر وسبائك الإبريز، والمعترف له في ميدان البلاغة وفرسان البراعة بالسبق والتبريز، سبق في شجرة قرشية أموية كريمة الأعراق، ساطعة الإشراق طيبة الأثمار والأوراق، وتفتح نور بيانه في جنان جنانه، فاجتنى لسانه، واجتلى كالزهر في آداره ونيسانه، وترقى بإجاداته وإحسانه، من

رجل برع في الطرق الأدبية الصوفية، ونبع في العلوم العقلية والنقلية، وفرغ لها بالنفس العاصفية، والهمة الأوسية والفكرة الأيائية، فخلق فيها رجوما رافقت الأنكدار، وبدورا فارقت الأبدار، وشموسا على كسوفها من الزمان ما دار، فعلا بعدهم قدمه، وأضحى وجمهور العالم حوله وخدمه، فاقتصر في منزله الكريم على عبادة ربه، وإفادة صحبه، سارحا من فنون علوية، في روضات جنات، ودرجات مقامات، وسائحا من عيون مجلداته في بحر أمهات، وفيض ملمهات، منقبضا عن الناس إلا عن المحتاجين إلى مواساته، والمفتقرين إلى إفادته ومؤانسته، فترى تراكم الخلق عليه تراكم الجراد المنتشر، فمجلسه في داره بتونس مجتمعا إليه فيه أصناف أهل العلم، وطوائف أولى التقى والفهم، وهو اليوم هناك كعبة العلوم يحج إليها، وعمدة المحاسن يعول عليها، قد جعله الله تعالى محيا للأنفس، وسببا للتأنس، وأودع فيه من صدق المصاحبة، وحسن المداعبة، وكثرة الخشية لله تعالى والمراقبة، ما سلكه على أحسن أسلوب، وملكه الأنفس وحب القلوب، فهو كما كان محمد بن سيرين رضي الله عنه، يداعب ويضحك حتى يسيل لعابه، فإذا أردته على شيء من دينه كانت الثريا أقرب إليك من ذلك.

جودا ولا تتعاطى شأوها السحب

سماحة لا تبارى الريح غايتها

ولي وللرعب في أحشائه صخب

وهيبة لو رآها الدهر ماثلة

إلى ما رزقه الله تعالى من القريحة الوقادة، والفتنة النقادة، والخوض في بحور العلوم الشرعية والطبيعية، والورود من مشارع الكمالات النفسية، والمشارب الذوقية الوجدانية، والعنايات السلطانية والحمايات العامة والعطايا الحاتمية، والرتب العلية، والزهد في الدنيا الدنية، وبعد الهمة والمشاركة للخاصة والعامة، من هذه الأمة، وإجابة الدعوة، والخلو من الزهو والنخوة، وأنا من رأيت نجاح دعواته، وصلاح حاله بالتماس بركاته، ولازمته وتردد إليه كثيرا فكنت أجد في مجالسته فوائد تنسي الأوطان، وأرد في موانسته موارد تحيي الهائم الظمئان، قلت له يوما، يا سيدي علم الله تعالى أني أحبك فقال لي: ابشر أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال لي: "يا محمد رزقك الله التقوى وحبك إلى خلقه وجعل من يحبك من عبادة المؤمنين قال رضي الله عنه: فمن علمت أنه يحبني علمت أنه من عباده المؤمنين" سمعت من لفظه رضي الله عنه جميع تأليفه البديع المزري بروض الربى وزهر الربيع الذي سماه مهيب نواسم المدائح، ومصب غمائم المنائح، في مدح أحد حجاب، الخلافة الحفصية، ونقلته من خطه وصحته عليه، وسمعت وقرأت عليه، وأجازني وكتب لي بخطه، ومولده في الثاني عشر لشهر ربيع الثاني عام اثنين وثمانين وستمئة، وأخبرني رضي الله عنه قال: حضرت محفلة عند بعض الأصحاب انشد فيه المسموع قصيدة ابن

صردر العراقي فأعجبت بها، وما أتمها إلا وقد أشربت فؤادي من سمعة واحدة، وعرضتها في الحين على من حضر وهي:

لحاجة نفس ما يفيق غرورها
أكفكفها هطلا على كل منزل
وما ينفع العين التسهد والبكا
وقفنا صفوفا بالديار كأنها
لئن أشبهت أجيادها وعيونها
ووالله ما أري غداة رميني
فان كن من نبل فأين حفيها
وان قلتما لي ليس في الأرض جنة
يعز على الهيم الخوانس وردها
وحاجة صب ليس يفضي يسيرها
فلو أنها أرض لغارت بحورها
أذن تعرفا لي مقلة أستعيرها
أهذي التي تهوى فقلت نظيرها
لقد خالفت أعجازها وصدورها
أ تلك سهام أو كئوس تديرها؟
وان كن من خمر فأين سرورها؟
أما هذه فوق الركائب حورها
إذا كان ما بين الشفاه غديرها!

أراكد الحما قل لي بأي وسيلة
تنال الذي ما شئت منها وتشتهي
ومالي بها علم فهل أنت عالم
يفوح النسيم الرطب من كل منزل
وان فروع البان من بطن وجرة
ألذ من العذب الجنى عرارها
على رسلكم في الحب أنا جماعة
لعمرك ما سحر الغواني بقادر
وما الشعرات البيض إلا كواكب
توسلت حتى قبلتك ثغورها
فصف لي ريا منها فأنت خيرها
أ أفواها أولى بها لأم نحورها؟
وما كل أرض يستطاب عبيروها
شهي إلينا ظللها وحرورها
وأشهى من الشهد المصفى رحيقها؟
إذا ظفرت بالحب عف ضميرها
على ذات نفس والمشيبي نذيرها
مطالعها رأس وفي القلب نورها

هكذا أملاها على بلفظه، رضي الله عنه، وقرأتها عليه بلفظي مصححها لها مرة ثانية وأنشدني أيضا قال
هما لأبي الحسن ابن الزقاق رضي الله عنه.

وحبب يوم السبت عندي أنه
ينادمني فيه الذي أنا أحببت

حنيف ولكن خير أيامي السبت

ومن أعجب الأشياء أني مسلم

فهؤلاء سبعة الدراري في علو المقام، أو كسبعة الأيام المحيطة بأزمان أكوان الأنام، آثرت ذكرهم انتقاء من أولئك الجهابذة الأعلام، واقتصرت في عددهم على أحب الأوتاد إلى الملك العلام، ولما أراد الله سبحانه أن يسعدني بالأخذ عنهم، ويسعفني في الاستفادة منهم، قيض أول من علم غيبة، ووفر جوده وسيبه، ولطائفه الخفية، وعوارفه الإلهية، صديقا في المحبة، وموافقا على الصحبة، حافظا في الصخور والغيبة،

وأين الشريك في المرأينا؟

خير أخوانك المشارك في المر

وان غبت كان أذنا وعينا!

الذي ان حضرت سرك بالود

هو الشيخ الفقيه العالم أبو العباس النقارسي، نفع الله بمودته، حافظ مجيد، وحامل مجيد، وناقل سديد وناقد شديد، وعالم فريد، ومدرس مقيد، له طبع حل فيه الذكاء والنبيل، وقل فيه لوابل كرمه الطل والوبل، ان وأخاك رأيت الأنس قد ارتدت ذواهبه، وعادت مذاهبه، ووجدت الزمان قد لانت صعا به، وبانت شعابه، وأولاك ودادا أخلصت سريره، وحمدت في شرعة الوفاء سيرته، فلا حمد إلا ما قد تصفحته له صفحات الفلا، ولا عهد إلا ما حفظه وإلا فلا،

تجري مع الماء الزلال إذا جرى

وحسن الوفاء مرشح بخلائق

رحل من بلدة تلمسان قبل أن يلم بها الحصار، ويلقى ريجها الإعصار، ويشرب الزمان صفوها بالأكدار ويحكم فيها الخطوب والأقدار، ويدير عليها من البلاء والحنة ما أدار، فكانت منه فعلة سنية ونقله سرية، وفراصة إياسية، والماعية عباسية، فدخل الحضرة مشمرا عن ساعد الجد، ومقتادا بقائد الجد، فطلع في آفاقها كوكبا، ورسى في ساحتها كبكبا وجال في ميدانها ركضا وخيبا، وتعلق بعرونها الوثقى سببا فسببا، ولم يزل يفحص في هذه المسالك على الكمال، ويستقي من مناهلها العذبة السلسل الزلال إيثارا للرتب المنيفة، واستطلاعا للمقامات الشريفة، فبلغ المنتهى، وخول ما انتهى، وحل في الخطوة فوق السهى، فهو الآن أحد المدرسين الأعلام، وأوحد من برع في علمي البيان والكلام، وأوجد الناس للدر إذا خاض بحر العلوم بسوايح الأقاليم، أديب العصر ونحويه، وعرضيه وبيانيه، وحكميه ومنطقيه، وعددية وفرضية، وأصولية وجدلية، وتعاليجية وأرتماطيقية، جمع أشتات هذه الفضائل وكان فيها صائلا ليس بضائل، وعلم اللغات وسائرهما، وفك الأعاريض ودوائرهما، إلى إحاطة بعلم التفسير والحديث، وسلطة على المطالعة والمذاكرة في القديم والحديث، أما الفروع والأصول فبه كنت فيهما أصول، ولم ترعيني قط

شرقاً وغرباً أسرع منه نسخاً وكتبا، ولا أقرأ لكل خط ما عسى أن يكون صعباً، على جودة خطه وصحة نقله وضبطه، وإتيانه للسحر الحلال بأي شيء أخذ من الأرض لا يميل بشقه ولا يفظه.

يستنزل الاروى إليه تلطفا

كالحية الرقشاء إلا انه

فيعود سيفاً صارماً ومتقفاً

يهفو به قلم يمج لعابه

دخلت الحضرة وقد كساني البين تلك الغمرة، فبهني منه أخ شقيق وفرج به عني أزمة وضيق، وقد كان يتشوقني على السماع، وينشط للاتصال له والاجتماع، فلما علم بوصولي وصل في لمة من اخوانه الأعلام، وأعيان ذلك الصقع المتصلين بالسؤدد اتصال الألف بالام، فالتقينا هنالك التقاء النفس والأمل، وانتظمت انتظام القول والعمل، وأقمت معه في منزل واحد، وأمل وافد، لا يستأثر أحدنا بمقسوم، ولا ينفرد عن الآخر بمكتوم ولا محتوم، وهو في كل ذلك يؤنسي غاية الإناس، ويأخذ بضبعي إلى معرفة أكابر الناس، ويفيدني بأجل الفوائد، ويأتي من مرسوم فضائله بالزوائد، الخارقة للعوائد، وكثيراً ما كنت أعجب من تطلعه إلى المعالي وتحصيله، وأنجب باحتدائي حدوده في جملته وتفصيله، واقتفائي سننه في دقيق الأمر وجليله، والمرء على دين خليله وما زلنا بتلك الحاضرة، نتجلى أنوار المحاضرة، ونجتي نوار المذاكرة، إلى أن جاء يوم الفراق، باخترام ذلك التلاق، واحتدام ذلك الأغلاق، فسبحان من أوجد العهود ثم أعدمها، ووصل تلك الأسباب ثم حذفها، وهذه شيمة الليالي في أعقاب تجميعها بتفريقها وإشراقها كل نفس بريقها، لا تجمع شمالاً إلا شتته، ولا تصل حبلاً إلا بتته، من أطاعها عصته ومن أذناها أقصته ومن وصلها قطعته، ومن نزع إليها نزعته، ومن أرضاها أغضبته وأخرجته، ومن سكن دارها أزعجته وأخرجته، والغبطة بها مع ذلك شديدة، والآمال فيها على أهما دار البلاء جديدة، حتى كأن حقيقة ما يعلم من استحالتها ارتياب، والرحلة عندها إياب، لقد حق أن يرفضها البصير، ويعد لما إليه تصير، ويسئل الله في أمره فنعم المولى ونعم النصير، ألهمنا الله تعالى طريق إرشادنا، وأعاننا على الأعداد لمعادنا، وقضى في العاجل والآجل بإسعادنا، أنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، وارجع إلى تتميم ما بدأت عن الأعلام بفضل هذا الفاضل وجلالته، والاماع من ذكر روايته والرواية عنه بما لا يخشى من ملالته، فأقول: أي قرأت عليه جميع تأليفه في العروض الذي سماه بالروض الاريض في علم القريض، وجميع تأليفه في الأدب الذي لخص فيه رسالة أحكام صنعة الكلام من إنشاء الوزير الكاتب أبي عبد الله ابن عبد الغفور، وكتبها لي بخطه، وأجاز لي جميع ما رواه وألفه من تأليفه التي أبدع فيها تلخيص مشكل الحديث لابن فورك، وكتاب حديقة الناظر في تلخيص المثل السائل في علم البيان، وشرح كتاب المصباح لابن مالك، وكتاب

إيضاح السبيل والقصد الجليل في علم الخليل في شرح قصيدة ابن الحاجب العروضية، وله تأليف غيرها مما عرف بحمد الله قدرها، وأشتهر على الألسنة ذكرها،

وسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر

وأنشدني وقال: أنشدني الشيخ الإمام الأوحى أبو عبد الله محمد بن راشد، رحمه الله تعالى، قال: أنشدني لنفسه معين الدين ابن تولوء التوزي، رحمه الله تعالى ورضي عنه:

يا أهل مصر رأيت أيديكم عن بسطها للنوال منقبضة

لما فقدت القرى بأرضكم أكلت كتبني كأنني أرضة

وأنشدني لغيره:

لحا الله مصر وسكانها وفتت أكبادهم بالحسد

متى يرتجى مفلس عندهم غني، وعلى كل فلس أسد

وأنشدني الشيخ المحدث الفاضل فتح الدين بن عمر بن سيد الناس رحمه الله تعالى:

بأن الله ان جزت بواد الأراك وقبلت عيدانه الخضر فاك

فأبعث إلى المملوك من بعضها فأنني والله مالي سواك

وأنشدني لبعضهم:

جعلت هديتي لكم سواكا ولم أقصد به أحد سواك

بعثت إليك عودة من أراك رجاء أن أعود وأن أراكا

وأنشدني قال أنشدني الشيخ الإمام الأوحى ناصر الدين أبو علي منصور بن عبد الحق المشدلي رحمه الله، قال أنشدني أبو عبد الله بن أبي الفضل السلمي المرسى لنفسه:

عابوا الجهالة وازدروا بحقوقها وتهاونوا بحديثها في المجلس

وهي التي ينقاد في يدها الغنى وتجيئها الدنيا برغم المعطس

ان الجهالة للغنى جذابة جذب الحديد حجارة المغنطس

وأنشدني له أيضا:

تنقل فلذات الهوى في التنقل ورد كل صاف لا تقف عند منهل

وان سار من تهوى فسر عن جنباه ولا تسكن دمعاً على مترحل

ولا تلتفت قول امرئ القيس انه ضليل ومن ذا يهتدي بمضل

ففي الأرض أحباب وفيها منازل فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل

وأنشدني للقاضي الخطيب العالم أبي عمر بن إدريس، أخي بني بحر صفوان بن إدريس. في أبي العباس الفضل بن أحمد بن الفضل، أحد علماء مرسية ووزرائها، وكان أوحد زمانه في حسن الصورة.

أطاع فؤادي حبه وعصى العدلا وذاق الهوى مرا، ولكنه استحلا

يقولون أقصر، وأنس فضلا ولم اكن لا فعل هذا، ساء قولهم فعلا

يكلفني العذل ما لا يحل لي أنسى؟ وقال الله لا تتسوا فضلا

وأنشدني له أيضا:

واغيد حظي منه ما اختلس الطرف يميل بقلبي نحوه الحسن والظرف

غزال ضعيف اللحظ ويحي وإنما جنى ضعف صبري في الهوى ذلك الضعف

هو الخشف إلا أنه كلما رنا جزعت وفي المعتاد أن يجزع الخشف

أرى هجره وقفا علي فهل غدا جزاء على أنني على حبه وقف

سلوه برفق هل جنيت جناية فان قال أي فاسألوه عسى يعفو

ويصرفني من جوره نحو عدله فها أنا لا عدل على ولا صرف

سأنتيه نحوي بالقوافي فأنها نسيم ويحكي الغصن لي ذلك العطف

قنعت بأن يهدى إلى سلامه إذالم يكن زهر من الروض فالعرف

وأنشدني لابن الربيع سليمان بن أحمد اليبني، أندلسي استوطن المشرق ومدح الملك الكامل:

لولا تحديه بآية سحره ما كنت ممتثلا شريعة أمره

رشأ أصدقه وكاذب وعده يبرى لعاشقه أدلة عذره

ظهرت نبوة حسنه في فترة من جفنه وضلالة من شعره

وأنشدني عند الوداع لعلي بن هاشم المروزي:

يا موقد النار يدكيها فيجملها قر الشتاء بأرواح وأمطار

قم فاصطلي النار من قلبي مضرمة بالشوق من مهجتي، يا موقد النار

ويا أخا الذود قد طال الظلماء بها ما يعرف الرى من جذب واقفار

رد بالعطاش على عيني ومحجرها تروي العطاش بدمع وأكب جار
يامز مع البين لا كان الرحيل فان كان الرحيل فأني غير صبار
ان غاب شخصك عن عيني فلم تره فان ذكرك مقرون باضمار

ثم تقياً زادي، وكمل للسفر استعدادي، وخرجت بعد الاستخارة المشهورة، ومن حضرة تونس المذكورة في صبيحة يوم السبت السابع عشر شهر ربيع الثاني عام سبعة وثلاثين وسبعمائة، وقد نثر المركب بنوده، وقلد شراعه وأحكم شدوده، فركبت في اليوم المذكور، ثم أحصى الراكبون فكمل في المركب منهم نحو ألف راكب، ثم رفع الشراع وسرنا خارجين من المرسى إلى ان جزنا جزيرة "قوسرة" ووصلنا إلى جزيرة "ملطة"، ثم هبت ريح اقتلعتنا واسرعتنا، واشتدت وحامت فروعتنا وأزعجتنا، حتى أدخلتنا مرسى جزيرة "أفريطش" فأقمنا فيها خمسة أيام، وهي جزيرة للروم، وطولها نحو ثلاثمائة ميل ثم خرجنا منها فلما توسطنا المواسط اشتدت الرياح المختلفة، وعظمت الأمواج المضطربة، وأتت الأنواء من كل جانب، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة، فاظلم الجو وتراكم النوء، وارتفع الصحو، وتبدل بالكدر الصفو، واهتاج البحر اهتياجاً، وارتدت الآفاق سواداً، وانتشرت الرياح عصفواً، وتدفتت الأمواج، وعظم الارتجاج، وهَمِيَ الغمام، واستشعر الحمام، وأرسلت شتاييب الأمطار كأنها السهام، وكان ذلك الخطب أعظم من ان يحيط به الوصف، فرجفت القلوب، وخرست الألسن، وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن، واتصلت الحال في الزيادة إلى أن قربنا "من جزر الرومانية"، وتفاقم الأمر وتعاضم حتى انتهينا إلى جزيرة "أشقرباطة" فركبنا إلى مرساها، وأرسينا به فتزايد الأمر وعظم، حتى قطع المراسي جملة واحدة، وخرج المركب رغماً على الأنواف واستقبل عظيم تلك البحار فأيقنا بالهلاك، وغلب اليأس على الأمل، وقلت "أنا الغريق فما خوفي من البلل" وكم يسير بنا في غير طريق، والهول يزيد ويعظم، حتى تفتتح المركب من جميع جهاته وصار الماء يدخله من كل جانب حتى ملاء الجو الأسفل واستوى على ظهر الطبقة الثانية من المركب، وتزايد فيها حتى قرب من الطبقة العليا، فاستغاث الناس ولم يبق شك في الهلاك، وإذا بالرئيس والبحريين قد أقبلوا عليهم وقالوا ما بقي في الحياة من طمع إلا ان قدرتم على ميح الماء ورمى الوسق، فقام الخلق بأجمعهم كبيراً وصغيراً وذلك بين العشائين، وأقبلوا على الميخ والرمي، فلما رجع أحد عن رمي ما قام في وجهه شيء كان، ما عدا النفس خاصة، والقليل من الشدائد يصير عند المشاهدة له كثيراً، كما ان الكثير من الشدائد يصير عند سماعه قليلاً، وأهوال البحر لا تحصى ولا تحصر، والشيء يسمع فيحقر حتى يبصر:

هو البحر حدث عنه غير مكذب

فما تنقضي آياته وعجائبه

فأقاموا كذلك حتى ظهرت "جزيرة قبرس" وهي جزيرة كبيرة معمورة بالنصارى كالجزر التي قبلها، فما انفصلنا عنها إلا وقد أدركهم الجهد والإعياء، ولحقهم العطش الشديد والعناء، وقد كانوا رموا جميع ما كان بقي لهم من الماء المعد للشرب فطلبت قطرة من الماء توجد، فما رض ضلوعي ولا فض دموعي إلا أطفال يضطربون بالبكاء ويستغيثون من العطش ومن الماء حتى أشرف الناس على الهلاك بالعطش، وتجرع بعضهم من ماء البحر فكنت أراهم مطروحين يعالجون سكرات الموت، فعند ذلك قام صاحب المركب إلى شيء يسير كان بقي له ولرجاله من الماء لشربهم، وحضره إلى ناحية وأحصى جميع ما كان في المركب اسما وعينا بالزمام، وصار يدفع لهم جرعة واحدة ظهر كل يوم قدرها نحو ثلاث أواق، فبينما يتمسكون بتلك العلالة، ويتمقون بتلك المصة والبالاة، التي كان الناس يتجرعونها، كرها، والعطش أشهى للنفس منها، إذ أمر الله تعالى الرياح أن تسكن. والبحار أن تبيض، فلم تتحرك فيها للنسيم حركة:

وقد كان بحرا قبل ذلك زائرا

فغدا بذلك، وهو بر مقفر

فتمكن اليأس، وعظم البأس، وسقط في أيدي الناس، فضجوا بالدعاء، ونقص لهم النصف من تلك الجرعة التي كانوا يأخذونها من الماء، واختلفت إليهم أنواع الهلاك والبلاء، فلما رأيت تلك الشدة، جمعت الأصحاب من قراء القرآن فاجتمع منهم نحو الثلاثين رجلا، فقلت لهم ما لنا إلا اللجوء إلى الله عز وجل، وأتوسل إليه بكتابه وبرسوله فصلينا العشاء الأخيرة وقسمت عليهم القرآن مجزئا، وأقمنا على التلاوة والقراءة ليلتنا تلك فلم يكن إلا أمد يسير وشفع الله فينا كتابه العظيم، ونبه الكريم، وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه وظهر منار الإسكندرية فأعلم الناس بذلك، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكادوا أن يقضي عليهم ذلك الأمل ومن فرح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سرورا بعدما

باتوا بأفئدة يراع خوافق

فما رأيت قبلها بشارة أحلى في النفوس، أوقع في القلوب، ولا أعظم سرورا من سرور الخلق بها في تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلمت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسر على الفكر فقلت:

بشراكم لاح المنار إلا سعد

ودنا على اليأس المرام إلا بعد

وتنفس الكرب الذي كنا به

في حالة البلوى نقوم ونقعد

وافتر من إسكندرية ثغرها
قد أخصب المرعى وطاب المورد
واستقبلوا النعم العظام بشكرها
فبشكرها أبدا لكم تنزید
ما خاب قصدكم وطبية قصدكم
وشفيكم خير الأنام محمد

فوصلنا وجفن الظلام قد انطلق على عين الشمس، ومضى اليوم مضي الأمس، ودخلنا المرسى بقرب
المنار، في ليلة الجمعة الثالث عشر لجمادى الأخرى من عام سبعة وثلاثين المذكور، ولما بدأ من الفجر
سفور، ونثر الصبح كافور، وركبت إلينا زوارق المدينة، وخرج الناس لمشاهدتنا في أحسن الزينة، نزلنا
البر لا نلوي على جريح ولا نصير ريثما يسكن البحر من ماء وريح، وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين من
ركوب البحر أبد الآبدين فلما وطئنا الرمل وسلمنا على الأخوان احتضنا بالشرط والاهوان، وحملنا
بأجمعنا إلى الديوان هناك شاهدنا الحساب وأرينا العذاب، وملئوا منا البيوت والرحاب ثم أمرت اليد على
القليل الكثير، والحقير والنقيير، والدفتر والقطمير، والرفيع والضيع والغني والفقير، وفتشت الأوساط، وعم
الزحام والاختلاط، وكثر الهياط والمياط، حتى خرج المخزون والموزن، وبرز المعكوم والمختوم، وعند الله
تجمع الخصوم، فأخذ من كل عشرة دنانير ديناران ومن كل عشرة دراهم درهمان، ظلما وعدوانا وجورا
وطغيانا فاستشعرت الأسف، ونسيت كل رزء سلف، وودت للتر الحاضر لو كان مع الشيء الآخر
ذهب وتلف وجعلت أنشد:

رمى بي البحر درا في بلادكم
لكنني لم أصادف فيكم صدفا
أصبحت بين أناس ضعت بينهم
كالزهر في كف مزكزم فوا أسفا

وبعد مرارة تلك المواقف المهينة، أعقبت حلاوة تلك المدينة:

فنسينا ما لقينا
وكأنا ما شقينا
وخلصت من حجر الأسى لمسرة
فتنت بها الأبصار والأسماع
وظفرت من زمني بحظ لم يزل
بيني وبين الدهر فيه نزاع

فانتظم الشمل بقصر الموضوع، بديع المجموع، يعجب بقطعه المتجاورات، وحدائق فيها من كل الثمرات
ونخل كالكثائب قابلت الكثائب، والعدارى أرخين الذوائب، فيها قنوان من البسر وألوان تعدى على
العسر، وتهدى إلى اليسر فلم أر مدينة أحسن منها وضعاً ولا أبدع ربعا، ولا أسع مسالك ولا أعلى مباني
ولا أسمى مراقى، ولا أجمل مراسم، ولا أوضح معالم، ولا أملح أزقة، ولا أعجب رونقا ورقة، ولا أحسن
تفصيلا وجملة.

هي القصور البيض لا ما حدثوا
عن أرم وغيرها من البنا

فكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، كوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها
 جوهر ونسيمها عطر، وتراجمها مسك أذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وكفاها ان ليلها كالنهار في
 تصرف العباد، وإعادة مسائها كصباحها، وهو غير المعتاد، وهل هي الا ذات العماد التي لم يخلق مثلها في
 البلاد، ذكر المفسرون عن أبي ابن كعب في قوله تعالى أرم ذات العماد: إنها الإسكندرية، فهي من أعجب
 البلدان، وفيها بنيان عجيب، ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت في ثلاثمائة سنة، وان أهلها مكثوا سبعين
 سنة ألا يمشون فيها بالنهار إلا معصبين الأعين بخرق سود، خوفا على أبصارهم من شدة بياضها، وعلى
 منارها سرطان من رخام، والمنار على أربعة أساطين، وطوله ثلاثمائة ذراع وحيطان المدينة وسورها من
 رخام، فيها قبة كانت لفرعون، وفيها قصر سليمان قد تهدم وبقيت آثاره، وبها أسطوانة تستدير الدهر
 كله، وكان في القدم على منارها مرآة كبيرة، صنعها الحكماء، يتطلع بها على القسطنطينية وبلاد الروم
 حتى احتيل في إنزالها، فلم يستطع أحد على صرفها بهذا انتهى، ومن عجيب صنعها أن بناءها تحت
 الأرض كبنائها فوقها، بل أعتق وأمتن، لان الماء من النيل يخترق جميع ديارها ويتخلل جميع أزقتها تحت
 الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضا، وعانيت فيها من سوارى الرخام وألواح كثرة
 وعلوا واسعا وحسنا ما لا يتخيل بالوهم، ولقد نلقي فيها سوارى يقصد الجو بها لا يدري معناها، ولا لما
 كان أصل وضعها، ويذكر انه كان عليها في الزمن القديم مبان الفلاسفة ولأهل الرياسة والله اعلم، ومن
 أعجبها وأعظمها عمود السوارى، له قاعدة مربعة هو عليها، عددت في أحد جوانبها نيفا على أحد عشر
 شبرا، وطالعت في بعض التأليف أنه أعظم عمود على وجه الأرض واقف على كثر من الكنوز، وان طوله
 تسع وأربعون ذارعا بالذراع الكبيرة التي فيها ذراعان، وانه لا يتزحزح عن موضعه ولو تساقطت عليه
 الجبال الشم، ومن عجائب الإسكندرية أيضا المنار، وهو بخارجها قد صعد كالبرج الأعظم في عنان
 السماء أساسه كله معقود بالرصاص، وبنائه بالحجر المنجور الجافي يزاحم السماء سموا وارتفعوا قد وضعه
 الله تعالى على يد من سخره لذلك آية للمتوسمين، وهداية للمسافرين يهتدون به في البحر إلى بر
 الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا، عرض أحد جوانبه الأربع ينيف على خمسين باعا، ويذكر
 أن في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة، وألفت في بعض التأليف المعتمدة ما نصه: وذكر من عبد الله بن
 عمرو ابن العاص أنه قال عجائب الدنيا أربعة مرآة منار الإسكندرية كان الناس يجلسون تحتها فيرون من
 القسطنطينية وبينهما عرض البحر، وفرس من نحاس بأرض الأندلس باسط يديه مقابل بكفيه أي، ليس

خلفي مسلك فلا مسلك فلا يظاً أحد تلك الأرض إلا ابتلعتة النمل، ومنارة من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد، فإذا كانت الأشهر الرحم هطل منها الماء فشرب الناس واستقوا وصبوا في الحياض فان انقطعت الأشهر الحرم انقطع ذلك الماء إلى آخر، وشجرة من نحاس بأرض رومة عليها زرزور من نحاس سودانية فإذا كان أوان الزيتون صفرت تلك السودانية من النحاس فيعصر أهل رومة ما يكفيهم من الزيت لادمهم وسرحهم في كنائسهم إلى عام قابل، هذا الذي ذكره عبد الله بن عمرو بن العاص خبر مشهور موجود في كتب الحكماء، والمرآة التي كانت بمنار الإسكندرية صح خبرها بالتواتر خاصة، وإنما عمل الروم في إفسادها خوفا منها، ولهذه المدينة من المدارس والمساجد ما لا يستوفيه وصف ذكر الهروي في بعض تأليفه أن مدينة الإسكندرية احتوت على أثني عشر ألف مسجد، وذكر أبو الريح بن سالم الكلاعي في كتاب الاكتفاء له قال: كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح الإسكندرية، أما بعد فأني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة حلة للملوك، وعن أبي قبيل، ان عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية وجد فيها أثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر "انتهى"، إلى غير ذلك من المعاهد والمفاخر والمشاهد والمآثر، وفيها تربة بعض الأنبياء عليهم السلام، وتربة بعض التابعين رضوان الله عليهم أجمعين، استوفيت زيارة جميعهم وتردد إلى مبارك بقيعهم، ثم عدت إلى لقاء العلماء والأخذ عن الفضلاء فأول من لقيته بها من الأئمة وحاملي الآثار والسنة الشيخ الفقيه الإمام قاضي المالكية الأحق بالرتبة السامية السنية، وجيه الدين أبو زكرياء يحيى بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن الأمان بن خليفة بن أبي أرضين ابن تقين بن تامشت بن علي بن رجاء بن عبد المؤمن بن ذي حي الصنهاجي اليزيدي المالكي، هكذا أملى علينا نسبه ومولده في الثالث من شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وستمائة إمام الفروع والأحكام، والعالم بالحلال والحرام، والمهتم بطلب العلم أعظم الاهتمام له رحلة قديمة وعي فيها الكثير ولقى الصدور الأكابر، وحج نحو العشر حجج وجاور سنين وشغل زمانه بالعلم فاستفاد وأفاد، فيه يقول صاحبنا ورفيقنا الكاتب البليغ الحافل الفاضل أبو إسحاق ابن الحاج وأنشده إياهما بمحضري:

أضحى وجيه الدين أسبق سابق **في العلم والعلواء والخلق النزبه**

عجب الورى من سبقه وتعجبوا **فأجبتهم لا تتكروا سبق الوجيه**

وهو رجل قد أحزل الله تعالى له الحظين: كمال الخلقة ووفور القوة، وسعة الدنيا، ومتانة الدين، سرى وسيم، مسكي النسيم، زكي المناسم في المبدأ والقسيم، طلق أسرة الوجه دمث جناب البر رقيق حاشية الطبع، حسن الأخلاق، وحسن الهيئة، جميل اللباس، سمح اللقاء مليح التأنيس، حلو المحاضرة، ذكي

المعاني، نبيل المقاصد، سهل الحجاب، لين الجانب، يقظ، حاضر الذهن كأن خاطره جمرة تقد، سمعت عليه تأليف كثيرة. بمثله من الإسكندرية وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة وكتب لي بخطه. وجرت المحاضرة عنده فأجرى خيله، وجر الحديث على المذكرة ذيله فأخبرته ان في كتاب سحر الشعر. . . من لا يجد انفعالا عند سماع قول ابن عبد ربه القرطبي.

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| أشكو إليك قلا دعائي يسمع | يا من يضر بناظريه وينفع |
| للورد حين ليس يطلع دونه | وأراه عندك كل حين يطلع |
| من لي باحور ما يلين كلامه | خجلا وسيف جفونه ما يقلع |
| منع الكلام سوى إشارة لحظه | منها يخاطبني وعنهما يسمع |

فليتهم مزاجه وليبادر علاجه "وفي كتاب" الأشعار بهزات الأشعار "قول ابن عبد ربه":

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا | ورشا بتعذيب القلوب خليقا |
| ما ان رأيت ولا سمعت بمتله | درا يعود من الحياء عقيقا |
| وإذا نظرت إلى محاسن وجهه | أبصرت وجهك في سناه غريقا |
| يا من تقطع خصره من ورقة | ما بال قلبك لا يكون رقيقا |

وفي كتاب "المطمح" ان أبا الوليد بن عتال لما انصرف من الحج اجتمع بأبي الطيب في مسجد عمرو بن العاص بمصر ففاوضه قليلا ثم قال له أنشدني للمليح الأندلس، يعني ابن عبد ربه فأنشده هذه الأبيات، فلما أكمل إنشادها استعادها ثم صفق بيده وقال: يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبوا فتناقلتها عني بالألسن الأقلام، وكانت سببا لتأنيسي بأولئك الجللة الأعلام.

ومن لقيته بها من الأجداد، والعلماء النقاد، الشيخ العدل شرف الدين أبو البركات محمد بن الشيخ الإمام العدل المرحوم فخر الدين أبو بكر محمد بن الشيخ الإمام العالم المصنف شهاب الدين أبي محمد عبد الكريم ابن عطاء الله الجذامي الإسكندري، له حسب صميم، وسلف في العلم قديم ومنهج على السنة قويم، وبيت له للعلم والدين تعظيم وتفخيم، فله ما هنالك من خيم، ومنادى لا يدخله ترخيم، ومنتهى لا يعرف نحوه إلا منطق دلق ولفظ رخيم. فهو كريم النجار، كبير الكبار، خير الأخيار، طاهر اللذات، فاضل الذات، كامل الأدوات، كثير الآيات، عالي الروايات، عالم بالشرعيات، واقف على الطبيعيات، عف السريرة، حسن الصورة والسيرة، طريف المنازع، ذكي المبادئ والمقاطع، سهل العبارة نبيه التنبيه

والإشارة، كأنه لطيمة مسك أو شهدة مشتركة. ذاكر الحديث والفروع، سالك على ألسن المشروع، عارف بعقد الشروط ناظم لتلك السموط، عاقد مجيد، باحث مفيد، إمام مفتي عالم مدرك عدل ميرز.

كالمسك لذ لمن نشق

من معشر أوصافهم

وحديث أولهم عقب

فحديث آخرهم زكا

لقيته بدكانه من الشهود بالإسكندرية، وجالسته كثيرا مغتتما لفوائد مجالسته، متنعما في حداثق مؤانسته، وسمعت عليه وأجازني إجازة تامة مطلقة عامة، وكتب لي بخطه.

وممن لقيته بها من العلماء المسنين والأولياء المهتمين: الشيخ العالم شرف الدين أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي "بن عبد العزيز ابن عبد الله الكنامي الشافعي، الشهير بابن المصفي أرضاه الله تعالى: شيخ المعارف والفضائل وإمام الأكابر، وصدر المجالس والمحافل، بدر الإشارة لسرى القوافل، له المناقب الثواب والمواهب السواكب، والفوائد الفرائد، والمناهج المباحج وله بالعلم عناية، تكشف العماية، ونباهة تكشف التزاهة، دراية تعضد الرواية فكلامه تنثر طرفه وتتهادى تحفه فارق لين المهاد، ورافق العبادة والاجتهاد، وانعظفت قناته وهبت بحركاته سكناته، ذو خشبة لله ومراقبة له كثير الدعاء دائم الصبرة شديد التواضع عالم صالح فاضل.

وفي القيامة أجر غير ممنون

محامد فاز في الدنيا بعاجلها

لقيته بمثلة من الإسكندرية، فسمعت عليه تصانيف جملة، وتلقيت منه فوائد جملة، وقرأت عليه بلفظي جميع كتاب الشهاب للقضاعي رحمه الله تعالى، وحدثني به عن شيخه سعد الدين عبد الرحمن بن حسن بن حمزة لجميعة من لفظه وسنده في برنامج روايتي وحدثني به أيضا عن الشيخ أبي البركات هبة الله بن زوير الأزدي الإسكندري إجازة ان لم يكن سمعا قال أخبرنا الشيخ أبو القاسم بن حمزة بن موقى السعدي الأنصاري سمعا عليه من المدارك سمعا عن المؤلف سمعا، وسمعت عليه جزءا وافرا من كتاب موطأ الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، وتناولته أجمع من يده المباركة، وله فيه علو زائد، وألبسني خرقة التصوف، وأخبرني انه لبسها عن الشيخ الإمام القدرة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن موسى بن النعمان الهذلي بسنده فيها، وقرأت عليه بلفظي جميع الجزء المسمى تنبيه المذنب بالطير والحوت قبل ان يموت تأليف شمس الدين أبي عبد الله بن النعمان المذكور، وحدثني به عنه سمعا عليه، ومما انفرد بالعلو فيه سماعه غير مرة لجميع القصيدة الفقهية في الحجة والزورة المحمدية على ناظمها الشيخ الإمام الصالح مجد الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر البغدادي الواعظ رحمه الله تعالى وأولها:

رعى الله عيشا في حماك رعيناه

أيا عذبات البان من أيمن الحمى

ولما سرقنا العيش منه سرقناه

سرقناه من ريب الزمان وصرفه

فبدد شمالا بالحجاز نظمناه

وجاءت جيوش البين يقدمها القضا

وسمعه كذلك لجميع القصائد الوترية المضمنة مدح أشرف البرية لناظمها مجد الديد وأولها:

على من له أعلى العلا متبواً

أصلي صلاة تملأ والسماء

وأمتست له حجب الجلال توطاً

أقيم مقاماً لم يقيم فيه مرسل

ونورهما من نوره يتلألاً

إلى العرش والكرسي أحمد قد دنا

وقد قرأت جميع ذلك كله عليه بلفظي بمثله المذكور، وقرأت وسمعت عليه ذلك وأجازني وكتب لي بخطه ومولده في شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة، وأنشدني في غير مرة، وقال: أنشدني الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الواعظ المذكور لنفسه:

وغبت فكنت في أقصى الفؤاد

حضرت فكنت في بصري مقيماً

نقلت من السواد إلى السواد

وما شطت بنا دار ولكن

ومن لقيته بها من أهل المجادة، والعلم والعبادة، الشيخ العالم، المسند سديد الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ العدل المرحوم عز الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن الشيخ شهاب الدين أبي محمد عبد الوهاب بن الشيخ رضي الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ الإمام الأوحدمفتي المسلمين جمال الدين أبي الماضي عطية بن المسلم بن رجا بن منصور بن جامع بن الحسن بن علي التنوخي اللخمي الإسكندري المالكي، المشهور بابن عطية، أوحدمن برع في العبادة والزهد، وفرع ذروة العلم والمجد فجمع الله له بين العلم والعمل، ومنحه من كل فضل بلوغ الغاية التي لا يقال معها شيء كمل لو أن ذا كمل، ووهبه شرف الخلال لجميع خلل الشرف، وجعل سرفه في الخير حجة على من قال لا خير في السرف.

بيته أحد البيوت الرفيعة بالإسكندرية، وله بها مزية الرفعة المزية، عمر بالحسنات إناءه، وتتبع بالقربات آباءه بانيا كما بنوا، بل زائداً على ما أتوا، وبادئاً من حيث انتهوا، فهو حبر الأكارم، وبحر المكارم، وتاج المفاخر، وحجة المفاخر، فقد رأى وشاهد، وحمد ذلك المجد المشاهد، ويا طالما لازمته فاجتليت شمسه العلية طالعة من شرقها، وأنوارها الجليلة ساطعة في أفقها، ولكم أقمت بها خطيباً وأرجت من ثنائها طيباً:

طيباً لم يرض بالند ندا

فأنثنى والثناء بأرج من عطفيه

لقيته بمثله من الإسكندرية، وسمعت منه حديث "الرحمة" المسلسل بشرطه، وحدثني فيه في غير هذا، وقد أخذت، حديث "الرحمة" هذا عن جماعة كبيرة من أهل الأندلس وغرب العدو وغيرهم، وخرجت سندي فيه عنهم في مجموع كبير. سمعت عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أجزاء كثيرة منها

جزء فيه مجلس من أمالي الحافظ أبي القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي، وجزء فيه ثلاثة عشر حديثاً مخرجه من كتاب للترمذي، وجميع ما تضمنته الأربعون الكبرى الصحابية، للحافظ أبي الحسن المقدسي من الأحاديث النبوية بأسانيدھا والكلام عليها، وهي سبعة أجزاء يجمعها مجلد واحد، وجميع الأربعين حديثاً على أربعين شيخاً، في أربعين باباً، لأربعين صحابياً، وقد استوفيت جميع أسانيد ذلك كله في برنامج روايتي فذلك موضوعها. وأجازني إجازة تامة مطلقة عامة، وكتب لي بخطه، ومولده رضي الله عنه خمسين وستمائة.

ومنن لقيته بها من كبار المقرئين، وخيار عباد الله الصالحين، الشيخ المقرئ الصالح فخر الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي الحسين يحيى بن السيوري أبقى الله بركته فخر السنة والملة، وإمام الأئمة الجليلة، ولي الله الكريم عليه، المنقطع إليه، المشفع بالقراءة والتلاوة بين يديه، مجد في الزهادة، متفرغ للعبادة متوكف ما وعد الله سبحانه للذين أحسنوا من الحسنى والزيادة، نشأ على عفة وصيانة، وأمانة وديانة، فعظم الله شأنه، ورفع بالعلم والعمل مكانته ومكانه، وأعلى منار الهداية ورزق الناس الانتفاع به في البداية والنهاية، فازدحموا على مورده والمورد العذب كثير الزحام، والتأموا بمعهد، وحيث الحب يزدحم الحمام، وأنشدوا لدى يديه:

لقد حسنت بك الأوقات حتى كأنك في فم الزمن ابتسام

وللجمهور بالانسياب إليه والانسياب، لهج الغياب بالإياب، وطرب الشيب لذكر الشباب، أخذ القراءة عن جماعة جلة وسمع الحديث على رجال بأسانيد عليّة، حتى انتهى رتبة أوائلها، وانتهج طرق اعتنائها واعتلائها، وفضائله كالصبح جلا الأفاق، والنجم أعقب الإخفاق لقيته بموضوع إقرائه من الإسكندرية فسمعت عليه من الحديث كثيراً، وترددت إليه فانتفعت به انتفاعاً كبيراً، ومما سمعت عليه جزءاً فيه ستة أحاديث منتخبة من رباعيات الترمذي، وفيها حديث واحد ثلاثي تخريج السيد الشريف تاج الدين أبي الحسن علي بن أبي الحسن علي ابن أبي العباس أحمد القرافي الحسني بسماعه له قراءة مخرجه المذكور على الشيخ شرف الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الخالق بن طرخان القرشي الأمورى بسماعه بجميع كتاب الترمذي من أبي الحسن علي بن أبي المكرم نصر بن المبارك المعروف بابن البناء قال أخبرنا أبو الفتح عبد المالك بن أبي القاسم عبد الله بن أبي سهل بن أبي القاسم الكردي سمعنا عليه، قال: أخبرنا المشائخ الثلاثة أبو عامر محمود بن أبي القاسم الأزدي وأبو بكر أحمد بن عبد الصمد الغوجي وأبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقى قالوا: أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن عبد الله بن أبي الجراح الجراحي قال: أخبرنا

أبو عباس محمد ابن أحمد بن محبوب الحبوبي المروزي قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذي، ومما قرأت عليه بلفظي جميع الجزء المسمى "بقضاء حوائج الأخوان وإغاثة اللهفان" تأليف الحافظ أبي الغنائم محمد بن علي بن ميمون النسري الكوفي، بحق سماعه على الشريف أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد القرافي المذكور، بسنده المرسوم على ظهر الجزء المذكور المنتسخ بخطي، المصحح على هذا الشيخ الفاضل جهدي، وإجازتي إجازة تامة مطلقة عامة، وكتب لي بخطه، ومولده سنة ثلاث وخمسين وستمائة. بمصر بالقسطاظ وأشياخه جملة منهم: أبو عبد الله بن طرخان المذكور، ومنهم الإمام أبو عبد الله محمد بن الدهان، والشيخ المقرئ صالح مكيين الدين عبد الله الأسمر بن منصور العمري، ومنهم الشيخ كمال الدين أبو الذكر بن عبد القادر الدحراوى، وغيرهم ممن يطول ذكرهم، رضي الله عن جميعهم، ونفع بجههم والترحم عليهم. ومن لقيته من العلماء المتحرين والحفاظ المصنفين: الشيخ المصنف نور الدين أبو الحسن علي بن يونس بن عبد الله الهواري التونسي حل كتف العلم والعلاء، وجل قدره في الجلة الفضلاء، ولم يزل على كد الطلب أصبر من عود يجنيه جلب فقطع الليالي ساهرا، وقطف من العلم ازاهر، حتى ارتوى من المعارف سجله، وعرف مكانه من العلم وفضله، فأثمروا وأورق، وغرب وشرق، وجمع وفرق، وتوغل في فنون العلم واستغرق، طلع على الأبصار هلالا لأن الغرب مطلعته، وسما في النفوس موضعه وموقعه، وأدرك غاية المجد بقدمه، وأفصح عن سر فضله لسان قلمه، فجمع أشتات الفضائل، ورفع ألوية الفواضل واجتلى شمس العلى بتلك الآفاق، وشاهد في طلوعها من مشرقها ما لها من الإشراق، فله دره بجرا لدرره الأسماع ملتقطة، وروضا بزهره الأجفان مغتبطة، فلا أزين من لقائه ولا أحسن من إلقائه، ولا أفضل من معاملته، ولا اجمل من مجاملته، ولا أحلى من محادثته، ولا أجلى من مناقشته، لقي الشيوخ الأكابر، وبقي حمده متعرفا من بطون الكتب والسنة الأقلام وأفواه المحابر كثيرا ما كنت أذكر بأوصافه، وأفكر في حمد يقوم بأوصافه ولم ادر أرد أم أرود، وافد بقلمى على مجالس جود أو مجال سجود، فأحشر إليه الألفاظ، وأقوم بها في مدحه أخطب من قس أياد بعكاظ لقيته بالإسكندرية فسمعت من لفظه جملة من تخميس أبي مهيبي لعشرينيات أبي زيد الفزارى وتناولت جميع التخميس من يده، وحدثني به عن الأستاذ أبي العباس النبلى سماعا لجميعه عليه، حدثه به عن الناظم ابن مهيبي المذكور وسمعت عليه تفقها بعض كتاب التنقيح للإمام شهاب الدين القرافي، وحدثني به عن المؤلف شهاب الدين المذكور عرضا مني لجميعه عليه وتفقها، وسمعت منه بعض شرحه لكتاب ابن الحاجب الأصلي وبعض شرحه للتنقيح وأجازهما لي، وأذن لي في روايتهما عنه، وأجازني سائر تآليفه وجميع ما يعلمه ويرويه إجازة تامة مطلقة عامة وكتب بخطه، ومولده في ذي الحجة من عام ثمانية وستين وستمائة، ومن نفته بها من الرواة المتقين الله حق الثقة الشيخ الفقيه العدل شمس الدين أبو عبد الله بن الشيخ الإمام العلامة مفتي

المسلمين كمال الدين أبي عبد الله محمد بن محمد عبد الرحمن القرشي الإسكندري حامي المجيزين، وحامل لواء العدول المبرزين، ومجدد ملابس الشاء الثمين، ومحرز عرائس الألفاظ لحفظ ذمم العالمين، زخر الدهر، فخر القطر، وسر العدا، وآفة الجزر، ومالك بيض الطروس وسمر السطور، وبالبيض والسمر، وقار ما مثله وقار، ومآثر كأنها علم في رأسه نار، مفاخر طوالعها صبح ونهار، وشيم تتضاءل لها قطع الرياض، وتحدث ولا حرج عن بحر الكرم الفياض، وسجايا عريقة المجد، ما جدة الأعراق، خليقة بالمجد حميدة الأخلاق، قد سقته العلوم زلالها، ومدت عليه العدالة ظلالها، وأحلتها الجلالة جلالها، وأرشفته الأصالة عذبها وسلسالها فعلا قدرا ولاح في سماء السناء بدرا، وصار لأولئك الصدور صدرا، وحق لمن أعلقت بهذا الشرف حبالته ان توارى أنوار الغزالة ذبالته:

شرف يطل على السماك وسؤد كالصبح لا يسع العدا إنكاره

لقيته بالإسكندرية بحانوت الوثيقة، وحيث تأملت معارفه تأثل الروضة الأنيفة، فسمعت عليه أجزاء كثيرة وكبيرة، ومنها جزء انتقى من الأخبار لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري وسنده فيه مقيد في أوله ومن أصله نقلته، وعليه صححته، وقد قرأته على غيره وسمعته، وأذن لي هو في روايته وأجازني جميع ما يحمله ويرويه إجازة تامة مطلقة عامة، وكتب لي بخطه، ومولده أول ساعة يوم الأربعاء ثاني جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وستمائة، وأنشدني لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إنما للناس منا ولنا ما كان فينا حسن خلق ومزاح من فساد وصلاح

ومن تدبجت معه وتمتعت به فيها صاحبنا الشيخ الفقيه المحدث تقي الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عوام الربيعي الشافعي، سبط الشيخ الولي الشهير أبي الحسن الشاذلي نفع الله تعالى به، هو من كبار الطلبة الفضلاء، وخيار السادة الفقهاء، وسليل الكرام والأكابر والأولياء صالح أراك سيرة سلفه، وأعفاك من كبره وصلفه، واقتفى سنن مجده، واقتدى في حمل الفضائل بأبيه وجده، إمام مدرسا وعدلا مبرزاً، ذاكرة للعرب وأنسابها، حافظاً لغاتها وآدابها، جذب من العربية أوفر نصيب، وضرب في الحديث والفروع بسهم مصيب، وشارك في جمل فضائل وجمل مسائل، وحصل من كرم الطبع وطبع الكرم على طائل، مع إفادته طلبته في تدريسه، ونصيحته لمستفيده وجليسه، فلا فضيلة إلا وفضل بحملها وحمل فضلها، وكان أحق بها وأهلها، وأخاني وصافاني فتجاذبنا المذاكرة، وتعاهدنا المروحة للشيوخ والمباكرة، وأفاد كل واحد منا صاحبه بما تجلبه المذاكرة من وجه الإفادات وتفضل من المشاركة المباركة وبذل الجد

والمياسرة في لقاء أولئك الأفاضل، والأخذ عنهم بما أوجب على ذكره معهم وإلحاقه بهم وإضافته إلى جملةهم:

حفظاً على السؤدد الممنوع جانبه من أن يضام وإشفاقاً على الكرم

وسمعت عليهم بقراءته كثيراً، وتحصل لي منهم بدلالته حفظاً كبيراً، وأجازني الإجازة التامة وكتب لي بخطه وأنشدني أناشيد كثيرة تقيدت في غير هذا، ومن ذلك ما أنشدني، وقال: أنشدنا شيخنا بخطه: أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان بلفظه، قال: أنشدنا الفقيه الإمام الأديب البار، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ختام الدين دانيال بن يوسف بن معتوق الخزاعي الموصللي لنفسه:

ألا أن أرض الغرب أفضل موطن تساق إليه الواخظات النجائب

ولو لم يكن في الغرب كل فضيلة لما حركت شوقاً إليه الكواكب

وأنشدني وقال: أنشدنا شيخنا السيد الشريف عز الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نور الدين، أبو العباس أحمد بن عبد المحسن القرافي الحسني قال: أنشدنا المحدث: أبو إسحاق عبد الرحمن بن مكّي بن حمزة بن موقى الإسكندري الحافظ إجازة قال: أنشدنا الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن بن مكّي بن حمزة بن موقى السعدي الأنصاري من لفظه قال: أنشدني الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي إجازة. قال: أنشدني الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن بن المظفر ابن عبد الرحمن السلمي النحوي المعروف بالكمال لنفسه:

أسهرتني شجنا عليك ونمت عن شجني ووجدي

وجعلتني متقسماً ما بين أعراض وصد

لا تقتلني هجرة فيكون قتلى قتل عمد

واصل فان لام العذول فقل له واصلت عبدي

وأنشدني قال: أنشدنا شيخنا عز الدين المذكور قال: أنشدنا الشيخ بهاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الفضائل هبة الله بن سلامة ابن مسلم الشافعي اللخمي سبط الشيخ أبي الفوارس الحميدى قال: أنشدني الشريف الكوفي في قدمته علينا بمصر قال: حضرت درس الشيخ محيي الدين محمد بن يحيى قال: فلما قضى درسه قام رجل غريب ليس من الفقهاء فأنشده بيتين وهما:

رفاه الدين والإسلام تحيي بمحيي الدين مولانا بن يحيى

كان الله رب العرش يلقي

عليه حين يلقي الدرس وحيا

قال فترع قميصه الأعلى وأعطاه إياه وأنشدني قال: أنشدني عز الدين المذكور قال: أنشدني الشيخ بهاء الدين أبو الحسن علي المذكور قال: أنشدنا الشيخ بهاء الدين الطوسي قال: أنشدنا شيخنا محيي الدين محمد بن يحيى لنفسه:

وقالوا يصير الشعر في الماء حية

إذا الشمس لاقتها فما خلته صدقا

فلما التقى صدغاه في ماء وجهه

وقد لسعا قلبي تيقنته حقا

ثم قال لي، أنشدني من شعر الأندلسيين ما آخذه عنك واستفيده منك فأنشدته لابن بكر بن مجبر:

دع العين تجني الحب من موقع النظر وتغرس ورد الحسن في روضة الخفر

أمتعها فيه فان تك لوعة صبرت وما ذم العواقب من صبر

فتور العيون النجل يطلب بالهوى وان غفل التفتير لم يغفل الحور

وزائرة والليل مرخ رواقه ومن أين للظلماء أن تكتم القمر

حدرت قناع الصون عن صفح خدها فيا حسن ما انشق الكمام عن الزهر

ورادتها عن لئمه فتمنعت وما عادة الأغصان ان تمنع الثمر

رشأ كلما أدمت جفوني خده أشار إلى قلبي بعينيه فانتصر

يطالبني قلبي بتقبيل ثغره لقد غاص في بحر الجمال على الدرر

وأنشدني لأبي الحسين علي بن سعيد:

ما بين ملتف الأراك غزال تجري بجنة خده الجريال

رشا كلما أدمت جفوني خده ويميل قلبي قده الميال

يملي علينا السحر من ألحاظه ويسيل في ألفاظه السلسال

قولوا له يا راحما عشاقه ما هاجني إلا لها البلبال

ولحاظه رسل إلى عشاقه أو ليس يعلم أنهن نبال

وأنشدني لأبي محمد عبد الجليل بن وهبون:

ومهفهف بادي العذار كأنما عقد الغرام به على كتابا

لما استراب بما رأى من خضرة في خده جعل الصدود نقابا

ملك إذا كلمته بضراعة صرف اللحاظ على الكلام جوابا

وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
ما كان أصبرني لسيف لحاظه
وأنشدته لأبي الحسن بن الرقاق:

وأغيد طاف بالكؤس ضحى
والروض أهدى لنا شقائقه
قلنا وأين الاقاح قال لنا
فظل ساقى المدام يجحد ما
وأنشدته لأبي الحسن بن حريق:

كلمته فاحمر من خجل
وسألته تقبيل راحته
حتى زفير عاق عن أمني
وأنشدته لأبي إسحاق إبراهيم بن سهل الاشيلي الإسلامي:
يا لائمي ان مت فيه أتند
أو ما إلى أجفانه تحتكم

غرقت في بحر هواه وذا
وأنشدته من نظمي بديها:

شكوت هواه إلى ردفه
وآرخصت لؤلؤ دمي به
وהל يسمع الموج شكوى الغريق
ولم ادر كيف يباع العقيق

فقال لي الآن حصص الحق، وها أنا أعترف للأندلسيين بالسبق، فقلت له ليس المشاركة لاعتراك بمنكرين
ولتجدن أكثرهم شاكرين.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء أول يوم من رجب الفرد المبارك من عام سبعة وثلاثين المذكور اجتمعت به مع
أخي أبي بكر محمد وكان خروجه من بلدنا قتورية المذكور أولا في ضحوة يوم السبت أول صفر خمسة
وثلاثين وسبعمئة فلما قضى الله تعالى حاجته وحجته، وبلغه منها مراده وبغيته، كر راجعا إلى بلاد
الصعيد والديار المصرية فقيض الله سبحانه من أوقع خبري عليه، وألقى جملة إليه، فما راعني إلا دخول

البشير على بقدمه، واجتلاء غرته مع تسليمه، فتلاقينا بالتحية وتلافينا وبكيننا حتى أبكيناه ووالينا بحمد الله تعالى وأتينا وكم لله من نعمة علينا، وأنشدته على البديهة بيتي منصور الفقيه وهما:

على الطائر الميمون والبركات

على خير أوقات الزمان آيات

وقد كن أيام النوى قرحات

قدمت فقرت بالقدم عيوننا

ولم نزل نسرح في روض من ذلك الاجتماع، ونشرح ما وجدناه من البعد والانقطاع، إلى أن تمياً نفرنا، وتأتي في البر سفرنا، فخرجنا من الإسكندرية في يوم الثلاثاء ثامن يوم من رجب المذكور، وسرنا في بسيط من الأرض عريض مرداه لا يخترقه النسيم بمسراه، ويكاد البصر يقف عند مداه، بين مدائن عليها نضرة النعيم وبساتين اعتمارها من التعميم، وسرحات موفقة، ودوحات مورقة، ونخلات طلع، وخامات زرع، تموج بدائعها موج البحر، وتلوح طلائعها بين كتائب الزهر من لم ير أرض مصر في أوان ربيعها، وأبان زروعها، لم ير منظرا نضيرا إلى أن وصلنا إلى مدينة "القاهرة" فدخلناها في آخر يوم الأحد الثالث عشر لرجب من العام المذكور فزلنا منها بقرب الجامع الأعظم المشهور بجامع ابن طولون الذي بناه ابن طولون فيما يذكر على مثال المسجد الحرام بمكة المشرفة طولا وعرضا، ولما أنبت كافور الفجر من المسك الغياهب، وظهرت الشمس المنيرة على النجم الثواقب:

وأيقنت أنني في اغترابي موفق

حمدت السرى إذ أنزلتني ربوعها

وسرنا في أقطار تلك الحضرة التي أرضها سندسية اللباس، وروضها متنوع الجناس، وروائحها عنبرية الأنفاس، ومنظرها يجلب أنواع الإيناس، فهي بغية النفس، وغاية الأنس، ومنية الطرف، ومسرح الظرف وسلوة الفكر، ونبتة العلم والذكر، وشغل الخاطر والذهن، ومحل الهناء والأمن:

أننا لا ننال فيها الخلودا

ما عداها من جنة الخلد إلا

رياضها تشرق، وأطيبارها تنطق، وكأن بكل عود عودا يخفق:

فنون، بأن الروض يهوى ويعشق

وما كنت أدري قبل ذلك والهوى

وفتحت لي راحة القلب أبواب التزهة، فأطلقت عنان طرف الطرف نحو الجهة فرأيت فيها من المباني الهائلة والأسواق الحفلة والمساجد العتيقة والمدارس الأنيقة والمرايع البارة والمصانع الناصعة والأزهار والأشجار الباهرة والآثار العامرة والجنود الوافرة والأمم المتكاثرة ما تحار في ذلك الأوهام وتكل دون وصفه الألسن والأقلام، القاهرة وما أدراك ما القاهرة الظلال الوارفة والمياه الهامرة والأرض الأريضة والروضات العاطرة منابر قام السرور في منبر دوحها خطيبا، ومشاهد بذت مغاني الشعب طيبا، إلى

أغصان عقدت الجداول خلاخل بسوقها، ولثالي مثلت من الرياض بسوقها، فمن حيث استقبلت تلك المدينة أشرقت وكيفما لحت أساريها برقت ومعلوم أنها قاعدة المشرق وأم المدائن ومقر الملوك ودار الطمأنينة، قد كمل الله حضرتهما، وجمل نضرتهما بأن قلد بها أمور المسلمين، وخلد فيها العزو والتمكين للسلطان الناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى قسيم الملك أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان بن الخلفاء العباسيين فاستمرت سلطنته الآن مدة من خمسين سنة فجاءت الدنيا في أيامه غضة، وزهرة الأيام بهجة، لما منح الله على يديه من الأمن والسكون والدعة وظلال المسرة والهدنة فانسحب ذيل العز، وأنضرب رواق الأمن، وانسدل ستر العافية على المأى والكافة والأقطار النازحة والغريبة وخصوصا على هذه المدينة وما ظنك بمدينة عذب فيها البحر وفاض عليها من الجنة واستقبل بها النهي والأمر وانحشر الناس إليها فخيّل لرائيها الحشر:

كما زار مشغوف يروم وصالا

وافي إليها النيل من بعد غاية

فمد يميننا نحوها وشمالا

وعانقها من فرط شوق بحسنها

ركبت بحر نيلها العذب في جملة وافرة من الصحب أخلاقهم أعذب من مائه وشمائلهم أرق من صفائه، فاستويننا على جارية من تلك الجواري المنشئات وسابحة فوق لجة الماء العذب الفرات وتحسبها جامدة وهي تمرمر السحاب وتنساب في الحباب كالجاباب ولما ضمت إلينا، ودخلناها وقلنا اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ولا فرش غير ريجان منضد، ولا سقف غير كتان ممدد، تمخر البحر، فامتطينا بأجوقتها مطاه، وتذلل فصفعنا بأجنحتها قفاه وسرنا في مترهات تلك الأقطار الرفيعة إلى أن قضينا أجمل الاوطار وتمتعنا من تلك المنازل الرفيعة بالحدائق الغضة والنسيم المعطار، بحيث تضاحك الورد والبحار، وتفاوح الروض والعرار، وأرضها مخضر نبت صاغ النور تاجه، وحاك القطر ديباجه، وسمأؤنا ملتف أيك سال الماء لجينا بين أكنافه، وحاك الزهر وشيا بين أعطافه، فماء الندى مسكوب، ورواق الظل مضروب، والريح تصفق والغصن يتثنى، والقبر يصصرر والبلبل يتغنى، والطير قد تكلم، والعود قد ترنم وقد خيم السرور، وتضاعف بتضاعف النيل الحبور، وبدا لنا يوم حسن، وحسن يوم تمت حسنه البدور.

ولكل يوم مسرة قصر

يوم لنا والنيل مختصر

والماء مرتفع ومنحدر

والسفن تغدو في الفرات بنا

وكأنما دارته سرر

فكأنما أمواجه عكن

أخبرني هناك من أثقه من العلماء، قال أخبرني أحد كتاب السلطان أنهم كتبوا وأحصوا المراكب الجارية

في هذا النيل المعدة لا يساق الزرع خاصة، فألفوها تنيف على مائة ألف مركب ماعدا الزواريق الصغار التي للصيد والركوب، وغير ذلك فكأنها أكثر من أن تحصى وأخبرني الشيخ الإمام القدوة شمس الدين الكركي قال عد صاحب الوزير الملك الطاهر وأحصى الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء في كل يوم فبلغت مائتي ألف جمل ما عدا البغال والحمير والسقائين الذين بالزقزق وغيرهم فان ذلك شيء لا ينضبط ولا ينحصر وهذه الجمال المذكورة تحط بالمدينة في كل يوم من أيام الصيف سبع آلاف وفي الشتاء أقل من ذلك، قال وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقي بالقاهرة فبلغت ستين ألف دكان ما عدا السقائين الذين بالأكواز والأكواب في الطريق والأسواق وغيرها، ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به إلا "المارستان" وحده وهو قصر عظيم من القصور الرائقة حسنا وجمالا واتساعا ما لم يعهد مثله بقطر من الأفطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا اكمل انتهاء في الحسن والجمال وانتماء من قد نعمت أدواحه وخبت على خضر الأغصان وزرق العدران أرواحه فلا غرو أن أمن ورقى، ثم لما كسا وأطعم سقى، آية نعمى وفت بالميعاد، وحسنا مثلها يعد للمعاد قد رويت جوائحه الصادية، وجمعت في شرعته السارية والغادية، فيها هو فخره بادي الغرر والأوضح، منبجس بالماء القراح.

ما شئت من أرض به وسماء

متسربل بنسيجه من ماء

طلب الغنور به من استيحاء

وتحيرت في مقلة حواء

وبه مجاجة ريقة شنباء

لكن ذلك ترقرق الأهواء

متماثل بالحسن كيف لحظته

ينساب رونقه فتحسب أنه

لما رأى فيض الزلال أديمه

فأراك دمة ضاحك لم تتحدر

أو ثغر باسمه تهلل ظلمه

ليس الذي يجري هنالك سلسلا

أخبرني الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركي المذكور أنه يكمل في كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين منه أربعة آلاف نفس وتارات يزيدون وينقصون ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرض حتى يعطي إحسانا إليه، وإنعاما إليه كسوة للباسه ودراهم لنفقاته، وأما ما يعالج به المرضى من قناطر الأشربة المقنطرة والأكحال الرفيعة الطيبة التي تسحق فيها دنابر الذهب والإبريز وفصوص الياقوت النفيس وأنواع اللؤلؤ الثمين فشيء يهول السماع ويعم ذلك الجمع إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطيور والأغنام على اختلافها وتباين أصنافها مع ما يحتاج إليه كل واحد ممن يوافيه ويحل فيه لفرشه وعرشه من غطاء ووطاء ومشوم ومذرور وشبه ذلك مما هو معد على أكمله هنالك وما ليس مثله إلا في منزل أمير أو خليفة، وقد رتب على ذلك كله من الأطباء الماهرين والشهود المبرزين، والنظام العارفين،

والخدام المتصرفين، كل ما هو في معالجته موثوق بعدالته مسلم له في معرفته غير مقصر في تصرفه وخدمته، ولو استقصيت الكلام في هذا المارستان وحده لكان مجلدا مستقلا بنفسه إذ في مبانيه الرائعة وصناعاته وتواريخه المذهبة ونقوشه العجيبة المنتخبة التي ترفل في ملابس الإعجاب، وتسحر العقول والألباب، ما يفتن النفوس ويكشف أنواع البدور والشموس، وتعجز عن وصف بعضها خطى الأقلام في ساحة الطروس، فما وقعت عين على مثله ولا سمعت بشبهه وشكله:

تجاوز حد الوهم واللحظ والمنى وأعشى الحجا لالاؤه المتضارئي

فتنعكس الأفكار وهو خواسر وتقلب الأبصار وهي خواسي

وفي مصر مارستان آخر على مثاله ولكن ليست حاله كحاله فما كل صهباء خمرة، ولا كل سوداء ثمرة، ولا كل حيوان إنسان، ولا كل مارستان:

وما كل دار أقفرت دائرة الحما ولا كل بيضاء الترائب زينت

وبها الأهرام القديمة المعجزة البناء الغربية المنظر البديعة الإنشاء كأنها القباب المضروبة قامت في جو السماء، ولا سيما الاثنان منها يقصر الجو بهما سموا واتسعا ارتفاعها مائة ذراع بالذراع الكبيرة من أحد أركانها إلى الركن الثاني ثلاثمائة خطوة وست وستون خطوة وأقيمت من الصخر العظام تركيبها بديع الإلصاق، وهي محدودة الأطراف لا سبيل إلى الصعود إليها إلا على خطر ومشقة فتلقى أطرافها المحدودة كأوسع ما يكون بين الرحاب لو رام أهل الأرض بناءها لا عجزهم ذلك وبها كان يجعل الطعام في أيام يوسف عليه السلام، وعلى النيل رجل مبني من صخرة فيه علامات لخروج النيل في زيادته ونقصانه وقد وكل به قوم يتعاهدونه فإذا خرج سقى جميع ضياعهم ومزارعهم وهم يزرعون على ذلك السقي ولا يحتاج زرعهم إلى سقي آخر بقدره السميع العليم، ومخرج النيل من جبل القمر ولا يكاد يتوصل إليه أحد لبعد المشقة وطول المسافة وفي كتاب الاكتفاء ما نصه، وكان عمرو بن العاص يقول ولأية مصر جامعة تعدل الخلافة وقال نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب فإذا أراد الله أن يجريه أمر الأنهار فأمدته بمائها وفجر له الأرض عيونا فإذا انتهت جريته إلى ما أراد الله سبحانه أوحى كل ماء ان يرجع إلى عنصره انتهى، ثم جلنا من مصر في أعظم المصر، وحللنا منها اكرم المحل واسنى القطر، واحتلينها أوضح من البدر عند الفجر وأعطر من الزهر غب القطر فنسي كل ذي غربة وطنه وود ان لو قطع فيها عمره وزمنه وكفاك منها قول القائل:

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هي الجنة الدنيا لمن يتبصر

كنت أتردد بها إلى المسجد العتيق الحافل الذي بناه عمرو بن العاص رضي الله عنه وإليه ينسب اليوم فأرى جامعا منيرا ومسجدا كبيرا له صحن فسيح وسوار حافلة ومقاصر من العود عجيبة وتواريخ مكتوبة بالخط الحافل المذهب كثيرة فمنها ما كان مكتوبا على الحراب ونصه بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا وسيدنا الإمام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن أمير المؤمنين أمر بتجديده الملك الزاهد الناصر المجاهد صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف وفقه الله تعالى لطاعته في سنة ثمان وخمسمائة، وفي داخل القاهرة شاهدت المشهد العظيم حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو تابوت فضة قد بني عليه بنيان محتفل يقصر الوصف ويقف الطرف فيه ولا يحيط الإدراك به مجلد بأنواع الديباج مخوف بأمثال السواري الكبار من الشمع الأبيض موضوعة في قواعد فضة خالصة، ومنها مذهبة وقد علق عليه قناديل الفضة وشفف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبا في مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنا وجمالا، فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الوصفون، والمدخل إلى هذه الروضة المباركة على مسجد مثلها في الحسن والغرابة والترصيع البديع والأمثال البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع والناس من لازدحام على هذا المشهد الكريم والإحداق به والانكباب عليه والتبرك به والتضرع لديه كل مرئ هائل عظيم والأمر فيه كبير يفوت التقدير ولكننا اختصرنا القليل من الكثير، ووقفنا موقف العجز والتقصير، "وبداخل القاهرة" أيضا شاهدت المشهد العظيم مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها فرأيت مسجدا عظيم الاحتفال قائما في الحسن فيه من الذهب وأنواع الصنعة به يحصره العد ولا يجمع إلا ذلك النضد ينتهي إليه الداخل بعد ثلاثة أبواب هائلة بديعة بين كل وباب فضاء واتساع يجري بينها مياه غزيرة عذبة وفي قبلة المسجد باب من المسجد حافل فوقه مكتوب بالذهب هذا مشهد السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وفي داخله مسجد آخر أصغر منه جرما وأتم حسنا وأعظم إتقانا وصنعة، وفي قبلته باب بديع إلى قبة عجيبة تتوقد ذهبا وتلألأ جمالا تكل الإفهام، وتحار الأوهام في تخيلها وتمثيلها. فمنها مشتبهات في النقوش، ومؤتلفات ومختلفات في الرقوش، وقد أنارت بالمضاوي أهبأوها فتساوي صباحها ومساؤها، وتحت هذه القبة الضريح المبارك حوله من الرخام البديع المجزع الغريب الترصيع وشبابيك العود البديعة التخريم وكواكب الفضة والذهب وقناديل التبر الخالص الإبريز واستار الديباج الغريبة التطريز وسواري الشمع الأبيض المتناهية

الغلظ الرائعة الصنعة على قواعد الذهب والفضة، ما يستوقف الأحداق حسنا وجمالا ويختبل الأذهان الثاقبة اختبالا وتزف ظلاله على المشهد الكريم أموالا وشاهدت "بداخل القاهرة" أيضا المسجد المعظم حيث مشد السيدة زينب رضي الله عنها وهو على هيئة هذا المتقدم الذكر ونوعه وعلى بابه مكتوب هذا مشهد السيدة زينب أبنة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ودخلت بخارج القاهرة المشهد العظيم المقدس حيث تربة زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وهو مثل ما تقدم من الصفة والترتيب ولهذا في جملة أبوابه دفة من الحجر الصلد المنحوت لوحا واحدا أعددت في طولها تسعة أشبار وفي عرضها خمسة أشبار، ثم قصدت القرافة وهي ما بين مصر والقاهرة بلدة كبيرة منفردة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها وهي إحدى العجائب بما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم وأهل البيت رضوان الله عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوي الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة نفعا الله تعالى بحبهم وأفاض علينا من بركاتهم بمنه، ومما رأيت فيها قبر أبي النبي صالح عليه السلام وقبر يعقوب أخي يوسف عليهم السلام وقبر آسية وقبر جماعة من أهل البيت رضي الله عنهم على كل واحد منها بناء حفيل بديع الإلتقان عجيب البنيان عليها توار يخهم مكتوبة بأسمائهم منها قبر علي السجاد زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وقبر القاسم بن محمد بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن

زين العابدين المذكور وقبر أبنه عبد الله القاسم رضي الله عنهما وقبر معاد بن جبل رضي الله عنه وقبر عقبة بن عامر الجهني حامل راية النبي صلى الله عليه وسلم. وقبر أبي الحسن صانع مولى حديفة بن اليماني رضي الله عنه وقبر عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه وقبر حليلة التي كانت رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر محمد بن أبي الصديق رضي الله عنهما وقبر أشهب وأبي القاسم صاحبي مالك رضي الله عنهما وعنه وقبر محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد المعروف بالسبي رضي الله عنه وقبر الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربي رضي الله عنه، وقبر بنان العابد رضي الله عنه وقبر القاضي عبد الوهاب والقاضي الأنباري وقبر ورش المقرئ وقبر شيبان الراعي وقبر الطبري وقبر الرودبادي وقبر ذي النوى بن إبراهيم المصري وقبر شيخه شقران رضي الله عنهم وقبر الرجل الصالح الزاهد المعروف بصاحب الإبريق وقصته عجيبة في الكرامة رضي الله عنه، وقبر الناطق الذي سمع عند وضعه يقول في لحده يقول: اللهم أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين، رضي الله عنه وقبر الصامت الذي يحكى عنه أنه لم يتكلم أربعين سنة رضي الله عنه وقبر الجوهري الواعظ رضي الله عنه وقبور أصحابه بازائه رضي الله عنهم، وقبر أصبغ بن الفرغ رضي الله عنه وقبر المزني صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنهما، وقبر عبد

الله بن الحكم وابنه محمد رضي الله عنهما، وقبور جلة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، وبقبلي القرافة المذكورة بسيط متسع يعرف بقبور الشهداء وهم الذين استشهدوا مع سارية رضي الله عنهم أجمعين.

وقفنا على رسم الديار فسلمنا
وجدنا بدمع كالرذاذ على الثرى
وقلنا له يا رسم أين نأوا عنا
فصم المنادى وانصرفنا كما كنا
وما ذلك إلا أن ربع ديارهم
به كالذي نلقى فقد زادنا حزنا
فلما ينسنا من جواب ديارهم
نزلنا فقبلنا الثرى قبل أن رحنا

ومما شهدت من المواضع المعظمة مشهد الإمام أبو عبد الله الشافعي رضي الله عنه وهو مسجد عظيم القدر ومتناهي الاحتفال، مفرط الاتساع، يصل داخله إليه بعد دخول أربعة أبواب هائلة حافلة بين كل باب وباب فضاء واسع، ومدى بعيد، والمسجد كله قبة كبيرة فائقة الحسن، فائقة الصنعة، نادرة الاختراع فيها من الذهب الخالص والتبر المسبوك ما يغشى الأبصار ويذهل الألباب ويفوت وصف الواصفين قد حار فيها أهل حران وأربت على مباني سجستان ونجران، وصارت غاية السمو والإتقان وانعظفت بما يفضل معاطف التيجان الفاتئة باقتراها لاقتران حواجب القيان، وتحتها في وسط المسجد المبارك الضريح المكرم له من الرخام المجزع، الموضع والشبائيك المفضضة المذهبة الأستار، المدبجة المطرزة، والشمع الأبيض أمثال السواري العظام على قواعد الذهب والفضة ما يقصر عنه الوصف، ويحار فيه العقل، وبازائه قبور جله كرام، وعند رأس المشهد المكرم سارية من الرخام الأبيض منقوش بالخط الحسن ما نصه وان ليس للإنسان إلا ما سعى، وان سعيه سوف يرى، ثم يجزيه الجزاء الأوفى هذا قبر السيد الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد زيد بن هشام بن المطلب ابن عبد المناف جد النبي صلى الله عليه وسلم ولد رضي الله عنه سنة خمسين ومائة وعاش إلى سنة أربع ومائتين ومات يوم الجمعة آخر يوم رجب من السنة المذكورة ودفن من يومه بعد العصر رضي الله عنه وأرضاه آمين وعند منتهى القبلة من داخلها مكتوب في الدائرة بالخط العجيب والذهب الرائق ما نصه بسم الله الرحمن الرحيم:

الشافعي أمام الناس كلهم
أصحابه خير أصحاب ومذهبه
في العلم والحلم والعلياء والبأس
خير المذاهب عند الله والناس
له الإمامة في الدنيا مسلمة
كما الخلافة في أولاد عباس

والسلام، ومما كتب في القبة المذكورة من نظم شرف الدين ابن عبد الله الدلاصي البوصيري:

رست من بناء محكم فوق جلمود

بقبر الإمام الشافعي سفينة

فقل استوي فلك الضريح على الجودي

وقد غاض طوفان العلوم بقبره

ومما أنشدني هناك بعض الفضلاء لبعضهم رضي الله عنهم أجمعين:

يوما زيارة قبره بالتارك

زرت الإمام الشافعي ولم أكن

وظفرن عند الشافعي بمالك

ووجدت مولاي الحبيب يزوره

وبازاء هذا المسجد العظيم مدرسة مختلفة الصنعة سامية المنية أعظم المدارس اتساعا وأعلاها سموا وارتفاعا فيها من المنازل الرفيعة والرواتب الموقفة، والمياه الجارية، ما يقر بالعين ويملاً اليد بالمين ويريك ذوائب الذهب في سبابيك اللجين، قرأت بها وبالمسجد الأعظم المذكور وسمعت من كتب الحديث النبوي تأليف جملة على إمام ذلك المقام الشافعي المعظم ولي الله تعالى الكريم عليه المتوجه إليه الشيخ العالم الصالح تقي الدين أبي التقى صالح بن مختار بن صالح بن أبي الوارس الأسندي رضي الله عنه هو من أحد المتقين وعباد الله المخلصين قد سما بجلالة قدره ونبذ الدنيا وراء ظهره، ووضع الله له البركة في عمله وعمره، فظل يقطع ليله مستعبرا، ويهش للجميل مبتدرا، عالما انه سيحمد عند صباحه السرى فحافظ على السنن وانتهج أقوم السنن، واعتصم من الطاعة باوقى الجنن، حتى كأنه أبو حازم، أبو الحسن، له علو ومعرفة في الرواية، وإمامة كبيرة في العلم والدراية، ومراتب عليية في الزهد والولاية، وكرامتها عند الخالق أعظم الدرجات وأكرم العناية، وقد حيل الله النفوس على مودته والقلوب على محبته وأنشدني:

ألقى عليه محبة الناس

وإذا أحب الله يوما عبده

فما رمقه طرف إلا وأحب أن يفديه بسواده، ولا نال أحد دعوته إلا ورأى بركتها في نفسه وماله وأولاده، نفعنا الله تعالى به، وبالصالحين من عبادہ بمنه وقد أثبت سماعي عليه واستوفيته في غير هذا، وأجازني الإجازة التامة، ومولده رضي الله عنه في شهر رمضان المعظم من عام اثنين وأربعين وستمائة بمدينة إعرار "بالعين المهملة والزاي قبل الألف وبعده" وهي من أعمال حلب، ومن جملة ما قرأت عليه بلفظي بحيث ذكر وهو عال جميع الأربعين حديثا لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري وحدثني أنه سمع جميعها على الشيخ أبي العباس بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي يوم الجمعة العاشر لربيع الأول سنة خمسين وستمائة بحق سماعه لها من الثقي بسماعه من أبي علي الحداد بسماعه من الحافظ أبي نعيم بسماعه من المؤلف أبي بكر الآجري، ومن جملة ما سمعت عليه جميع الأربعين حديثا البلدانية للحافظ أبي طاهر السلفي رحمه الله، وحدثني بها إجازة عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الهادي بن قدامة بإجازته من

السلفى ان لم يكن سماعه ولنطرز ذكر هذا القطر باسم سيده ووحيدده شيخ الشيوخ إمام الأئمة، قدوة الفقهاء نخبة النحاة والأدباء ودره العلماء الفضلاء، وحجة العرب العرباء، أثير الدين أبي الحيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفري الأندلسي الغرناطي، هو من سفر عن بدر الكمال الزاهر، وسجر ببحر الكلام الزاخر، وحسر عن ساعد الجد في اقتناء المعالي والمفاخر، فشأى كل ذي شأو ومغرب، وأوتي منه زمانه بكل بديع مغرب، تبلج منه الأفق الأندلسي الغرناطي عن غرة غار منها فلق الصباح المشرق، واشتمل منه الجو المصري والمجلس السلطاني على نحرير، أقرت بفضلته صنابير المشرق، فكيف يوصف هطل غمام، أو ينصف أفضل إمام، لا يدانيه لقس إباد، ولا موئل منه لسبحان وائل، وإيم الله ان المسرف في وصفه لمقتصد، وغير الرامي في تعريضه لمقتصد، نجم نجم سعوته الموزن بإنجاز وعوده، وإبراز موعده، فتنقل في سماء السعادة بدر أو حل في ذروة الإحادة صدرا، وبلغ من فنون العلم وضروب الأدب إلى أعلى المنازل وأسنى الرتب حتى طار ذكره في الأفق، وسار متواترا على السن الرفاق، وضربت إليه أباط الإبل واجياد العتاق، وشدت إلى لقائه الرحال من أقاليم الشام وأقاصي العراق، فروى من بحوره العذبة ظماء الأكباد، وغذى بأسرار علومه قلب الحاضر والباد، وغير كثير، في وصف الأثير، نشر الدر المنظوم، ونظم الدر النثر، دخلت عليه منتزهه الذي دنا له النيل، فالزمان يخوله فيه بناء وينيل والدهر قد سفر له عن محياه، والزهر قد تبسم له وحياه، والطير بين يديه يخاطب إياها وتخاطب إياه، فاقبل علي بالبشر والترحيب، ومهد إلى أرجاء جانبه، وأراني بشاشة الحب عند لقاء الحبيب، وتتبع أخبار الأندلس وأهلها، وأعرب عن سيرها الحميدة وفضلها، وأنشدني من أبيات له:

لكوننا ننتمي فيها لأندلس

وبيننا نسب ترعى وان بعدت

قرأت عليه بعض القرآن العظيم بالقراءات السبع بقراءة الإمام أبي عمرو الداني وبالإدغام الكبير لابن عمرو بن العلاء وبقراءات يعقوب الحضومي جمعا بين روايتي روح ورويس عنه، وأخبرني أنه قرأ بحرفي الحرمين جمعا ما عدا من أول سورة مريم إلى آخر القرآن على أبي جعفر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشير الأنصاري شهر بالفزاز بسنده المشهور، وقرأ عليه جميع كتاب التيسير ثم سمعه ثانيا عليه، وأخبرني أيضا أنه قرأ بالقراءات السبع على الشيخ أبي العباس أحمد بن علي بن عيسى بن عباس الرعيني الشهير بالطباع، وأخبره أنه قرأ بها على الخطيب الجليل المحاب الدعوة أبي محمد عبد الله بن محمد بن حسين العبدري الشهير بالكواب، وقرأ أبو محمد الكواب على الأستاذ الجليل أبي بكر محمد بن علي بن حسون الحميدي على شريح بن محمد ابن شريح بسنده، "وقرأ أيضا" بالقراءات السبع جمعا في ختمة واحدة على الشيخ

أبي الطاهر إسماعيل بن هبة الله بن المليخي بقرائته للسير على أبي الجود غياث بن فارس بن مكى اللخمي المنذري، وقرأ أبو الجود على أبي الفتوح ناصر بن الحسين الزيدي الخطيب بمصر، وقرأ أبو الفتوح على أبي الحسن علي بن أحمد الأبهري الصيني الضرير، وقرأ على الأهوزي، وقرأ أبو الفتوح أيضا على أبي الحسن بن يحيى ابن الفرج بن الخشاب المصري، وقرأ على أبي العباس بن النفيس، وأخبرني أنه قرأ بالقراءات الثمان على الشيخ رشيد الدين أبي محمد عبد النصير بن علي بن يحيى الهمداني عرف بالمريوطي وقرأ على جعفر الهمداني وعلي الصفراوي وقرأ على بن خلف الله، وقرأ ابن خلف الله على ابن الفحام صاحب كتاب "التجريد" بأسانيده وهذا كله إسناد عال في القراءات وقرأت عليه بعض كتاب التيسير للحافظ أبي عمر الداني، وناولني ثم قرأت جميعه عليه بعيد ذلك وحدثني به بأسانيده فيه في هذا، وسمعت من لفظه حديث الرحمة المسلسل بشرطه، وقرأت عليه جميع الأرجوزة الألفية في علم العربية نظم أبي زكرياء يحيى بن معط بن عبد النور وحدثني بها قراءة عن الشيخ رضي الدين أبي بكر بن عجن بن علي القسنطيني الشافعي عن ناظمها قراءة، وقرأت عليه جميع القصيدة البائية الشهيرة التي من نظم الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن المنعم الأنصاري محمد الخيمي وأولها:

يا مطلباً ليس لي في غيره أرب إليك آل التقصى، وانتهى الطلب

وحدثني بها عن ناظمها المذكور سمعا عليه، وقرأت عليه جميع ثلاثيات الإمام أبي عبد الله البخاري رضي الله عنه في أصله منها الذي بخط يده، ووهبه لي أثر القراءة وجميع أسانيده فيها مسطورة فيه بخطه وتخريجه وقد قرأت جميع الثلاثيات هذه، وسمعتها على جماعة كثيرة من أهل الأندلس وغرب العدو وغيرهم وأفردت لأسانيد في كتابا مجموعا، وقرأت عليه جميع قصيدته اللامية التي سماها "بعقد اللثالي" في القراءات السبع العوالي، وقرأت عليه بعض تأليفه اختصر فيه نهاية ابن رشد رحمه الله، وسمعت عليه جميع الجزء الذي أملاه في الفوائد والفرائد المنتقاة والغرائب عن الشيوخ العوالي، ونقلته من أصله وصححت بقرائتي عليه بعض تأليفه المسمى بالبحر المحيط في تفسير القرآن العظيم، وبعض تأليفه المسمى بارتشاف الضرب، من لسان العرب في النحو، وجميع المقدمة في النحو التي سماها الشذرة، وتناولت جميع هذه الكتب من يده وقرأت عليه كثيرا من ديوان شعره ومن رسائله ونثره، ونقلت من نظمه جملة فوائد فريدة، وصححتها بقراءتي عليه، وسمعت عليه مروياته، وسمعت غير ما رسمت هنا وذكرت، وأجازني إجازة تامة وكتب لي بخطه، ومولده بغرناطة في آخر شعبان من عام أربعة وخمسين وستمائة وأنشدني لنفسه:

لم أؤخر عن أحب كتابي لقل في أو لترك هواه

غير أني إذا كتبت كتابا
وأنشدني لنفسه أيضا:
غلب الدمع مقلتي ومحاه

سبق الدمع بالمسير المطايا
وأجاد السطور في صفحة الخ
وأنشدني لنفسه أيضا:
إذ نوى من أحب عني نقله
د ولم لا يجيد، وهو ابن مقله

عداتي لهم فضل علي ومنة
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها
فلا أبعد الرحمان عني إلا عادي
وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وجمعت الضيافة في منزله المذكور بيني وبين نائبه في التدريس، الشيخ الفقيه الإمام برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن الشيخ الإمام القدوة المرحوم نور الدين أبي الحسن علي المالكي، فعرفني الشيخ رضي الله عنه بجلالة قدره ورسوخ قدمه في العلم وطهارة فجره ثم تهادى المجلس، فشهدت فيه على العيان، ورأيت منه إمام العصر واحد الزمان، عالما من علماء القاهرة وفقهيا من فقهاءهم، وصدرا في آبائهم، ومتقدما في علمائهم، حافظا للغة العربية، بصيرا بالغريب والنادر، قيما بالشاهد والمثل، عالما بالخبر والآثار، تام العناية بالفقه والسنة ان فاتحته في هذه الجهة فجرت منه بحرا زائرا، وان عدلت به إلى الأدب ظننت أنه لا يحسن سواه فصيح اللسان، حسن البيان، صحيح الألفاظ واضح المعاني ناصع البراعة جيد البلاغة شاعرا مطبوعا أبرز ذلك الميدان منه فارسا مجلا وكان يوما أغر مجلا:

حيث الغدير وقد أجادت نقشه
وغيصون دوح النيرين يهزها
من كل لدن كالقوام يميل من
ما بين ثغر بالأفاح مفلج
ووجوه هاتيك الرياض سوافر
والأرض تجلى في رداء أخضر
كف النسيم ومرها في جوشن
نغم القمارى بالغناء المحسن
شرح الشباب إلى الدلال فينثني
وجبين نهريا لنسيم مغصن
غيد تزان من المياه باعين
والجو يبرز في قناع أدكن

وأمره الشيخ أن يسمعي ويجيزني فامثل أمره، وأسعف رغبته، وهو أعزه الله أهل لذلك، وجاز من طريق الشيخ على أهدي المسالك وما ظنك بخليفة ابن حيان ولم يقعد في موضعه غيره لا فلان ولا فلان سمعت منه. محضر الشيخ وأجازني إجازة تامة وأستشدته لي من شعره فأنشدني لنفسه من قصيدة:

أراك النقا هل يبلغ الجزع آله؟ وهل أثب يوما إلى الحي راحله؟
وهل لي وجد في دارك مقيله وأنشده عن أهله وأسائله
وهل عائد عهدي بمنعرج اللوى يغازلني ظبي النقا وأغازله
غزال ومكنون الصدور كناسه هلال واحناء الضلوع منازل
فلا خمر إلا من سلافة ريقه ولا سحر إلا بين جفنيه بابل
ولا ليل إلا ما أجن جبينه ولا صبح إلا ما محياه شامله
ولا الغصن المياس إلا قوامه ولا الزهر المرموق إلا شمائله
ومن يك موليه الصبابة والضمنى فما عادل في شرعة الحب عاذله

وأنشدني في غير ذلك مما كتبه في غير هذا، فلما فرغ من إنشاده جعل مجاوبي إياه من اعتماده فقال لي أنت قد جبت كل مخوفة وجلبت كل أطروفة، فأنشدنا من طرف ما لديك وإلا حاكمناك إلى مولانا الشيخ فيحكم عليك، فقلت السمع والطاعة ولم أجد إلى العذر من استطاعة وأنشدته من شعر الإمام الشريف أبي القاسم علي بن الحسن الملقب بالمرتضى أخي الشريف الرضي قوله من قصيدة طويلة يفخر فيها:

لو لم تعالجه النوى لتحيرا وقصاره وقد انتأوا أن يقصرا
أو كلما راح الخليط تصوبت عبرات عين لم تقل فتكثرا
قد أوقدت حرق الفراق صبابة لم تستعر، وجرين دمعا قد جرى
شغف يكتمه الحياء ولوعة خفيت، وحق لمثلها أن يظهر
وأنى الركائب لم يكن ما خلته صبرا ولكن كان ذاك تصبرا
لبين داعية النوى فأرينا بين القباب البيض موتا أحمر
وبعدين بالبين المشتت ساعة فكأنهن بعدن عنا أشهر
عاجوا على ثمد البطاح وحبهم أجرى العيون غداة بانوا أبحرا
وتكبوا وعر الطريق وخلفوا ما في الجوانح من هواهم أوعرا
أما السلوى فانه لا يهتدي قصد القلوب وقد خشين تذكر
قد رمت ذاك فلم أجده وحق من فقد السبيل إلى الهوى ان يعذرا
أهلا بطيف خيال مائعة لنا يقظى ومفضلة علينا في الكرا

ما كان أنعمنا بها من زورة
جزعت لو خطأت المشيب وإنما
والشيب ان فكرت فيه مورد
يبيض بعد سواده الشعر الذي
ومن الشبيبة لأعدتك تحية
فلطالما أضحى ردائي صاحباً
لو باعدت وقت الورود المصدراً
بلغ الشباب مدى الكمال فنوراً
لأبد يورده الفتى ان عمراً
ان لم يزره الشيب واره الثراً
وسناك منهمر الحيا ما استغزراً
في ظلك الوافي وعودي اخضراً

أيام يرمقني الغزال إذا رنا
وأنشدته من شعر ابن المعلم الواسطي المشهور برقة الغزل قصيدة بارعة منها قوله:

خذ من عيونهم الأمان! وهل لمن
كم في البراقع من قسي حواجب
رحلوا بأفئدة الرجال وغادروا
واستقبلوا الوادي فأطرقت المها
كأنما اعترفت لهم بقدورها
حمل الغرام من العيون أمان؟
يصمى القلوب وثيرها المران
بصدودها فكرا من الأحزان
وتحيرت بغصونها الكتبان
الأغصان أو بعيونها الغزلان

وأنشدته من شعر ابن الخياط البغدادي قوله من قصيدة:

وابعث لهن الزافات لا الصبا
أين عداك الركب يا دار الحما
وقفت أدرى فيك دمعا سائلا
لا زال دمع العاشقين والحيا
حتى يرى فيك الربيع ناشرا
يهدى إلى تلاعه مطارفا
أين الأولى ظمئت مذ فارقتهم
بانوا فما أنظر إلا نازحا
وخلفوا من الهوى بي حادثا
واستمطر الجفون لا السحائب
منكبا لقد تعدى الواجبا
ينشد من قبلك ربعا ذاهبا
يهمى عليك هاطلا وساكبا
على الربا من نوره عجائبا
منه ويكسو جوها جلابيا
إذ لا أزال للدموع شاربا
يجري وما أسمع إلا ناعبا
لمسمعي عن الملام حاجبا

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| فما أخاف اليوم إلا وأشيا | حيث أمنت عادلا أو عائبا |
| خذ بيدي وليس تلقى لي يدا | تأخذها إذا لقيت جاذبا |
| دمعي وقد كان مصونا جامدا | أصاره البين مذالا ذائبا |
| ذبت فلم يبصر بجسمي عائدى | لو لم أكن لعائدى مخاطبا |
| بي يقتدي أهل الهوى لأنني | لهم شرعت في الهوى المذاهبا |
| فانسب إلى العشق لا إليهم | ان كنت من إلى الغرام ناسبا |
| وطيب أذبال النسيم ما جرى | بها على تلك الخيام ساحبا |
| حوى أريجا كلما استنشقتة | أقصى الأسى وقرب الحبابا |

وذكرت له ما حفظته من كتاب سورة الألباب، وذخيرة الكتاب، تأليف أبي محمد الحسن بن الفرّج بن إبراهيم الكاتب قال فيه دخلت يوما على الوزير أبي القاسم الحسن بن علي المغربي بالموصل، وفي يدي شيء من شعر أبي النجيب شداد بن إبراهيم المعروف بالظاهر الجزرى فسألني عما في يدي فأخبرته بفضل هذا الرجل وفصاحته وبلغ عبارته ومليح استعارته وبديع إشارته فأستشدي منها شيئا فأنشدته:

| | |
|-------------------|---------------------|
| يا منكرا شغفي به | ومكذبا طول اشتياقي |
| في أي أحوالي تشك | فهي أحوال السياق |
| أمدامي أم ضر جسمي | أم ضناني أم احتراقي |
| كلّى إذا انصفتى | حجج عليك بما ألقى |

فاستحسن ذلك وعمل في الحال:

| | |
|--------------------|---------------------|
| الله يعلم أنني | ألتذ فيكم باشتياقي |
| وأكاد من انس التذك | ر لا أذم يد الفراق |
| وأغض طرفي بعدما | ولأته غزلان العراق |
| وأفر من خجل العتا | ب متى سعدنا بالتلاق |

وأنشدته لبعضهم:

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| أيها الراكب الميمم أرضي | بلغن بعضي السلام لبعضي |
| ان جسمي كما تراه بأرض | وفؤادي ومالكيه بأرض |
| قد قضى الله بيننا بافتراق | فعسى باجتماعنا سوف يقضى |

فلما أنشدته هذه الأبيات فاضت الدموع، ولحق الخشوع فقال لي المولى الشيخ حيا الله بلادك وبلغك من جمع شملك مرادك، وانفصل المجلس الكريم وخصصت بالمقام مبالغة في التكريم، ومما سمعت منه وأخذت عنه الشيخ العالم الأوحد أبو الأصيغ عيسى بن مخلوف المغيلي أحد الأعلام الجلة، وعلماء الإسلام والملة إمام الأنام وعلم الأعلام، سيما في الفروع والأصول وعلم الكلام، مصيبا في كل ما يعتمد في اختياراته، من استقصاء واستيفاء واقتصار واختصار قد فات قدره في ضبط الفوائد الأقدار، وبحرا يأمن وارد صفوه الأكدار، ويوجب فضله الشبق إليه والابتدار، فهو على الإطلاق العالم الصدر العالي القدر، قد جمع إلى معارفه بين الكرم والمروءة والظرف والفتوة، وتشبت بأهداب آداب وتمسك من الرواية بأسباب إلى عقل وحصة وفضائل غير مستقصاة، رحل إلى آفاق العراق، فأحرز بما اجتلب خصال السباق، وبرز بما اكتسب بخط يده من الأصول العتاق، مما صحح وحقق إلى طريق الصواب عيونهم:

ويبدو لها بشر ونشر كأنما تبلج وجه الصبح أو نفع الند

لقيته بالمدرسة الناصرية من القاهرة المعزية فسمعت فوائد من لفظه وقيدت شوارد من حفظه وقرأت عليه تفقها بعض مختصر التفرع لابن الجلاب اختصار قاضي القضاة ببغداد عز الدين حسين بن أبي القاسم النيلي وهو المختصر الأكبر وأذن لي في روايته عنه وحدثني انه قراه قراءة تفقه وبحث على مؤلفه المذكور ببغداد وإجازة إياه وأذن له في تدريسه وتبيينه إجازة تامة مطلقة عامة؟ وأنشدني لأبي العلاء المعري قوله:

لا تطلبن بآلة لك رتبة قلم البلبل بغير جد معزل

سكن السما كان السماء كلاهما هذاله رمح وهذا أعزل

ومن سمعت عليه وترردت إليه واحتفلت إلى منزله واعترفت بفضله وتطوله، الشيخ العالم الكبير تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي إمام من أئمة الشافعية، وعالم من كبار علماء الديار المصرية ومن يعترف له بالرتبة العلية، ويرشح للخطبة الكبيرة القاضوية له عدالة الأصل وأصالة العدل وإصابة النقل ورزانة العقل وجزالة القول والفعل ومثانة الدين والفضل، إلى تحصيل وتفنن وتأصيل، في المنقولات والمعقولات وتمكن ونظر راجح وحفظ راسخ وتقدم في التحديث والرواية عال شامخ، كريم شهد له العيان إليه يعزي البيان، ومن بحره يخرج اللؤلؤ والمرجان، إلى آداب غضة وفضائل مرفضة ومساع كغرفته مبيضة:

فمساعيه شهود أنه خير فرع جاء من أكرم أصل

لقيته بمثله من القاهرة فتراكمت على سحائب أياديه الهامرة وأسمعي كل مسموع مفيد ولم أزل من كرمه الواكف كل يوم في عيد، ولما أكملت سماعي عليه واستوفيته لديه رسم لي الإجازة التامة العامة بخطه رسماً كملت أوصانه وأوجبه فضله وإنصافه قرأت عليه كثيراً من شعر الإمام أبي عبد الله الشافعي رضي الله عنه فاستحسن منه قوله:

لما عفوت ولم أحقد على أحد
أني أحيي عدوي حين أبصره
أرحت نفسي من هم العداوات
لأدفع الشر عن بالتحيات
ولست أسلم ممن ليس يعرفني
فكيف أسلم من أهل المودات

ومن سمعت عليه أياما وشفيت بري الرواية عنه أواما، الشيخ العالم المحدث تاج الدين أبو محمد عبد الله بن علي القلعي الأطفحي أحد المشيخة الذين تقرظ بحلي أنبائهم الآذان مصيخة فتراشحو للعلاء، وتوشحو بغر الحلي، وكرعوا في بحر علم لا تكدره الدلاء، طلب العلم من صغره، ولازم كبار رجالة، وعمر طويلا وروى وأسند كثيرا فتحلى من علو الرواية أجمل حلية، وأخذ عن جماعة من العلماء عليه فهو الرواية وحيد عصره، وفريد دهره، مع مشاركة في معارف أخرى واستيثار في جميع ذلك بالخطوة والأثر، وإذا يراجعك الحديث فخذ منه وحدث عن أبي ذر، لقيته مرار كثيرة وسمعت عليه جملا مفيدة، وكتاب شرف أصحاب الحديث للحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، وسمعت جميعه عليه بقراءة شيخنا معين الدين ابن عبد الله محمد بن فتوح المصغوني زبقصد الرواية عمها بحق إجازتهما من الشيخ أبي العز عبد العزيز عبد المنعم بن علي بن نصر بن منصور بن هبة الله بن الصقيل الحراني النميري بسماعه عن أبي القاسم ضياء بن الخريف بسماعه من المصنف أبي بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصاري بسماعه من المصنف أبي بكر أحمد بن علي المذكور وأجازني الإجازة التامة وكتب لي بخطه، سمعت بها أيضا، وقرأت على سوى من ذكرت. "ثم" خرجنا منها في صبيحة يوم الاثنين الثامن والعشرين لرجب الفرد من عام سبعة وثلاثين المذكور مستقبلين الأرض الصحراء الجذبة الفقراء حتى تحار فيها القطا، ولا تهتدي إليها الخطا، ويعدم بها الماء، وتضن عليها السماء، ويفنى فيها الزاد، ويعيى بسلوكلها العباد، نحدو بالجمال، ونخفض الاقتاب لرفع الرحال، ونقطع بالسير موصول تلك الرمال، حتى أشرفنا على مدينة "غزة" فدخلناها ضحوة يوم الثلاثاء السابع لشعبان المكرم من العام المذكور وقد:

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر
ودب عذار الظل في صفحة النهر

فرينة الأرض مشهورة، وحلة الروض منشورة، والبسيطة مدت بساطا مفوفا، وأهدت من مطارف وشيها وزخارف نورها ألطافا وتحفا:

والماء فياض الآتي معسجد
قطف الغمام لؤلؤ وزبرجد

فالجو رقراق الشعاع مفرق
والأرض في حلى الربيع كأنما

فأرحنا فيها تعب الأبدان، وسرحنا منها في بلد من أحسن تلك البلدان، بلد حسنه يفقه من كان بليداً،
حتى يعود ليبدأ، فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة، ما شئت من
منظر عجيب، وجانب رحيب، وبسيط خصيب، وساحل قريب، ومكان مؤنس لكل غريب، يزهر
بالحسن المحض، والنور الغض، وناهيك بالشام، شامة الأرض كما قال عرقلة الدمشقي:

والعيشة الرغد التي هي تعشق
سكرى تغني تارة وتصفق
هيهات يسلوها فؤاد شيق
إنسان مقلتها الغضبيضة جلق
ومن الشقيق جهنم لا تحرق
وشيا به حلق البرايا تحرق
لما بكاه العارض المتدفق

هذا هو الزمن الربيع المونق
فعلام تصحو والحمام كأنها
وتلوم في حب الديار جهالة
والشام شامة وجنة الدنيا كما
من آسها لك جنة لا تتقضي
سيما وقد رقم الربيع ربوعها
في روضة ضحكت ثغور أقاحها

فبتنا ببعض بساتنها وهناك جريان الأنهار، وحفيف الأشجار، وتغريد الأطيوار، ما أذكر قول ابن حصن
كاتب المعتمد بن عباد:

على فنن بين الجزيرة والنهر
موشى الطلى أحوى القوادم والظهر
وصاغ على الأجفان طوقاً من التبر
شبا قلم من فضة مد في حبر
ومال على طي الجناح من النحر
بكائي فاستولى على الغصن النضر
وطار بقلبي حيث طار ولا ادري!؟

وما هاجني إلا ابن ورقاء هاتف
مفستق طوق زوردي كلكل
أدار على البياقوت أجفان لؤلؤ
حديد شبا المنقار داج كأنه
توسد من فرع الأراك أريكة
ولما رأى دمعي مراقاً أرابه
وحت جناحيه وصفق طائرا

وأقمنا حتى بدا النور، وتكلم العصفور، وسرنا نحت السرى، ونعاصى الكرا، حتى ذهب الظلام وأشرفنا
على مدينة الخليل عليه السلام، وأشرق لنا تلك الربا والأعلام، فدخلناها في ضحوة يوم الخميس التاسع

لشعبان المذكور فحللت فيها قصرا عظيم البركة ظاهر الرحمة، لائح الأنوار، كريم المآثر، والآثار، يبنى عن الشام بطيب أنبائها، وحسن آلائها. ورقة هوائها، وبهجة بمائها، وجدا جداولها، وجنا جذاذلها، وتضوع أريج أسحارها وتنوع بهيج أوهارها، وريا رياضها ورونق جواهرها وأعراضها، وغرة أرضها وصحة هوائها وقلة أمراضها:

عبير وأنفاس الرياح شمول

بلاد بها الحصباء درو تربها

وصح نسيم الروض وهو عليل

تسلسل فيها مأوها وهو مطلق

وقدمت والزمان في عنفوانه، والربيع في ريعانه، والروض في حسنه وإحسانه والزهر في زهره وزهوه، والطير في شوقه، وشدوده، والدوح بالورق بين أوراقه في جدوده، والنوار قد شب وشاب، والهزار قد لب ولاب، والعندليب قد طرب وغنى، والحبيب قد ظرف وتحنى، وللأندية أنداء، وللأدوية أوداء، وللصبا صبايات، وللبيب لبانات وللشمال شمول، وللقبول قبول، وللعرار شميم، والباهر نسيم، وللنرجس عيون وللورد وجنة. وللكامأجنة، وللغمام دجنة وللإقحاح ثغور، باسمه وللأغصان قدود ناعمة وللأفنان فنون، وللحديث شجون ولجبهة الغدير من حركة النسيم غصون، ولهزة المساري أعطاف يقال لها غصون:

والغصن فوق الماء منعكس

والماء تحت الغصن مطرد

فآويت إلى إيوان، ونزلت أحسن مكان، وأمكن إحسان، ثم دخلت المسجد الأعظم فرأيت من حسنه عجبا، ومن بنيانه ما شئت فضة وذهبا، لا تدرك مبانيه السامية، ولا تلحق آثاره العالية، له أبواب حافلة من الحديد وشباك منه بديع، وبنيان بالرخام والأحجار العظام المائلة المنحوتة الضخام، عددت في طول الحجر الواحد منها أربعة وثلاثين شبرا، وفيها أكبر من ذلك وأصغر، قد أسس ذلك المسجد العظيم عليها وبني ظاهره وباطنه منها فجاء جامعا عجيبا واسع الساحة، بديع الصنعة، أحرق بجميعه سور جليل، بناؤه من الصخر الجسيم، قد جمع الحسن والحصانة والعلو والمتانة، يشرق بياضه على بعد التأمل وكذلك حال المدينة منازلها وقصورها من الإشراق والبهجة التي تشوبها خضرة الحدائق الملتفة بها المكتنفة بساحتها، وداخل المسجد الأعظم موجه القبلة بالرخام المجزع المختلف الألوان، الغريب الترصيع الفائق الحسن قد أفرغ فيه الذهب المضروب والتبر الخالص افرغا، وفي وسط المسجد الكريم، التربة المقدسة تربة الخليل أبينا إبراهيم عليه السلام قد جن بها من الشماعات العظام المذهبة والأسطار المكلفة المطرزة والمصاييح البديعة المموهة كل حسن رائق رائع، وإمامه ضريح زوجه رضوان الله عليها وتجاه ذلك من الجانب الجوفي قبة أخرى عظيمة القدر متاهية الإتقان تحتها ضريح النبي يعقوب عليه السلام وأمامه زوجه رضى الله عنها

وتحتها طبقة وقبة فيها ضريح النبي يوسف الصديق عليه السلام والأستار المدبجة والرسوم المذهبة بأسمائها المباركة على جميعها والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ذلك كله وما بين المسجد الكريم والقبة الجوفية صحن عظيم كبير جدا فيه في المسجد أيضا هو مجتمع الواردين والمقيمين من الأغنياء والفقراء والأمراء والكبراء للضيافة المباركة ضيافة لخليل عليه السلام في كل يوم بعد صلاة العصر على توالي أحقاب الدهر وفيه حضرتها مع جملة متبركا بذلك ثم اختلفت إلى لقاء الفضلاء وأخذت عمن بذلك القطر المبارك من العلماء، منهم شيخ الوقت سناء وسنا وعلمنا وديننا الشيخ العالم الصالح شمس الدين أبو عبد الله محمد بن كافل الشافعي رضي الله عنه شيخ العلم والوقار ومحل المناقب المغرسة في أرفع البقاع وأمنع القرار وأهل المكارم السنية الأنوار السنية الآثار نزيه الأحوال نبیه القدر زكي الخلال ما عرى من أثواب عفاف ولا تعطل من حلى برو إنصاف له الحكم الظاهرة والنباهة الحاصرة والتزاهة التي أذعنت لها الدنيا وترجى لها الآخرة فما قيس ابن عاصم منه بأحلم ولا عبد الرحمن بن القاسم بأعلم، ولا الأغلب ممن سالم بأجل في النفوس وأعظم ولي القضاء بعدما أكره عليه وجذب راغم الأنف إليه، فلم يعلق به طبع ولا زال من الزهد والورع بمريي ومسمع ثم نبذ الأمر وخلاه، وأسلمه لمن ولاه، تخلى هو لعباده مولاه فهو الآن بذلك المسجد العظيم والمقام النير الكريم لا يفتر من العبادة ولا يدخل منزله إلا للعادة، الله أكبر حين تسئله وحي على الفلاح. سمعت من لفظه هناك بين المنبر والحراب أجزاء غير واحدة واستفدت في مجلسه غير ما فائدة وسألته عن أشياخه فأخبرني أنهم جماعة كبيرة منهم الشيخ الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الرقي الشافعي نزيب دمشق رحمه الله تعالى سمع عليه كثيرا وأنشدني لنفسه:

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| وصل الحبيب لسم الهجر ترياق | وقربه لأسير البين إطلاق |
| أما السلو فدين لا أدين به | وكيف يسلو عن الأحباب عشاق |
| أم كيف يجمل في سلوى جمالكم | وبيننا في الهوى عهد وميثاق |
| قلبي القريح عليكم حشوه حرق | ولوعة وصبايات وأشواق |
| لا غروان كان قلبي شيقا قلقا | قلب المحب إلى الأحباب تواق |
| ان أبعدونني فأهل للبعدان وان | هم قربوني فان القلب مشتاق |

أنشدنيها عن ناظمها المذكور وكتبها من إملائه وصححتها بعد قراءتي عليه ومن شيوخه أيضا الشيخ أبو الحسن علي الواسطي قال لي وكان رحمه الله ما انقطع عن الحج والزيارة مدة حياته فسأله أهله أن يقيم معهم ويدع الحج سنة واحدة فلما عزم على ذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال له

يا علي عزمت على الإقامة عنا. فقال سألني الأهل في ذلك فقال له أن أقمت عنا أقمتنا غيرك مقامك، فلما استيقظ عزم على الحج والزيارة في ساعته وسأل الله تعالى أن يجعل قبره ما بين الحرمين الشريفين فتوفي ما بين بدر وحنين رحمه الله تعالى، وقد سمعت عليه أبعاض كتب كثيرة وتناولتها من يده وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة وكتب لي بخطه.

ومنهم علم الأعلام وإمام الإسلام الشيخ العالم الراوية شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم الأموي القرشي هو الإمام الذي رفعه العلم قبل شبابه وعرفه بركات ما مله الحميد وطلابه ومهد له من السعد في نيل القصد رحيب مغناه وفسيح جنباه، وسهل له آربا وأوطارا، ولم يزل مترسما من أشرف الأفعال وأعرق الأقوال من معالم المآثر ومآثر المعالم، وأعيان ذوي الأقدار والأخطار أعلاها مقدارا، متسنما من مراتب الصفات وصفات المراتب أقصاها منالا، وأسماءها منارا، مترسما من أخلاق المجد ومجد الأخلاق أزهارها نظارة وأنظرها أزهارا، متحليا من الشيم الفاضلة بأنفسها دارا، ومتحليا في سعودها الشارقة بدرا متجنبنا عن كل ما يعقب الإقبال على السعادات أدبارا، محرزا في ميدان طهارة الأردن خصل السباق، متميزا في عنفوان شبابه بحسن الخلق وإحسان الأخلاق، ثمثرا لرأس مال العفاف، ساحبا من حلله الضافية الأفواف، مقبلا على ما يزيد مجده مآثرا وآثارا إلى رواية فاز بفريدها الثمين وعلقها، ونام على ليل إهمالها وقام بحققها ودار حول قطبها، ومرقى مطالع أفقها وأنعم بها سحا ومدارا إلى علوم حديث اقتصر عليه مع أدواته الثابتة الفضائل الواضحة الدلائل اختصارا، وهصر أفنان خمائله الباسل وقد تناءت مساقا وتناهدت إيراقا وأزهارا، وكرع في مشارعها السلسيلية ومناهلها الزلالية. آمنا صدرا واصدرا وعطف على محلها المرفوع، واستند إليها استنادا المحمول إلى الموضوع، وأسند من حديثها الحسن الصحيح لا المختلف الموضوع أثارا وأخبارا إلى المنصب الذي أحسب مناه والمنسب الذي أراه في المحتد القرشي متمناه والبيت الذي قر على عمد المجد قرارا، متخذنا للورع دثارا. وللزهد شعارا، فاشتهرت في الغابر والسالف بفضلها التالد والطارف اشتهارا، وظهر في الطهارة والتزاهة علما يحمل نور الانوار، فعذب في مشارعها مشربا، وثبت في مناكبها كبكبا، وسرى في منازلها السعود كوكبا سيارا، والى مكانة في العلماء معروف قدرها، مشاهد بتصديق خبرها الحسن خبرها، ذائع عرفها ونشرها وجلالة في الحسباء لا تنكر معارفها ولا تخلق برودها الفضفاضة ومطارفها، ولا يتقلص من ظلها السابعة ممدودها ووارفها إعظاما لمحلها الرفيع وإكبارا، فحين ساغ له هذا المشرب الزلالي العلمي العملي ورد وارتوى، وعلم أنه ظفر من ضالته المنشودة وبغيته المقصودة بما ابتغى، ونوى، فألقى عصى التسيار في مناهج لقاء أولى العلم الأخيار واستقرت بعد النوى استقرارا، وأقبلت على إفادة العلوم، بين تلك المعاهد الشريفة والرسوم بساحة سنية ورساخة علمية عالية منارا، ساطعة أنوارا متصلة عوائده الدينية وفوائده العلمية بقاء

واستمرارا، فتجلى الشك عن اليقين، وتسفر عن مثل الصبح المبين أسفارا فها هو محمول من الترفيع والتعظيم على واجبه مكفول من البر والتكريم بمزيده ومتعاقبه قد تجلت له صور الرعاية والميرة شموسا وأقمارا، وتجلت به من ذلك الأفق المقدس أزمانا وأعصارا، متصلة الإشراق ومشقة الاتصال ليلا ونهارا:

برونق أيامها الاولى

كساها وقد عاث فيها المشيب

عنه وهناه ما خوله

فلا سلب الله ثوب البقاء

لقيته بالحرم الخليلي الشريف فسمعت عليه كثيرا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الأجزاء والكتب في فنون شتى وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة وكتب لي بخطه، وأشياخه جماعة كثيرة من جدا ومولده رضي الله عنه بحلب المحروسة في سنة بضع وستين وستمئة خرجنا منها ضحوة يوم الأحد الثاني لشعبان المذكور عشي ذلك اليوم بنفسه دخلنا مدينة بيت المقدس كالأها الله تعالى. هي بلدة الأفق المنير ونجمه، والنجم الذي لا تمتطي سهواته وصلناها والليل في سن الاكتهال وأيدنا ممتدة بالشكر لله تعالى والابتهاال فوافينا مدينة واسعة الرقعة طيبة البقعة، سامية الاتفاع، مشرفة البقاع مباركة الأغوار والتلاع، عذبة المراد، منمنمة الابراد، ممرعة الجنبات، متنوعة النبات ممدودة الظلال، مودودة الخلال، مأمولة السعادة مسعودة الآمال، ضخمة البناء، واسعة الفناء، تشهد لسكانها بالثراء والسناء، قد أخذت من كل المحاسن نصيبا، وفوقت إلى هدف الفضائل سهما مصيبا وملئت ظرفا وأدبا وأوتيت من كل شيء سببا:

نضت توبها عن معطفه مغيبا

محل كأن الشمس تخجل كلما

وبطفح تسنيم ويرشح طيبا

تتم رياح الخلد منه لأهله

ظل ظليل، وماء سلسيل، تنساب مدانبه إنسياب الأراقم بكل سبيل، ورياضات تحي النفوس بنسيمها العليل تتبرح لناظرها بمحتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلي معرس للحسن ومقيل، فزلنا منها متزلا بديعا قد عذب ماؤه، وراق روضه، ورق صفاؤه وهواؤه، وتفسحت مساحاتها، وتأرجت أرجاؤه:

مؤلفه ريق من الطل أشنب

وكم مبسم للاقحوانة حوله

من الريح يسرى أو من السرب يلعب

ولمة حقف لم يرمها مزيل

وأن يتثنى دوحه المتأشب

يقر بعيني ان تفئ ظلاله

إذا اجتاز ألا خائفا يترقب

وان كان لا يمضي النسيم بغصنه

ثم قصدت الحرم الشريف، والمسجد العظيم المنيف، الذي بارك الله حوله، وعرفت كل أمة فضله، المسجد الأقصى موضع المعراج والإسراء، وكفى بهذا شرفا وفخرا، فرأيت بقعة لها نور، وفضل ماثور، وشرف معلوم مذكور، ومسجد له محرمات، ومقام تخطر فيه خطرات وتعرض مقامات، ومحل تفيض عليه بركات، وتستجاب فيه دعوات، ومكان يمكن فيه الالتفات، وتقتصر عنه الصفات، وتكل في تصنيف محاسن البيئات والألفات، قد جمع شرف المقدار إلى طيب التربة وفضيلة الدار، وشهرت مفاخره، فأية البقاع تفاخره؟ وراقت محاسنه فلا منظر يحاسنه! وفاقت مآثره جميع من يكاثره، وأمتع بكل سليم الود سلم وحياء، وأطلع نور البشر في أفق الحيا:

يستخدم التوفيق وإلا سEDA

كأنه من حسنه لم يزل

فطاول الجوزاء والفرقدا

رست بجناه وعلا سمكه

وهذه المسجد الشريف هو أعظم مساجد الدنيا طوله سبعمائة وثمانون ذراعا وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا فيكون تكسيه في المراجع المغربية مائة مرجع، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية وأبوابه خمسون بابا يطيف به سور سعة ثلاث خطوات قد أسس بالحجارة العظيمة وألواح الكبار المنحوتة الهائلة بنته الجن لسليمان عليه السلام والمفتوحة الآن من أبوابه اثنا عشر بابا كل باب منها له الوجه المنقش الحسن المرقش فيها باب مصفح بالعقيان واللجين مغمدا بما قد قام على ما راق الأبصار وأعجب الأنظار "ومنها باب الرحمة وباب التوبة بابان من الجهة الشرقية وروى المفسرون عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعن ابن عباس أيضا في قوله تعالى فضرِبَ بينهم بسور أنه سور بيت المقدس الشرقي له باب يسمى باب الرحمة من بيت المقدس قال: كعب باطنه المسجد. وظاهره وادي جهنم وفي الجهة القبليّة المسجد الأعظم الحافل الذي عليه اليوم اسم المسجد الأقصى فيه الخطبة والجمعة والمنبر الذي جمع الله فيه من كل إبداع عجيب واختراع غريب والمقاصر التي لا نظير لها غرابة صنعة وجود إنشاء والسواري المفضضة الملونة من ألوان شتى من حمرة قانية وصفرة فاقعة وبياض ناصع ومن الجبرية الحالكة الصافية ومن الجبرية المخرجة العجيبة البديعة كلها مطلية الرؤوس بالذهب الذائب والتبر الخالص وقد قامت بين يد الحراب منتظمة، به عظمة جليلة منقسمة على أفنان معقودة بأقواس منحنية متراكبة مدخلة على ألوان شتى، وتصنيف غريب، مذهبة ما دخلها في التثمين والتسديد والتربيع بتذهيب مشجر مورق بالذهب مصنف محكم قد رونق الحسن استماتتها واستوفت من حظوظ البراعة أقسامها، لها منظر رائع ورواء لامع فتراها تشتعل ذهباً وتستقل عجباً، فيها تواريخ مكتوبة بالذهب في أرض فيروزية وفي أرض حمراء

زنجفورية "وبأعلى الحراب" مكتوب بالذهب في أربعة أسطر ما نصه، أمر بتحديد هذا الحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن أيوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهو يسأل الله إيزاعه شكر هذه النعمة، واجزال حظه من المغفرة والرحمة "وبشرقي" هذا المسجد متصلا به وداخلا فيه المسجد المبارك، الذي بناه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبجوفه تربيعه خلفها محراب زكرياء عليه السلام، ومكتوب عليه بالذهب يا زكرياء انا بشرناك بغلام اسمه يحيى، وبخارج المسجد الأعظم من ناحية المشرق مسجد بقبتين، يعرف بمسجد عيسى، وفي شرقيه باب له مدارج كثيرة تفضي تحت الأرض إلى موضع كبير حسن كمسجد فيه مهد مصور من الحجر الصلد يذكر أنه مهد عيسى عليه السلام، وبغريبه مسجد حسن للمالكية يسمى بمسجد المغاربة تلاصقه من ناحية الغرب مدرسة حافلة تسمى الفخرية، وبخارج المسجد الأعظم صحن عظيم كبير مثمر بأنواع الثمار والأشجار الكبار المختلفة الأنواع ومن أكثرها الزيتون، وفيه أجباب كثيرة ذكر عبد الملك بن حبيب بسنده أن عمر بن الخطاب لما قدم بيت المقدس خرج رجل من أصحابه يستسقي في جب سليمان وهو جب في داخل المسجد فخرت دلوه في الجب فترل بها يستخرجها فبينما هو يطوف في الجب إذا أتاه ملكان فأخذا بعاتقه فذهبا به حتى أدخلاه الجنة فجعل يسريان به فيها فكان كلما مرا به على شجرة لها ثمر يمد يده إلى ثمرها فيؤخره الملكان حتى مرا به على شجرة ذات أفنان فمد يده فأخذ ورقة واحدة فقال له الملكان لو ملكت يدك لسرنا بك اليوم إلى يوم القيامة ثم انصرفا به إلى الجب فخرج عند صلاة الظهر فأتى عمر فأخبره بالذي كان وضبط يده على الورقة فقال عمر، أضمم يدك عليها ثم بعث إلى كعب الأحبار فاتاه فقال يا أبا إسحاق! هل تجد في علمك أن رجلا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة ثم يخرج منها قال نعم يا أمير المؤمنين قال هل تسميه قال نعم فهو شريك بن حماشة النميري قال فأنظر هل تراه فنظر كعبا مليا ثم قال هو ذا فقيل لكعب صف الورقة قال نعم كانت مثل الكف العظيمة أشبه شئ بورق الزراقين يعني الخوخ ففي بيت المقدس اثنا عشر جبا، ليس فيها جب أطيب ولا أعذب ولا أبرد من هذا الجب وهو يسمى ببيير الورقة انتهى، وفي هذا الصحن ساقية ماء تأتي من مسافة شاقة ومهوى بعيد من الأرض قطعت لها الجبال وصدعت لها الصخور

الجليلة صدعا بالمال الجسيم والأيدي الشديدة حتى انصبت منها المياه على المسجد الأقصى فأروث وأغدقت وفاضت وأفضت إلى "خسة" من رخام كبيرة أمام المسجد الأعظم في وسطها فوارة يجري فيها الماء "وفي وسط هذا الصحن" صحن آخر عال مرتفع يصعد إليه بأدراج عالية كثيرة من جهات ثمانية وهو مفروش بالرخام الأبيض وفي وسط هذا الصحن الأخير المرتفع القبة العظيمة القدر الكبيرة الخطر التي

كان محاسن الدنيا مجموعة فيها ومحصورة في نواحيها فهي من أعاجيب الدهر وأحسن ما يرى بالبصر ويتخيل في الفكر "قبة الصخرة الكريمة" وهي مصنوعة من قبة مثمثة الحائط والأركان من داخلها وخارجها مستوية السقف، أعلاها ذهب مضروب في صنائع عجيبة وجوانبها كلها من داخلها ملبسة بألواح الرخام المنشور المصقق إلصاقا محكما مخططا بالخطوط الكحل تخطيط القدرة الربانية فجاء منها خواتم عجيبة وطوالع مختلفة الصناعة غريبة، وفي وسط هذه القبة المثمثة المستوية السقف قبة أخرى قد بعد في السماء مرتقاها حتى تساوي ثراها مع ثراها وجازت الجوزاء سمتا وعزلت السماك الأعزل سمكا وارتقت في الهوى وأسرت إلى السماء النجوى، وانتهت في الحسن الغاية القصوى فكأما صورت جنة الخلد وأشربت حبة القلب وأوسعت قرة العين، ونقشت في عرض الأرض وأبرزت في الإبريز الخالص المحض قد اتفق الذكر فيها وضرب المثل بتناهيها، وبلغ الخاصة والعامة خبرها وبعد فيهم، صيتها وارتفع ذكرها وعظم خطرهما وتوافى الناس إليها من البعد والقرب والشرق والغرب متأملين لها متعجبين من مونق مرعاها ورونق سناها والتقى رجال رجال قد دخلوا البلدان واستبدلوا الأوطان وجالوا في الأمصار وجابوا في الأقطار فأقسم كل واحد منهم بمجد قسمه انه ما رأى لتمام محاسنها تماما ولا يثائق ما انتظمته مطالعها انتظاما ولا بعجيب ما تضمنه ايواؤها، ومنحته أفناؤها من النقوش السرية، والصنائع السنية التي لا يبلغها نقوش أهل الهند ولا تنتهيها نعمة أهل الصين تدركها رقوم أهل رها، ولا تساميهما دباسح تستر ولا يقارن بها وشي صنعاء ولو لم يكن لها إلا السطح المدد المشرف على الصحن الكبير والقبة وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة المهمة وحسن المستشرق وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب موضون، وعمد كأنها أفرغت في القوالب، أو أعيرت ملمس النضار الدلامس، ونقوش كقطع الحياض، وتشجير كألقات الرياض، يتسنى بين ذلك كله أنه سنام الدنيا، سلسل برود يفرغ أمامه من تماثيل عجيبة الأشخاص في خوابي رخام تمد الجبال ضخما ولا تهندي الأوهام إلى سبيل الالفاء بها ولقد أخبرني الشيخ العالم القدوة شمس الدين الكركي قال بلغت زنة الرصاص الذي على سقف قبة الصخرة هذه ثلاثين ألف قنطار بالدمشقي وهو بالمومني مائة ألف وعشرون ألف قنطار كاملة، وذكر عبد الملك بن حبيب رحمه الله أن عبد الملك بن مروان بنى القبة على الصخرة وجعل على الجانبية التي أعلا القبة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب في كل صفيحة سبعة مثقال وأفرغ على رأس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهباً وفي وسطها مكتوب بالذهب في أرض سماوية لا زوردية على الدائرة ما نصه: -بسم الله الرحمن الرحيم- أمر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المؤيد من السماء ناصر الدنيا والدين محيي العدل في العالمين وظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه محرر ممالك الدنيا ومظهر كلمة الله العليا مشيد أركان الشريعة الشريفة، سلطان الإسلام

الشهيد الملك المنصور قلاوون تغمدته الله برحمته وذلك في شهور سنة ثمان عشرة وسبعمائة وتحت هذه القبة العجيبة الصخرة الشريفة التي هي كالجبل الراسي والطود العظيم معلقة وسط الفضاء بين الأرض والسماء لا صعودا ولا نزولا، إنما يمسكها الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وقد انصنع بهذه الصخرة الشريفة والبنيان الدائر بها نوع مغارة كبيرة تفضي إليها أدراج جملتها خمسة عشر درجا وفيها سطح مفروش بالرخام المجزع المختلف الألوان البديع الصنعة وهو موضع مبارك للصلاة، وفي الطرف القبلي من الصخرة الشريفة أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم يتبرك به الناس ويمرغون خدودهم فيه وقد طاف بالصخرة الشريفة شباك من العود، وبعده شباك آخر من الحديد، ثلاثة أبواب وبين الشباكين فضاء واسع للصلاة، وللقبة

المثمنة أربعة أبواب فالباب الجوفي منها يسمى باب الجنة وبأعلاه مكتوب بالخط الحسن هذا باب الجنة وبأعلى الباب الثاني منه لوح نحاس كبير مكتوب فيه بالنقش المحكم ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم لا شريك له الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، عبد الله ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون آمنا بالله وبما أنزل على محمد وبما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، صلى الله عليه وسلم على محمد عبده ونبيه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه، مما أمر به الإمام المأمون أمير المؤمنين أطلال الله بقاءه في ولاية أخيه أمير المؤمنين أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله وجرى على يده صالح بن يحيى مولى أمير المؤمنين في شهر ربيع الأخير سنة ست عشرة ومائتين، وأعلى الباب الثاني من الباب الشرقي لوح آخر من نحاس أيضا مكتوب هذا النص المذكور بجملته، وأمام باب الجنة المذكور قبة تغشى النواظر بشعاعها وتخطف الأبصار بالتماعها تسمى قبة السلسلة التي كان يحكم بها داوود عليه السلام وهي قبة عجيبة قامت على أسوار مختلفة وصناعة على الحسن مشتملة بوسطها تأريخان مكتوبان بالذهب أحدهما في أرض حضراء زرعية ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان، وكلا أتينا حكما وعلما، كمل تجديد بطن هذه القبة السلسلة المباركة ونقش سقفها وتبليطها في شهور سنة ست وتسعين وخمسماية، وفي الركن الغربي من هذا الصحن المرتفع المذكور مسجد فيه قبتان منتظمتان عجيبتان فيهما رسوم مذهبة وتواريخ مختلفة أقرها عهدا وهو ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلواته على خير خلق الله محمد وآله وصحبه، أما بعد فما زلت هم ملوك الإسلام تناصر على إثبات مفاخر يبقى ذكرهم ببقائها وإنشاء محاسن يباهون الأمم ببهاؤها، فيحيون رسوما طالما نسجت عليها العناكب. ويرقمون على صفحات الأيام من الخيرات رقما تشرف إليه الكواكب فتظل عيون الأماني بمآثرهم قريرة

وأعواد احبابهم بمفاخرهم مورقة نضيرة أعطاهم الله قدرة فصرفوها إلى رفع أقدارهم، وأتاهم الدنيا فلم يتركوها غفلا من محاسن آثامهم:

باق بها فكأنهم أحياء

"فتراهم دون الرجام وذكرهم

فله در فتى تبقى مساعيه بعده مشكورة، ومناقبه ما بقيت آثارهم مذكورة، ولما تشعث السقف الذي كان أنشأه الملك المعظم الواقف المذكور رحمه الله انتدب لإحيائه عبد الله الفقير إليه أسد الدين عبد القادر سبط الواقف بحكم ما إليه من النظر الشرعي في أوقاف جده فجدده وبذل وسعه وطاقته فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى وكان الفراغ منه في ربيع الأخير سنة تسع وعشر وسبعمائة من الهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وفي الجهة الغربية ثلاث صوامع وأسم المأذنة أو المنار أحق من أسم الصومعة لأن الصومعة هي التي للراهب وهي بفتح الميم. وفي الجهة الغربية والجوفية قباب مختلفة تركت وصفها اختصارا، منها قبة الركن المشرقي الحافلة وقبة المعراج وقبة الميزان الرخامية وقبة موسى البديعة وقبة سليمان الرائقة وفي كل مسجد من تلك المساجد ومدرسة من تلك المدارس، وقبة من تلك القباب أمام عاكف به قائم عليه، ولقد عدت مواضع الاشفاع وصلاة التراويح بها في شهر رمضان المعظم فألفينا نحو الأربعين موضعا وفي الجهة الغربية من الصحن الكبير المئمن مدرسة عجيبة غريبة الشكل غزيرة المياه حافلة الصنعة بإها ملاصق لباب الحرم تسمى الذنقيدية. ويسكنها الصوفية وقد حف بها من الرسوم المذهبة العجيبة والخطب الأدبية الغربية والألفاظ البعيدة القريبة كل من أتى بالعجب، وسفر عن الحسن المنتخب ووجب ان كتب هناك بذوب الذهب، اخترت أحصرها ونقلت أيسرها، فكان الذي ارتضاه الاختيار واقتضاه الاختصار ما قيدته من مباح الطبقة العليا ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي رفع لبيت المقدس في سائر الملل ذكرا، وفضله على أكثر البقاع شرفا وفخرا، وجمع القلوب على محبته تعظيما لرتبته، وقدرنا، وأسرى بخير خلقه إليه ثم أنزل عليه صلوات الله عليه، سبحانه الذي أسرى، فيا بشرى لمن بنا لله فيه بيتا ولو كان شبرا، ويا أسعد من أسدى للناس فيه ثوبا وبرا، لقوله تعالى وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا، فأبي خير أعظم من إنشاء هذا المكان وبناء هذا الايوان، الذي باب الرحمة مفتوحا بين يديه، والطور أمامه والشجر وتحت قدميه، والجامع الأقصى كالقمر ناظر إليه، والصخرة الشريفة كالشمس مقبلة عليه، وهو كالهلال قد ظهر بين الشمس والقمر.

في كل ناحية من وجهه قمر

ما الشمس ما البدر في للاء بهجته

أرجو لبانيه، أن يعطي أمانيه، وأن يفوز من الملك الجليل بالعطاء الجزيل والثناء الجميل والظل الظليل

وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا الطور المذكور جبل عظيم منه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء فيما يذكر، وهو بشرفي هذا الحرم العظيم فيه تلعة مباركة في أعلاها مسجد شريف حافل مؤسس بالسواري الحسنة الضخمة والرخام الأبيض الصافي والحجر المنجور الجافي يقصده الناس تبركا ودونه بيسير قبة مباركة يفضي إليها أدراج تحتها تربة الصالحة الولية رابعة العدوية رحمها الله تعالى ودونها على بعد قبة كبيرة مختلفة فيها تربة مريم عليها السلام تفضي إليها أدراج هابطة إلى التربة الكريمة عدت فيها ثمانية وأربعين درجة وفي هذه المدينة الكريمة بقاع طاهرة عليها بركات ظاهرة وبها قبور الأنبياء صلوات الله عليهم وأثارهم نفع الله بالقصد والنية في زيارتها برحمته وما هذا الذي ذكرت في وصف تلك المشاهد الشريفة الذكر، والمساجد العظيمة القدر، والمعاهد الكريمة الفخر إلا كالنقطة الواقعة في البحر، والذرة الساقطة في القفر، والشرارة من الجمر، ولما لاحت نيرات هذه الأنوار، وفاحت نسيمات تلك الأسحار، وشاهدت أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد إليها إلا الرحال وعانيت الحرم الشريف حقيقة قد أحلني لديه الترحال، اخترت مجاورته وأثرت ملازمته وقلت أين أذهب عن موطن مهبط الرحمة وموضع محشر الأمة، ومحل تفرج الكربة والغمة، حدثني الشيخ الفقيه القاضي شمس الدين عبد الله محمد بن سالم بن عبد الناصر الكنانى الغربى الشافعي قاضي مدينة بيت المقدس حرسها الله تعالى سمعا مني عليه بحرم المسجد الأقصى الشريف بقراءة شقيقه الشيخ الإمام الأوحى، علم الدين أبي الربيع سليمان وبقصد الرواية عنهما ومن أصلها نقلت، قال حدثنا الشيخ الإمام المحدث علاء الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم ابن داود العطار رحمه الله، قال الأول منهما، سمعا عليه في رجب سنة أربع وعشرين وسبعمائة وقال الثاني قراءة عليه في يوم الجمعة ثاني صفر سنة سبع عشرة وسبعمائة بدمشق المحروسة يرفعه إلى أبي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى، رواه البخاري ومسلم، ولمسلم قال نما يسافر إلى ثلاثة مساجد الكعبة ومسجدي ومسجد ايلياء وبهذا السند إلى أبي العطار يرفعه إلى ذي الأصابع رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنه، قال قلنا يا رسول الله أرأيت أن ابتلينا بالبقاء بعدك أين تأمرنا، فقال فعليك ببيت المقدس فعسى الله ان ينشئ لك ذرية يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون، وبه انس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال، من زار بيت المقدس محتسبا لله عز وجل حرم الله لحمه وجسمه على النار، وبه عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أفضل صلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة وفي مسجدي ألف صلاة وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة وبه عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله الصلاة هاهنا أفضل أم الصلاة في بيت المقدس، قال صلاة في مسجدي خير من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلي هو أرض المحشر والمنشر، وبه عن يزيد بن عبد الله رحمه الله قال من خرج إلى

بيت المقدس بغير حاجة إلى الصلاة فيه فصلى فيه خمس صلوات صباحا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاء خرج من خطيبته كيوم ولدته أمه، وبه من أبي يزيد قال لما خلق الله بيت المقدس حزنت لها الرب جل جلاله ما يحزنك، وقد سميتك من حيي باسمي أنا المقدس وأنت المقدسة قالت ربي فإذا فعلت هذا فمن أتاني فصلى في فتقبل منه، ومن سكنني فأرزقه، ومن مات في فاغفر له وارحمه، فقال لها الرب لك ما سألت وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله قد سال سليمان عليه السلام ربه أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه ألا تصرف بصرك عنه ما دام مقيما فيه حتى يخرج منه، وإن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فأعطاه الله ذلك وقوله سبحانه الذي باركنا حوله، يعني بالماء والشجر وأقدام الأنبياء، كان كعب رضي الله عنه يقول بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا، ولو تتبععت الأحاديث الماثورة والأخبار لأملات وملأت ورويت ورويت هذا إلى ما أطلعه الله في ذلك الأفق المنير من بدور العلماء وامتنع من صدور

الأولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع وقصدوا إلى العبادة فيها والانقطاع، فسن الله إلى البغية ولقيتهم أجمعين ورويت عنهم ولما كثر على تعدادهم وقل على نظراؤهم وأندادهم، انتقيت منهم هاهنا خمسة يتبرك بذكرهم وتعطر الاندية بشكرهم "فأولهم" في الحلبة و أولاهم بالتقديم على هذه العصابة الشيخ الخطيب العالم زين الدين أبو البركات عبد الرحيم بن بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن أبي الفضل بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكناي الشافعي سليل العلماء العالمين وقليل النظراء في عبادة الله الصالحين، تجلّى من مراقب الفضائل والمعارف وتجلّى بالمجد التليد والطارف قصرت الأوهام عند كنه فضله ونقصت الأحلام عن راحة عقله وعجزت الأقلام عن وصف مثله كثر من كنوز الكرم لا ينفذ على النفقة ولا يسئم من الصلة والصدقة من رجل ما زادته الرفعة إلا تواضعا عجبا، ولا أبقت له المعلومات في العجب أربا برع بأحسن صوره، ورفع من المجد ارفع صوره، وجمع جمال سمات وجمال سيرة زين به ذلك المسجد الشريف ومحرا به وعين للإمامة والخطابة فيه، وما بقل عذاره ولا كمل شبابه، فجلس على الكرسي الأكبر ورقى ذروة المنبر

لفو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليه المنبر

خطة ورثها من الفاضل أبيه ورتبة ما برح يتوخى فيها السنن الرضى ويقتفيه، ولو لم يكن لديه إلا اقتفاء سير أسلافه الصالحين والرواية عنهم وعن والده قاضي القضاة بدر الدين رضي الله عنهم أجمعين، لقيته بالمسجد الأقصى عمره الله تعالى بالذكر وضاعف لمجاوره جزيل الأجر فأدخلني إلى منزله الكريم الذي التصق بابه بمحراب ذلك المسجد العظيم فرأيت منزلا جليل القدر سامي الخطر مكلل الجوانب مرصع

الأرز، فذهلت في نقشه وحجلت من وطئ فرشه ثم ذكرت ما أعده الله تعالى لأوليائه في دار كرامته من النعيم المقيم وتلوت: قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وقد سمرت في زوايا مجالسه حدود الورد الغض، وتراكت سحائبه بعضها فوق بعض، فعجبت من ظهوره في غير أيامه، وأكبت على انتشاقه والتمامه وذكرت به ما ذكره أبو الحسن جعفر بن الحاج اللورقي في كتاب مجد الشعر له وذلك أنه ورد الأديب أبو الحجاج يوسف بن هارون الرمادي رحمه الله على بني أرقم بمدينة وادي آش أهدي إليهم ورد في قمعه من مدينة بجانة أول ظهوره فأكب الرمادي عليه يقبله استشارا به وفرحا، ففهم المتعجب من فعله ذلك من حضر فأنشد ارتجالا:

قد عرتها حمرة مكتسبة

وأنا مغترب من قرطبة

بالندي أموالهم منتبهة

فإلى أرقمها منتسبة

ليس فيه حالة مستغربة

قبل المغترب المغتربة

يا خدود الحور في إخالها

اغتربنا، أنت من بجابة

واجتمعنا عند اخوان صفا

عصبة ان سئلت عن نسبة

ان لثمي لك من بينهم

لا اجتماع في اغتراب بيننا

فاستحسن رضي الله عنه ما ذكرته من ذلك، وأجزل صليتي مما حضر هناك، ولم أزل أتردد إليه واسمع منه، وأقرأ عليه حتى تحصلت لي منه جمل مفيدة، ومقيدات عديدة، ومما قرأت عليه بمترله المذكور جميع الجزء الذي ألفه وخرجه عن شيوخه في أحاديث نبوية، وفوائد جمعة، وجميع الجزء المسمى بتنقيح المناظرة، في تصحيح المخابرة، وجميع كتاب المنهل الروي في علوم الحديث النبوي، وهو اختصار كتاب ابن الصلاح رحمه الله تعالى، وجميع الخطب المختصرة من خطب ابن نباتة رحمه الله تعالى، ومما سمعت بلفظه بعض كتاب غرر البيان لمن لم يسمع من القرآن، وبعض كتاب تجنيد الأجناد، في وجهات الجهاد، وبعض كتاب مستند الأجناد في آلات الجهاد، وكلها من تأليف والده سوى الجزء الأول، وتناولت ما لم يكمل لي سماعه عن يده المباركة وأخبرني بذلك سماعا عن المؤلف والده، المذكور وقرأت عليه وسمعت منه غيرها حسبما كتب لي لذلك وأجازني إجازة تامة. والثاني أعوزه بالمعوذتين والسبع المثاني الشيخ العالم الإمام الحافظ مفتي المسلمين صلاح الدين خليل بن كيكليدي بن عبد الله الملائي الشافعي الدمشقي نزيل بيت المقدس نفع الله تعالى به رجل من أكبر كبار المشرق. واستقبل بالإمامة في جميع فنون العلم ولما يشب له سواد المفرق، واستقر بالنيرين، نور علمه ونور جبينه المشرق، فجلى من حسن الصورة بما قصرت عنه

مخدرات القصور، واتي من الشجاعة ما يرد به مفارق ومفاصل الليث المصور، ومنح من الكرم ما تخلى عنه أسخياء هذه الأزمة وكرماء هذه العصور، ولما أكمل تعالى عليه نعمته في كمال خلقة واعتدال قامته وبنيته أحب أن يزيد كمال حلاه البدنية، وصفاته بكمال نفسه السنية، وذاته البهية، فجمع في صدره ما تشتت من فنون العلم، وألقى عليه سكينه الوقار والتقوى والحلم، والبس أديم الحسن ناعم ذلك الجسم، فلم تر عيني على عظيم ما رأيت من مخلوقات الله تبارك وتعالى رجلا أتم حسنا، ولا أكمل معنى، ولا أنبل تحصيلا، ولا أفضل جملة وتفصيلا، منه في صورته وسيرته وعمله، ولبسه وعقله وفضله، واعتداله وكماله وجزالته وبسالته وشجاعته وبراعته ودهائه وحيائه وحبائه وكرمه وكلمه وحفظه ولفظه وفصاحته وسماحته وذكائه ونباهته ونزاهته وعبادته وزهادته وورعه ودينه وإخلاصه ويقينه وحر كاته وسكونه وتصرفاته في جميع فنونه.

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

يمينا بآياته السافرة، وآياته السائرة ان الأحبار لفي حيرة بإفادته كالحابر والمنابر، بإجادته، وان أوضح الملفوظات ما تلقاه فألقاه، وأصح المحفوظات، ما أحرزه فأبرزه ببصيرته يحندي البصري، وبكفايته يقتدي الكوفي وبنكته يستصحب الصاحب وعلى إنشائه يعتمد ابن العميد، وأما الآثار فعليه مدارها ولديه ينفق عندها وبنذارها. لا جرم إن ذا التحصيل والرأي الأصيل، من طاف بسدة سيادته، وجنح لمعلم علمه فاستعدي الرشاد والسداد واستملي المتن والإسناد ليسعد جده بالحمل على الجادة، ويتحقق في كل صورة ومادة، بين الصبح لذي عينين، وما قلت إلا بالذي علمت سعد، لقد حضرت مجالس تدريسه التي هي منتدى الإعلام، ومنتهى جهد الأسماء الأعلام، وميدان فرسان الطروس والأقلام، وقلائد أعناق مدارس الإسلام. فكان كل من حضرها من علماء الأمصار يحلف انه ما سمع بمثلها من مثله في هذه الإعصار، وان الله أخلصه بخالصة ذكرى الدار، وجعله من أولي الأيدي والأبصار ولقد حل أول شهر رمضان معتكفا بالمسجد الأعظم لالتزام الأوراد والأذكار، والتسبيح والاستغفار، فما كان يبرز منه إلا للإفطار، وقضاء ما خف من الاوطار، ولقد شاهدته بطول الشهر المذكور وقد اختص به واحتل بمثله من طلبة العلم وغيرهم ما ينيف على الأربعين رجلا سوى عائلته والجميع من عنده يأكلون وإليه ينضمون ويأوون، فسألت ذلك فقل لي ذلك دأبه وعادته في رمضان كل سنة على تعاقب الدهور والأزمنة. وهذه نبذ من عظام فضائله، ولمع من حسان فعائله، فلنقف عندها، وهي تدل على ما بعدها، ثم نذكر بعض ما سمعت من لفظه ونقلت من خطه أو حفظت فمن ذلك كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله

عليه وسلم للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض رحمه الله تعالى سمعت جميعه من لفضه
 بالمسجد الأقصى الشريف وحدثني به بسنده المكتتب بخطه في إجازته لي وقرأت بلفظه جميع كتاب
 الشفاء هذا، وسمعت بلفظ غيري على جماعة كثيرة من أهل الأندلس غرب العدو وأثبت سندهم فيه في
 برنامج روايتي وسمعت عليه بعض كتاب مسلم بن الحجاج رضي الله عنه وجميع الجزء الذي صنفه في
 تقرير الوحانية لله تعالى، يشتمل على تفسير قوله تعالى: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا
 على الله إلا الحق، الآية. وجميع بغية الملتمس في عوالي حديث مالك ابن أنس من تحريجه أيضا وهو ستة
 أجزاء خرجها من كتاب الموطأ، وقرأت وسمعت عليه غير ذلك مما هو مثبت بخطه كذلك وله شعر رائق
 ونثر فائق اسمعني من ذلك جملة وأنشدني. ومن خطه نقلت لشيخه الإمام العلامة فريد دهره ووحد
 عصره قس الفصاحة ملك البلاغة شهاب الدين ابن أبي الشاء محمود بن سليمان الحلبي كاتب السلطان
 بدمشق كل فريدة غيداء وحديقة غناء رائقة النظم والرصف فائقة الوسم والوصف مالكة القلب
 والطرف.

فتزري بالحن الغريض ومعبد

يقود عنان السمع حسن نشيدها

وأنا أول من جلب شعر شهاب الدين هذا فادخله بلاد المغرب وقصيدته اللامية الحافلة التي استوفت كثيرا
 من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وهي من القصائد العجيبة والقلائد الغريبة أولها.

كيف احتيالي ان عزمت رحيلاً

هذا اللقاء وما شفيت غليلاً

داعي التفريق لو وجدت سبيلاً

يا دار من أهوى وحقك لم أجب

وعدها مائة بيت وواحد وثمانون بيتاً، وقال لي شيخني صلاح الدين رضي الله عنه قرأت وسمعت ذلك
 مع مجموع شعره عليه وأجازنيه، فمما أنشدني له على طريقة مهيار وكتب بها إلى محيي الدين ابن عبد
 الطاهر رضي الله عنه.

فأنشأت أجفانه الغوادية

شام على الابرق برقاً بادياً

برق الثنايا وكفاه هادياً

وعاج بالركب وقد بدا له

لما غدا له الزفير حادياً

وساق بي العيش قطار دمعاً

قربه الشوق فكان نائياً

ما لاح عن قرب مدى وإنما

أدنى له ما ليس منك دانياً

يا برق حق ما، رأى أم شوقه

إليه والماء كثير صادياً

حن إلى ماء النقي ولم ينزل

يا حبذا ماء العذيب منهلا
وحبذا من النسيم شمألا
وحبذا والورق في غصونه
حيث ترى الادمع في رياضه

والغصن الرطب وما أشبهه
ترى الاقاح بالشغور ضاحكا
وتحسب العشاق في عراضه
فكم حوى الظل نحولا مثله
وافاه معتل النسيم عائدا

يا برق اذكيت بقلبي حرقه
جزت على دار الهوى فهل غدا
عار على دمعي إذا ضن الحيا
إذ كرتني برق الشغور لائحا
بالله ان جزت بأرض رامة
وقل لهم خلفت في الحي لكم
أرخص فيكم دمة كروحه

ومن حمى الوادي عريب أشرعوا
جاورت فيهم والندى شعارهم
يا صاحبي قد ضاع قلبي فابكيا
واستخبروا السرب ولا تتهما
فان أتى فحبذا وان أبى
بي منهم ظبي رنا فصادني
شاكي السلاح لا ترى بجفنه

وحبذا وادي الاثيل واديا
فيه ومسرى رقة يمانيا
تدرس في أوراقها الاماليا
مستبقات والنسيم وانيا

بالطل أو بالدمع فيه حاليا
والغيث فيه كالجفون باكيا
لولا الأنين الرمم البواليا
لولا التهاب الوجد كان خافيا
وجاءه ورق الحمام راقيا

منك فما شأن الحيا وشأنيا
زندك في رى تراها واريا
ان تعنذي أغصانها عواريا
فظل دمعي رائحا وغاديا
فصف وان لم يسألوك حاليا
ميتا قضى وما قضى إلا مانيا
وكان كالصبر عزيزا غاليا

دون القدود مثلها عواليا
فأطلقوا لي من دموعي جاريا
عليه في ناديهم وناديا
عليه في ذا الأعين الروانيا
أرسلت دون ناعيه ناعيا
يفديه قلبي صائدا أورانيا
في الحي إلا باكيا وشاكيا

يا صار ما جفونه جفونه
ويا قواما لحظه سنانه
ويا وشاحا ضم خصرا مثله
ما لك والخلخال يشكو ربه
ويا جبيننا ما انجلى صباحه
سامرت والأفلاك فيك مقتلي
كأنني والجو روض ناظر
كأنني في مدح محيي الدين قد
وأنشدني له أيضا:

ما ضر من شفع الصدود ببعده
أو لو شفاه بزورة بعد النوى
ظبي من الأتراك خال باله
ريان من ماء الشباب إذا مشى
ما كنت أشكو من قساوة قلبه
أبكي ويضحكه التدلل عن سني
وأمر حسن ناظري، والقلب من
علما بان اللحظ منه صارم
لو زارني لفضضت ختم رضابه
وجنيت منه الروض غب سمائه
ووردت من وجناته ورضابه
وأجلت كفى من مجال نطاقه
قالوا به سقم فقلت لعله
يا سألبي طيب الرقاد وإنما
لولا انتظار الطيف يطرق في الكرى
لو علل الكلف المشوق بوعده
ليرى الذي فعل البعاد ببعد
من حال ملئان الفؤاد بوجده
يئتي الغصون على تنثني قدره
لو أنه أغرته رقة خده
برد شفاء محبة في برده
أعوانه أبدا على وجنده
عضب وما حذرا مواقع حده
وضممت ما ضمت معاهد بنده
وجلّيت منه البدر ليلة سعده
ما بغيتي في ورده أو ورده
في غورة وكففتها عن نجده
في جفنه أو خصره أو عهده
أسفي على فقد الخيال لفقده
ما راح دمعي سائلا من خده

وأنشدني له أيضا يعرض بالشيخ شمس الدين الايكي أحد المدرسين بدمشق وكان بلغه عنه أنه تنقص بالإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وذكره بسوء فانتصر له شهاب الدين أبو الثناء المذكور بهذه الأبيات:

| | |
|--------------------------|------------------------|
| بنت فبات الطيف لي مسعدا | بيبحني جنة خديك |
| وطالما حاولتها قبلة | فصد عنها سيف جفنيك |
| لو لم أخل حمام اللوى | في الأيك يغني عن رقيبك |
| لفر نوما كان مثل الصبا | يعطف لي ان ملت بعطفك |
| فلا راعي الله حمام اللوى | ولعنه الله على الايكي |

وأنشدني له أيضا:

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| إذا ما بدا مسفرا ضاحكا | وقد ميلته الصبا والجنوب |
| فلاح الصباح وفاح الاقحاح | وماس القضيب وماج الكثيب |

والثالث أكبرهم سنا. وأكثرهم بالمعاني الأدبية معنى الشيخ الفقيه المحدث الأديب علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المقدسي الشافعي أبقى الله بركته شيخ النظم والنثر وإمام الحديث في ذلك القطر خطب حسناء الأدب سنين، وانعقد النكاح بينهما بالرفاء والبنين، واعتنى بالرواية فأخذ عن جلة من الشيوخ الغابرين قطع في ذلك زمنه، وأطار فيه وسنه ولم يثن لغير العلم همته، ولا جر في سواه رسنه، فروى وقيد وشيد من مباني العلم ما شيد، فهو اليوم وان قرب من الفوت رحلة هذا الوقت له سبلة منسدلة يروق إيماضها ويفوق السواد بياضها، على وقار وسكينة وجلالة مكينة وحصاة رزينة وهيئة زينت بأحسن زينة ينصب مجالسه المباركة لعلوم الحديث في القديم من الزمان والحديث، فيعلوها منه الصدق ويغتنمها لديه الخلق ويطرق إليها من أقاصي البلاد، فيلحق فيها الأصاغر بالأكابر والإباء بالأولاد، سمعت عليه بمجلسه من المسجد الأقصى الشريف جميع صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه بعد أن كفت سمعت عليه جميع الثلاثيات المخرجة منه وحدثني به عن الشيخ الإمام تاج الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاري، وعن الشيخ الحافظ شرف الدين الحسين علي بن محمد بن أحمد اليونيني قراءة منه على كل واحد منها بجميعه بدمشق المحروسة قالا أخبرنا الشيخ الصدوق أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن الزبيد أخبرنا الشيخ الثقة أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن الشجري أخبرنا الشيخ أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد المظفر

الداوردي أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسي، أخبرنا أبو عبد الله البخاري، وقد كنت قرأت عليه بلفظه جميع صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري بالمسجد الأعظم من مدينة مالقة حرسها الله عام ثلاثة وعشرون وسبعمائة على الشيخ الخطيب الصالح الولي لله تعالى أبي عبد الله محمد بن أحمد الهاشمي الطنجالي، وسنده فيه مشهور لجودته، وسمعت على شيعي هذا بالمسجد الأقصى الشريف، جميع أحاديث الرباعيات المروية عن مسلم رضي الله عنه وجميع الجزء الذي فيه التساعيات من شيعه ابن البخاري، وجميع الجزء الذي فيه ثمانية وثمانون حديثا من مشيخته أيضا وجميع جزء الأنصاري وجميع الثمانية عشر حديثا وحديثين عن ثمانية عشر شيخا، وشيختين لأبن الطاهر، وأسانيد هذه الأجزاء كلها مستوفاة في برنامج روايتي، وسمعت عليه بحيث ذكر جميع قصيدته الرائييتين التين نظمهما في فضائل المسجد الأقصى شرفه الله تعالى، وأجازني بالإجازة التامة وكتب لي بخطه ومولده يؤخذ من قوله فيما كتب لي به في استدعاء وأنشدنيها بلفظه رضي الله عنه:

"أجازهم المسؤول فيه بشرطه علي بن أيوب بن منصور بالقدس"

"ومولده ما بين ستين حجة وسبعين بعد الستمائة بالحدس"

ورابعهم في التعداد، العدم الأقران والانداده، الشيخ الفقيه المقرئ الصالح شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي محمد بن مثبت الخولاني الأندلسي، أحد العباد الموفقين، والعباد المتقين، يذكر سيرة السلف الصالح بعمله الموهوب، وعقله الراجح، ما تراه أو تلقاه إلا يروعك دينه وتقاه ولا تبصر مجلسه أو ممشاه إلا وتمايه وتخشاه اشتغل بما يعنيه، واشتمل دهره أما على علم ينجي، أو إلى عمل يجنيه، قد عزل عن الناس نفسه وجعل بالله وبكتابه انسه، فليس له هم إلا في إقراء القرآن، وإيراده عند اغفاء الأجفان، أو في إطعام كبد جائع وإغاثة ملهوف مغترب شافع فهو مأوى الغرباء وجنان الفقراء ومظان قضاء حوائج الأخوان والأولياء:

قبلة في السماح يجتمع السا بق في فضلها مع المسبوق

رحل عن الأندلس فتى غرا فجرعه البين كأسه مرا، والى هلم جرا يذكر أوطانه فتفيض دموعه حمرا ويهب له منها نسيم فيذكي ضلوعه جمرا، لا جرم أن الزمان أخذ بيده، فبلغه أسنى مقصده وانجزه أكرم موعده فوعى وفهم وعمل بما علم واستقاد وأفاد، ورزق المال والأولاد فهم الآن بذلك الحرم الشريف من خيار المدرسين وكبار الرؤساء لا المرعوسين، كثيرا ما كنت أحضر مجالسه العلية وفوائده العلمية ودوله الفقيهية والنحوية فاغبط من حضر والتقط الدرر:

وأمنح الطرس من ألفاظه نبذا وأخلط العنبر الوردى بالعفر

ومما قصدت رواية لعلوه فيه، كتاب عوارف المعارف تأليف الإمام شهاب الدين أبي حفص السهرودي رحمه الله تعالى سمعت أكثره بلفظه وتناولته من يده فحدثني به عن الشيخ كمال الدين عمر بن الياس المرعني سمعا عليه بجمعيه حدثه به عن الشيخ الإمام قطب الدين أبي بكر بن محمد بن أحمد القسطلاني قراءة عليه عن المؤلف شهاب الدين المذكور سمعا عليه من لفظه أيضا، أكثر رسالة الشيخ أبي القاسم القشيري رحمه الله وناوليهما، وحدثني بها عن الشيخ شهاب الدين أحمد ابن يحيى بن إسماعيل بن جهيل قراءة منه عليه لجميعها حدثه بها عن الشيخ شرف الدين بن هبة الله بن عساكر سمعا عليه عن الشيخ أبي محمد عبد الوهاب بن شاه الشاذا باخي سمعا، عن المؤلف المذكور وسمعت من لفظه جميع الأحاديث التي خرجها الشيخ الإمام فخر الدين أبو الحسن علي السعدي المقدسي الحنبلي، وحدثني بها عن الشيخ شهاب الدين بن أحمد بن جهيل المذكور، قراءة عليه حدثه بها عن مخرجها فخر الدين المذكور سمعا، قراءات وسمعت غير ذلك واجازني إجازة تامة وكتب لي بخطه "وأوترهم" بل أوترهم بمسك الخاتم، وملك الكلام وخامس الأربعة الكرام، وحامل لواء البيان بين صناديد مصر وفحول الشام الشيخ الفقيه الأديب الأبرع جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن عبد الرحيم بن نباتة المصنف صاحب الخطب الشهيرة أبرع خلق الله إذا نظم أو كتب ومن جمع الله له الأدب والحسب، ورحب في تلك الطباع، املح الانطباع وأمد الباع ان تغزل أو نسب، الذي مد أرض البلاغة ودخلها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، يستخرج بن بحره اللؤلؤ المنظوم والمثور فيسحر الحور ويفتن الحور ويطمع المهارق ويؤيس النحور، فرفقا يا دره النفس ومهلا يا مرجانة المسطور، غازلت الغزلان، وبدرت البدور، وعلمتنا ننبذ المباسم وننسى الثغور فنحن في روضة مديحة نخرج من زهرة إلى زهرة، ولما ملكه الله تعالى ملاك هذه الطريقة الأدبية وقوامها وحطت لديه هذه الصناعة السنية رحلها وزمامها ومدت له في الأدب غاية كبا دونها أهل الآداب، ورفعت له في الشعر راية مشى تحتها كثيرا من الشعراء والكتاب، تنافست ملوك الشام في لقاءه وتماقت على اصطفائه وارتقائه فحولته مقاصد وقصورا ووهبته ولدانا وحورا، وأنالته نعيما وملكا كبيرا، فانضوى إليهم زمانا، وتلقى مني وأمانا فزهت في يمينه الاقام، ونهت وأمرت بين يديه الليالي والأيام:

فامهر نقدا ولم يخش نقدا

ورف إليهم بنات النهى

فزانت كما زين الجيد عقدا

ونظمها بجبيين العلى

خطب حسناء المعالي فلم يغفله المهر، ونهى وأمر فامثل إليه النهى والأمر، وأنيل أمله النظم والنثر، وحلل سحرهما وقد حرم السحر، فقرط وشنف، ودبج وفوف، وألف وصنف، وعنى بينات فكره القلوب ممن عنى، وعنف، وسحرتني ألفاظه، ولقد كنت بعيدا من أن أصاب بسحر، إلا أنه اليوم قد آثر الراحة من حراسهم وحجا بهم، واستغنى بباب الله عن الوقوف إلى أبواهم، فما يظاً لهم ناديا، ولا ييلي منهم مناديا، بل اقبل ما يعنيه، وأعرض عما كان يتعبه ويعنيه، بممة تشرق فهي الشمس أو تسمو إلى الغايات فهي زحل.

لقيته بحرم المقدس أتاه من دمشق زائرا، وخرج من بيته مهاجرا، وقد كان عرف أي في الطريقة من أنسابه وعلى الحقيقة من المتعلقين بأهدابه، فحين رأي أسرع في القيام، وبادر إلى اللقاء والى السلام، فخرجت من فعله وعجبت من فضله واستنشدني من شعري، فأنشدته لي ولغيري، وتحصل بيني وبينه ذمام أكيد، وعهد بفضل الله حميد، ثم سألت في تقييد شئ من شعره فأخرج لي ما ارتضاه منه واختاره في نسخة تغار عليها حبات القلوب إذا تبديها، وتود الاحداق إذا رمقتها لو تبديها فياضها بياضها وسوادها بسوادها، فاستعرتها منه، وكتبها عنه فلما رمق ما كتبه أحب اقتناءه تجديدا للعهد وحفظا للود فاستوهبه مني محتشما، وأسعفته فيه فقبله وقبلت ضاحكا مبتسما، ووهبي أصله وأكمل لدى طوله وفضله فأنا أول من جلب ذلك الدر النفيس من بحره، وتقلد في جيده ونخره، وفاز بشرفه وفخره ولما قرأت عليه أخذ القلم بمحضري وكتب على ظهر الأصل ما نصه "الله الموفق قرأ على الشيخ الإمام العالم الكامل الفريد أبو البقاء خالد البلوي الأندلسي شكر الله بره المغدق وأصله المعرق، وحرس شخصه الذي تقول المحاسن أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق أكثر هذا النبذ من شعري والرسالة من إنشائي قراءة ملأ بها سمعا وذمنا، واربح بها للشعر نقدا ووزنا، وفضها سبط حلى فهو أما يقلد عنقا وأما يقرظ أذنا واحكمها ببيانه وصوته، فما سمعت أطيّب من حالته إعرابا ولحنا، وأجزت له روايتها وجميع ما تجوز لي روايته معترفا بفوائده الممتازة، عالما أنه كان يجب أن أجز من الجائزة لا من الإجازة متطوقا عوارفه التي عز بها الجيد ولا كرامة للدر، ولا عزازة، ونخلته هذه النسخة. وسألته إصلاحها بعد أن تعرضت عنها بنسخة من خطه الذي يتنافس فيه البصر والسمع، وقطرات أقلامه التي إذا نافستها أقلام الفضلاء تولوا وأعينهم تفيض من الدمع والله تعالى يرحم أسلافه، ويبقى منه على كرمه الطاهر ما أبقي الكرم من السلافة قال ذلك وكتبه محمد بن الخطيب بن نباته العبشهي المصري ثم الشافعي وذلك في شوال سنة سبع وثلاثين وسبعمئة بحرمه القدس الشريف وهذا الذي أثبتته من نثره يدل على جلاله قدره وحفاوة بره وها أنا أثبت من نظمه ما يسمعك عجا ويريك ألفاظه ياقوتا ولجينا وذهبنا:

من كل بيت لو تدفق طبعه

ماء لغص به الفضاء مسيلا

وكل قصيدة للعقول مقصودة ومقطوعة، على الحسن مطبوعة، فمن ذلك قوله يمدح السلطان المؤبد صاحب حماة رحمه الله تعالى من قصيدة العينية:

سرى طيفها حيث العواذل هجع

فتم علينا نشره المتضوع

وبات يعاطيني الأحاديث في دجى

كأن الثريا فيه كاس مرصع

أجيراننا حيا الربيع دياركم

وإن لم يكن فيها لطرفي مربع

شكوت إلى سفح النقا طول نأيكم

وسفح النقا بالبين مثلي مروع

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع

فدبت حبيباً قد خلا عنه ناظري

ولم يخل منه في فؤادي موضع

مقيم بأكناف الغضا وهي مهجة

وإلا بوادي المنحنا وهي أضلع

أطال حجاز الصد بيني وبينه

فمقلته حور ودمعي ينبع

لئن عارضت من دون زورته الفلا

فيا رب روض ضمنا فيه مجمع

محل ترى فيه جوامع نزهة

به تخطب الأطيوار والقضب تركع

قرأنا به نحو الهنا فملابس

تجر وأيد بالمدامة ترفع

وقد أمنتنا دولة شادوية

فما نختشى اللوى ولا نتخشع

وقال يمدح من قصيدة:

ملي الحسن حال المرشفين

متى يقضي، وعود الوصل ديني

أبتك عن عاد لي المعنى

رآك بعين حب مثل عيني

فحاكى قلبه قلبي خفوقا

وحكمك الهوى في الخافقين

لمثل هواك تجنح كل نفس

وتسفع كل ناظرة بعين

صددت فما الأسى عندي بقل

و لا دمعي بدون القلتين

بروحي عاطر الأنفاس ألمي

رشيق القد ساجي المقلتين

يهز متقفا من معطفه

ومن جفنيه يجذب مرهفين

له خالان في دينار خد

تباع له القلوب بحبتين

وحول نقا سوافه عذار
أظل إذا نظرت لوجنتيه
فيا لله من غضن فريد
كما شعرت نقوش في لجين
أنزه في النقا والرقمتين
وفي خديه كلتا الجنتين

أما وحاباب مبسمه المفدى
لقد عذبت موارده ولكن
على معسول كأس المرشفين
ندى المنصور أحلى الموردين

وقال أيضا:

وأغيد تعرف من جفنه
أرخی على أعطافه شعره
فأعجب لمن جار عليه الضنى
علامة التأنيث بالكسرة
قد جذبتني فيه للحسرة
حتى غدت تجذبه شعره

فقال يطلب الأذن:

ما يقوم المقام أيده الله
في ولى ببابه تركب الخلق
ولا زال للسعود يحوز
ووافى يجوز أم لا يجوز

وقال:

أهواه لدن القوام منعطفاً
وهبت قلبي له فقال عسى
يسل من مقلتيه سيفين
نومك أيضا فقلت من عيني

وقال:

لله خال على خد حبيب له
أورثته حبة القلب القليل له
في العاشقين كما شاء الهوى عبث
وكان عهدي ان الخال لا يرث

وقال أيضا:

بقلت وجنة المليح وقد ولى
يا عذار المليح دعني فإني
زمان الصبا الذي كنت أملك
لست في ذا الزمان من خل بقلك

وقال أيضا:

رأيت في جلق غزالا
تحرار في حسنه العيون

فقلت ما الاسم قال موسى

قلت بذا تحلق الدقون

وقال أيضا:

أهواه معسول الرضاب منعما

ولكم يعذبني الهوى بمنعم

يا قلب هذا شعره وجفونه

صبرا على هذا السواد الأعظم

وقال:

لا ينكر الكاسر أجفانه

دم الشهيد الصابر المغرم

فالريح، ريح المسك في خده

كما ترى، واللون لون الدم

وقال:

علقتها غيداء حالية الطلا

تجني على عقل المحب وقلبه

بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم

فغدت مطوقة بما بخلت به

وقال:

بروحي معسول المراشف أغيد

كثير التجني ما أغر وما أغرا

تنثني قضيبا فاح مسكا رنا طلا

سطا أسد، غنى حماما بدا بدرا

وقال:

وأغيد جارت في القلوب لحاظه

وأسهرت الأجفان أجفانه الوسنى

أجل نظرا في حاجبيه ولحظه

تر السحر منه قاب قوسين أو أدنى

وقال:

وضعت سلاح الصبر عنه فما له

يقابل بالالفاظ من لا يقابله

وسأل عذار فوق خديه جائر

على مهجتي فليتنق الله سائله

وحين ودعته تأسف للفراق وأعقب بإرسال دمة المهرق وأنشدني وهو مما يجب أن يكتب على الاحداق

لا على الأوراق فقال لي:

أودعكم وأودعكم لقلبي

وعون الله حسبكم وحسبي

فقلت مرتجلا:

وأرعى حبكم ما دمت حيا

وأرجو فضلكم رعا لحبي

ثم تألف بتلك المدينة الركب، واشتاق إلى البقاع الكريمة القلب فأعددت الزاد. وشددت الاقتاب والاققاد، وخرجت من مدينة القدس الشريف. في عشي يوم الأربعاء الثاني عشر لشوال من العام المذكور. وقد تضحخ حيي الأصيل بالعير، وكادت الشمس تسقط من الغرب على شفير، فبتنا بقرب سورها، وأخذنا من الأمور بميسورها، وودعت بمثلنا ذلك أخي محمد المذكور المتقدم الذكر وداعا استولى على الفكر. فشغلت مقل بالدموع، وأكباد بالجرم، وطالت النوى لوجدان الأسى وعدم الصبر:

ومدت اكف للوداع وصافحت وكادت عيون للفراق تسيل

ولا بد للآلفين من دمع لوعة إذا ما خليل بان منه خليل

ولما غاض نهر المجرة، وابتسمت أسنان الكواكب المفترية، سرنا إلى ان خيمنا بظلال روضات الغيور، وقد استل سيوف الجداول وترشح خمائل النور معدت حينئذ في صفة الشعراء:

وتحدث الماء الزلال مع الحصا فجرى النسيم عليه يسمع ما جرا

وكأن فوق الماء وشيا ظاهرا وكأن تحت الماء درا مضمرا

فترامينا على تلك المياه بين تلك الظلال مستقين وأنشدتهم لكتاب ميا فارقين:

وقانا وقدة الرمضاء ظل وقاه مضاعف الظل العميم

يراعي الشمس أني قابلتنا فيحجبها وبأذن للنسيم

وسقانا على ظمأ زلالا الذمن المدام لنديم

تروع حصاه حالية الغواني فتلمس جانب العقد النظيم

ثم عبرنا واديه الكبير، بعد أن لقينا الجهد الكثير، وسرنا سيرا مجدا، لم نأل فيه جهدا، إلى ان اجتمعنا بالركب الصفدي بخارج حسيان. وصلناها والأصيل قد ولى، وعامل الضلال قد تولى، فبتنا جميعا بها ولم نفرق بين ظهور المطى وقتبها حتى عبث الابتسام بالوجوم، وفاض مهر المجرة على حصباء النجوم، فنهبنا أيدي المطى على سنة السكون وسرنا إلى أن وافينا مدينة "الكرك" المحروسة العيا، التي هي من امنع معقل، في الدنيا، فوصلنا إليها في ضحوة يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال المذكور فرأيت مدينة عظيمة الجرم، سامية الرسم، كأنها على مرقب النجم. يحصر دونها الناظر ويقصر عنها العقاب الكاسر يكاد من علاها يعرف حوض الغمام، ويقف على همام السحاب والقتام، متناهية في الحصانة، موصوفة بالوثاقة، ممتعة على الطلب والطلاب، محتصة بكفرة الحراس وشدة الحجاب منصوبة على أضييق المسالك وأوعر المناصب صماء عن الراقي، عالية على المرتقى نائية للمراقب لن تزدها الأيام إلا نبو أعطاف، واستصعاب جوانب

وأطرف، فهو حمى لا يراع ومقل لا يستطاع، كأن الأيام صافحتها على الإعفاء من الحوادث، والليالي عاهدتها على التسليم من القوارع ضخمة المأوى رحبة المثوى، معشوقة السكنى رائقة المغنى.

تحسب النجم في دجى الليل زهرا في رباها وتحسب الزهر نجما

قد ساوت الفرقد بالوهاد والنجد، وفتحت أبوابها أنقبا في وسط الحجر الصلد، والعجب كل العجب أنها على بعد مرقاها، وسمو مرتقاها، قد اينعت في أعلاها الثمار وتفجرت منها العيون والأنهار فكلما هب فيها النسيم غردت الأطيوار.

فهي لا تسئل الغما م ولا تشتاق كالأرض كلها آذار

فترلنا بخارجها في الثنية العلية، وقد وصل بوصلنا المحمل الدمشقي والمركب الحلي وتألفت هنالك ركبنا الشام وأعدت عدة السير لزيارة افضل الأنام عليه أتم الصلاة وأكمل السلام، ثم تجهز الركب الكركي للسير أولا على عادته الحسنة فتجهزت معه مبتغيا بركة التقدم والإسراع وقاصدا السبق أول وافد على تلك البقاع وخرجنا منها ضحوة يوم الاثنين من غد اليوم المذكور وهو اليوم الرابع والعشرون من شوال فسرنا في جيش كثيف وعدة تظاهر تحت أعلام فخمة وطبول هادرة، وأخذنا نجد السير ليلا ونهارا، ونصل السري اظلاما وأقمارا، ونقطع أرضا صحراء مخوفة القطع، جرداء كالنطع، سوداء مثل القطع، يخطي الدليل سمتها، ويضل السيل عوجها وأمتها نحترق منها كل خرق وسبب ونمذج فيها عند كل صباح وغيب وتلك الجمال المباركة تمد أعناقها، وتحقق أحداقها، وتفري من الفيا في أزرارها وأطواقها، وتشكو إليها أسرارها وأشواقها، ويطربها الحداة فتبل دموعها محاجرها وآفاقها:

"تننى إلى حداتها أعناقها كأنها تأخذ عنهم خبرا"

والنوم قد طار عن الأجفان، وكاد يسير بكبد الظمئان اللهفان، ويسري لبيت الرسول من الزوار ولله من الضيفان فأول ماء وردناه من مياه تلك الصحراء كان يعرف بالحساء وهو ماء عذب زلال، حوله أسس وأطلال، تنبئ عن استصعاب أبد، واقتراب من عهد لبد، فبتنا فيه ليلتنا واروينا فيه غلتنا، وسرنا صباحا نجد السير، ونسرع إسراع الطير، لا تستقر بنا حرارة منزل، ولا نبئت بحمى إلا والكرى عنا بمعزل، إلى ان وردناه ماء مغان وهو ماء كثير عذب نير، فبتنا به وقد عزمنا على الرحلة وأتينا صدقاتنا نخلة، ثم سرنا في قفر صفر، واقتحمنا صدر فلاة تروع كل سعادة:

ومهامه كالبحر لا أثرا فيها لمفتقر ولا سنن

لو سار فيها النجم ضل بها حيران لا شام ولا يمن

إلى أن وصلنا إلى تبوك التي غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلدها اليوم خراب، وعلى كل جدار غراب، فوردنا البير المبارك التي فاضت ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحنا بتزولها وسرحنا في ظل نخيلها ثم سرنا في مهامه تجمع بين النفس والجزع، وتتصيد عنقاء البسالة في شرك الفزع، إلى أن وصلنا إلى العلا بعد مدى بعيد، وعناء شديد، وهي بليدة ذات منظر جميل، كثير المياه والنخيل، وبينها وبين تبوك مسيرة ثمانية أيام، فمارا وليلا وهي مسافة لها مهابة ومخافة، تتعب فيها الركاب، وتفقد الرفقاء والصحاب: وتكابد الخطوب الصعاب، وقديما ضربت العامة بما مثلا فقالت: ترك أبوك بين العلا وتبوك، ثم رحلنا إلى العلا صباحا، وسرنا غدوا ورواحا، إلى أن وردنا بيرا يقال لها "بير الناقة" بقرب الموضع المعروف بمبرك الناقة. ويعنون بالناقة هاهنا ناقة النبي صالح صلى الله عليه وسلم فوافينا بجهد عظيم وعطش عميم، وهجير كأنما أرسل من نار الجحيم، فبتنا بها ثم أدلجنا منها، وتبلج الفجر ونحن نسير في مدن النبي صالح عليه السلام، فعانيت منها عجبا، بيوتا منحوتة من الصخر، ومجالس مكونة من الجبال لا تفنى إلى آخر الدهر، وغرفا معلقة في الهواء مأوى للنسر، وقصورا مقصورة على الوحوش والطير، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأدرك الناس العبر، وعابنوا منظرا لا تشرحه عبارة الخبرة، لا يخبر عنه إلا منظره، ولا يشفى من حديثه إلا محضره، وما عدا ذلك فنجم من سماء، ونقطة من ماء:

وحقف الثماد القليل بحار

كما قابل الزند بركان نار

ولم نزل نسير، وقد جد المسير وحى المهجير، وعدم الماء، وتحكم العناء، وعم العطش والإعياء وكاد أن يستولي علينا الفناء:

وراحة قلبي ذلك الألم

ولذة جسمي ذلك الضنى

ولم نزل الحال كذلك حتى وردنا ماء هديه فأغشنا به غلل الأكباد، وعادت الأرواح للأجساد، ولما شارفنا أرض هدية، تفاءلنا بأن تكون لنا هدية، وقصد عربان الفلا أن يتخذونا كاسمها ويجعلونا في الدروس كرسمها، فضربوا على ذنب الركب في راس المضيق، وأذاقوه دون برد الماء بأطراف الأسنة عذاب الحريق، فأنبرى من الركب من صرفهم عن تلك النية وصافحهم بيد البلية، ثم حللنا عرى السفر، وحللنا بساحة هدية الظفر، فأحدقنا بها أحداق الهدب بالعين، وأطرنا بمختلس وصالها وغربان البين، واجتلينا منها عروسا قد مد بين يديها بساط الماء، وتوجت بالهلال وقرطت بالثريا ووشيت بنجوم السماء، وبتنا تلك الليلة مسرورين بالقرب مستبشرين، حامدين الله تعالى شاكرين مرتقبين لوشك الرحيل منتظرين:

طال الوقوف برسم الدار يا حادي فمّن عسى خبر من جانب الوادي

عرج بمنعرج الوادي لعل به منهم شفاء لقلب الهائم الصادي

ثم ارتحلنا صباحا، وسرنا نتلقى نجحا، ولم نزل نفري الفلا ونجذب البرا، ونجد السير ونؤثر السرى، حتى
بدت أعلام وادي القرى فدنا الأنس، وانشرحت النفس، ونسخ باليوم الأمس، كلما قيل غدا تدنو الدار،
ويقرب المزار طربت على السماع، وترقبت الملتقى من ثبات الوداع، وكفكت العبرات، وتمثلت بهذه
الآيات:

قالوا غدا تدنو فوا حسرنا لو كان بالعمر غدا يشتري

اسمع بالقرب ولكنني لا تنطفي ناري حتى أرى

يا ليلة قد بقيت هل ترى احمد في صبح رجالك السرى

وحين وصلنا إلى ثنية "المدينة النبوية الكريمة" علما ان لمشاركة اسمها استحققت الثنايا القبل، ولما انجلت عنه
من بارقة اللقاء اتصف بها الاشتراك واتصل، فشاهدنا نورا خالف العادة إشراقه، وعز على ضوء النسرين
لحاقه عرفته البصائر قبل الأبصار وأنكرته النواظر لعلو جوهر نزره على الأنوار، ففسحت لطرف طرفي في
ذلك الأفق مجالا، وأرسلت دمعي سجالا ونظمت ارتجالا:

الله أكبر حبذا إكباره لاح الهدى وبدت لنا أنواره

لاحت معالم يثرب وربو عها مثنوى الرسول وداره وقراره

هذا النخيل وطيبة ومحمد خير الوري طرا وها أنا جاره

هذا المصلى والبقيع وها هنا ربع الحبيب وهذه آثاره

هذه منازل المقدسة التي جبريل ردد بينها تكراره

هذه مواضع مهبط الوحي الذي تشفى الصدور من العمى اسطاره

هذه مواطئ خير من وطئ الثرى وعلا على السبع العلا استقراره

ملا الوجود حقيقة إشراقه فأضاء منه ليله ونهاره

والروضة الفيحاء هب نسيمها والبان بان ونم منه عراره

وتعطرت سلع فصل عن طيبها لم لا تطيب وحولها مختاره

بشرك يا قلبي فقد نلت المنى وبلغت ما تهوى وما تختاره

قد أمكن الوصل الذي أملتة
 قد كان عندي لوعة قبل اللقاء
 رفقا قليلا يا دموعي أقصري
 قد كانت العين الكريمة في غنى
 أضيع من زار الحبيب وقد درى
 أخيب من قصد الكريم وعنده
 أيوم بابك مستقيل عاثر
 حاشا وكلا أن تخيب آملا
 يا سيد الإرسال ظهري منقل
 رحماك فيمن أوبقته ذنوبه
 ليس الصغار وقد تعاظم وزره
 شط المزار ولا قرار وشدما
 وافي حماك يفر من زلاته
 وأتاك يلتمس الشفاعة والرجا
 والعبد معتذر ذليل خاضع
 متسول قد أغرقته دموعه
 قدفت به في غربة أوطانه
 فأمنن وسامح واعف وأصحف
 واغتفر
 صلى عليك الله ما حيا الحيا
 روض الربا وترنمت أطيّاره

ثم تحدرنا من الهضاب، وقدفتنا بطون الأودية من أفواه الشعاب ولاحت لنا الأنوار النبوية من تلك القباب
 وشرفنا الجباه بوطء ذلك التراب:

ولما رأينا ربع من لم يدع لنا
 نزلنا على الاكوار نمشي كرامة
 فؤادا لتذكّار الديار ولالبا
 لمن بان عنه ان نلم به ركبا

ومن آداب الزيارة إذا أشرف الزائر على المدينة أو على البيت أن يترجل ولما قدم الجوهري المدينة ترجل وجعل يقول:

قمر تقطع دونه الأوهام

رفع الحجاب لنا فلاح لناظري

فظهرهن على الرجال حرام

وإذا المطى بنا بلغن محمدا

فلها علينا حرمة وذمام

قربتنا من خير من وطئ الثرا

ومشى حتى بلغ إلى المسجد وهو ينشد:

ما احتباس الدموع في الاماق

هذه دراهم وأنت محب

فهي تدعى مصارع العشاق

والمغاني للصب فيها معان

وأهجر الصبر وأقضى حق الفراق

حل عقد الدموع وأحلل رباها

ووصلنا إلى المدينة النبوية، المقدسة الشريفة المخصوصة بالصفحة الزهراء والتربة البيضاء، والبقعة المشرفة بمجد صلى الله عليه وسلم سيد الانبياء صلى اله عليه وسلم صلاة تتصل مع الأحياء والأبناء، فزلنا بها من ضحى يوم الخميس التاسع عشر لذي القعدة من العام المذكور ثم ابتدرنا إلى الحرم الشريف، والكرم قد فتح الباب ورفع الحجاب وملا بالبر الرحاب، فاستعظمتنا الأقدام على المقام، وعجزنا عن أداء ما يجب من السلام فعبرت العبرات عن الكلام ووقفنا بين يدي ساكنه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فيا لها تحية أرق من النسيم إذا سرى وسلاما أندى على الأكباد من قطر الندى، والذي في الأجفان من سنة الكرى، وحين فزت بهذه النعمة فوزا عظيما، ودخلت مع تلك الفوحة مدخلا كريما، وثبت بعد الاستغفار بالتربة والرحمة لقوله تعالى ولو أنهم ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله ثوبا رحيمًا، وأخذت في تلاوة القرآن المنزل عليه في حضرته ومثلت نفسي جالسا بين يديه الكريمة أعرض عليه درسي بعد استيذانه ومشورته، ثم ختمت الختمة بالدعاء، وأضرمت نيران الأشواق بماء البكاء، وهنأت نفسي ببلوغ المنى وزوال العناء:

ومتعت طرفي بالحبيب ومسمعي

وعفرت خدي في شدا ذلك الثرى

ثم أقبلت على ذلك الحرم الشريف. والمسجد الرفيع المنير، أتأمل محاسنه، وأتخيل فيه بين أصحابه الأبرار ساكنه، فمن أبدع ما رايت وأبرعه قصيدة فريدة كتبت بالخط المذهب الرائق البديع، وأثبتت في ألوان الأذهان التي تحجل زهر الربيع ورفعت أمام المقدسة في سقف المسجد الشريف الرفيع فنحلت القراطيس لؤلؤها، ونقلت كل ما كان قبلها وبعدها، وهاهي تسفر عن غرقها الواضحة، وتعبق عن نسمتها النافحة،

وتشهد لناظمها بالقريحة الراجحة والعقيدة الصالحة: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم،

| | |
|-----------------------------------|--------------------------------|
| عليك رسول الله يا منزل الهدى | سلام كنشر الورد من مسقط النداء |
| أنيسا بزوراء الرسول ممجدا | ويا مهبط الأملاك والوحي لم تزل |
| بنفسي وان كانت أقل من الفدا | ويا تربة المختار أفديك تربة |
| لك الفخر في حاليتك بيتا ومشهدا | ويا بيته حيا ومثواه ميتا |
| مهادا من الفردوس فيك ممهدا | تضمنت أعضاء الرسول مبعوا |
| وصلى على من حل فيك موسدا | سقى الله منك الترب أفضل ما سقى |
| ويا مسجد الأبرار شرفت مسجدا | فيا منزل الأبرار حييت منزلا |
| بأرجائك انبثوا ركوعا وسجدا | كأنى أرى صحب النبي محمد |
| تطوف بها الأملاك مثتى ومفردا | ففيك بدت من جنة الخلد روضة |
| أخص به خير الامام محمدا | سلام من الرحمن يذكو أريجه |
| على روحه ما راح ساع وما غدا | سلام ورضوان وروح ورحمة |
| وأشرف خلق الله نفسا ومحتدا | فيا خير أهل الأرض بيتا وعنصرا |
| وأطيبهم خيما وأطيب مولدا | وأوسعهم خلقا وأزكى خلائقا |
| وأطولهم طولا وأعظم سؤدا | ويا صفوة الرحمن من خير خلقه |
| وان رسول الله حقا محمدا | شهدت بأن الله لا رب غيره |
| إلى خلقه وأختارك الله سيدا | وأشهد أن الله أهداك رحمة |
| ويا خير من بالمعجزات تفردا | فصلى عليك الله يا خير مرسل |
| وما ناح طير في الغصون مغردا | وصلى عليك الله ما لاح بارق |
| بنورهم يأت من قد تزهدا | وصلى على الأبرار أهلك أنهم |
| وركب فيهم كل خير وأوجدا | هم القوم عنهم اذهب الرجس كله |
| نجوم بها ينجو غدا من بها اهتدى | وصلى على أصحابك الغر إنهم |
| على المصطفى المختار ما اتصل المدى | صلاة الاهي والسلام مضاعف |

أهم آدم العز والتمكين والنصر والفتح المبين لعبدك المسكين، الذي أوليته أمور المسلمين واختترته على كثير من العالمين السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، وأبو المعالي محمد قسم أمير المؤمنين سلطان الإسلام والمسلمين، قاتل الكفرة والمشركين، قاهر الفجرة والمتمردين، حامي حوزة الدين، سلطان الديار المصرية والعراقية، والبلاد الشامية، ملك البحرين خادماً الحرمين الشريفين، ولد السلطان المرحوم، الملك المنصور، سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى أدام الله أيامه، ونشر في الخافقين رايته وأعلامه، وجعل السعد والإقبال حيثما توجد أمامه، وكان ابتداء العمل في شهر ربيع الأول، وانتهأؤه في جمادى مستهل الأخير سنة إحدى وسبعمائة للهجرة النبوية انتهى. والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبليّة من المسجد الشريف مما يلي الشرق، ولها خمسة أركان خمسة صفحات وشكلها عجيب، لا يكاد يتأتى تصويره لأحد ولا تمثيله، والصفحات الأربعة محرفة من القبلة تحريفاً بديعاً لا يتأتى لأحد استقبالها في صلاته، لأنه ينحرف عن القبلة وقيل أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اخترع في تدبير بنائها مخافة أن يتخذها الناس مصلى، وفي الصفحة الغربية منها صندوق من أبنوس محتم بالصندل مصفح بالفضة مكوكب بها هو قبالة رأس النبي صلى الله عليه وسلم، وطوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة وارتفاعه أربعة أشبار، وفي الصفحة القبليّة أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام عليه صلى الله عليه وسلم وإلى قدميه رأس أبي بكر الصديق رضي الله عنه ورأس عمر الفاروق رضي الله عنه مما يلي كتفي أبي بكر رضي الله عنه فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم ثم ينصرف إلى وجه أبي بكر، ثم إلى وجه عمر رضي الله عنهما، وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلاً معلقة من الفضة، وفيها اثنان من الذهب وتوقد كل ليلة مع غيرها من الشمع العظيم العجيب، فجميع سعة الروضة المباركة من جميع جهاتها مائة شبر واثنان وسبعون شبراً، مؤزرة بالرخام البديع النحت، الراق النعت وينتهي منها إلى نحو الثلث وإلى حيز الرخام تنتهي الأستار من الديباج وهي لا زوردية اللون مختمة بخواتم بيض مثمّنة ومربعة، ومنظرها منظر رائق بديع الشكل، والجدار المكرم قد علاه تضميخ المسلك والطيب متراكما عليه على طول الأزمنة وتعاقب الأيام، والذي يعلو مع علو الجدار شبائيك عود متصلة بالسّمك الأعلى لأن أعلى الروضة المقدسة متصل بسّمك الجدار الشريف، وبين الروضة المقدسة والشبائيك المباركة مدى واسع، وللشبائيك أبواب مكتوبة على كل باب منها ما نصّه "بسم الله الرحمن الرحيم خدّم بهذه الدار بزيّنة للحرم الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبّر الصالحى، قسيم أمير المؤمنين في سنة ثمان وستين وستمائة، وفي جوف الروضة المقدسة حوض صغير مرخّم في قبلته شكل محراب قيل انه كان بيت فاطمة رضي الله عنها وقيل أنه قبرها

والله أعلم، وعن يمين الروضة المقدسة المنبر المبارك الذي قصر الصانعون عن صنعته ونبت الافهام عن مرام شبهه فقام في أدق نعمة، وأوضح رقم من رفيع الأبنوس ونفيس الصندل الأحمر والأصفر والبقس واللبيق والبقم والشوحط والقيقب بأحكم تصنيف وأبدع تركيب وما بينهما الروضة التي جاء فيها الحديث أنها من رياض الجنة فتزاحم الناس فيها للصلاة وحق لهم ذلك وبازاء الجهة القبيلة عود يقال أنه مطبق على بقية الجدد الذي حن للنبي صلى الله عليه وسلم وقطعة منه في وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويتبركون بلمسها ومسح حدودهم فيها، وطول المسجد الكريم مائة وست وتسعون خطوة وسعته مائة وست وعشرون خطوة وهو بالذراع ثلاثمائة ذراع طولاً ومائتان عرضاً وتكسيه من المراجع المغربية أربعة وعشرون مرجعاً، وعدد سواريه ثمانمائة وتحفة من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ووسطه كله مفروش بالحصى والرمل وفي صحنه قبة بيضاء كبيرة أمامها خمس عشرة نخلة نصف جدار القبة الأسفل رخام موضوع أزار على أزار مختلف الصنعة واللون مجزع أبدع تجزيع، والنصف الأعلى من الجدار متزل كله بالذهب قد أنتج الصناع فيه نتائج غريبة من الصنعة فيها تصاوير أشجار مختلفات الصنعة ماثلات الأغصان فيه بثمرها، والمسجد المكرم كله على تلك الضفة لكن الصنعة في جدار القبلة أحفل والاحتفال في هذا المسجد المبارك أكثر من ان يأتي عليه الوصف وللمسجد الكريم أربعة أبواب كبار هي المفتوحة الآن في الغرب منها اثنان يسمى أحدها باب الرحمة والثاني باب الحشية وفي الشرق واثنان يعرف الواحد بباب جبريل عليه السلام، والثاني بباب الرخاء، ويقابل باب الرحمة مدرسة لم أر أحسن بناء منها ولا أبدع صنعة، ويقابل باب جبريل باب عثمان رضي الله عنه وهي التي استشهد بها وبازاء المقصورة لجهة الشرق خزانتان كبيرتان تحتوي على كتب ومصاحف موقفة على المسجد المبارك، ويخارجه لجهة الشرق دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبازائها دار عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودار ابنه عبد الله رضي الله عنه، وللحرم الشريف أربع صوامع في الأربعة الجوانب، وبظاهر المدينة الكريمة من جهة القبلة على ميلين اثنين منها مسجد قباء وهو مسجد حسن عدل التبريع مستوى الطول والعرض، ظاهر البركة كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتيه راكباً وماشيّاً، وروى الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الصلاة في مسجد قباء كعمرة، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من توضع فأحسن وضوءه ثم جاء مسجد قباء فركع فيه أربعة ركعات كان ذلك كعمرة على عمرة وفي وسطه مبارك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وعليه شبه روضة صغيرة يتبرك الناس بالصلاة فيه وفي صحته مما يلي القبلة شبه محراب على مصطبة هو موضع ركوع النبي صلى الله عليه وسلم وبأعلى الخراب مكتوب ما نصه بسم الله الرحمن الرحيم لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه، فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين، هذا مقام النبي صلى الله عليه وسلم جدد هذا المسجد في

تاريخ سنة إحدى وسبعين وستمائة وطول المسجد مائة وعشرون خطوة وعرضه كذلك وله باب واحد من جهة المغرب ومئذنته عالية جدا بيضاء تظهر على بعد، وأمام بابه بئر كبيرة عذبة معينة، يأتي الماء منها إلى المدينة، وفي قبلة المسجد دار أبي أيوب الأنصاري ويلى دار أبي أيوب وهي دار بني النجار دار عائشة وبازائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبي بكر رضي الله عنهم، وقباء كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة والطريق أليها بين دائق النخيل المتصلة والنخيل يحدق بالمدينة وجهاتها كلها، وأعظمها نخلاً جهة القبلة وجهة الشرق وعند قفولنا من قباء. أتينا مسجد الفتح الذي أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم فيه صورة الفتح فتركنا برؤيته وشفعنا ما شاء الله في بقعته، وبظاهر المدينة الكريمة من جهة الجوف على مقدار ثلاثة أميال منها جبل أحد وبه مشهد حمزة رضي الله عنه ومشاهد الشهداء بازائه وفي طريق أحد، مسجد علي رضي الله عنه ومسجد سليمان الفارسي رضي الله عنه، وبخارج المدينة الكبيرة من جهة الشرق بقيع الغرقد فأول ما يلقي الخارج من باب البقيع على يساره مشهد صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم أم الزبير بن العوام رضي الله عنهما وأمامه قبر مالك بن أنس رضي الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وأمامه قبر السلالة الطاهرة النبوية إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم وعليه قبة بيضاء وبقربه عقيل بن أبي طالب وعبد الله بن أبي جعفر الطيار رضي الله عنهم، وبأزائهم روضة فيها أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم بأزائهم روضة صغيرة فيها ثلاث من بنات النبي صلى الله عليه وسلم تليها روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن علي ورأس الحسن إلى رجلي العباس رضي الله عنهما وهي قبة كبيرة مرتفعة في الهواء والقبران مرتفعان عن الأرض متسعان مغشبان بألواح ملصقة أبدع إلصاق مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمسامير على أبدع صفة وأجمل منظر وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم بن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد ذي النورين رضي الله عنه، وعليه قبة كبيرة مختصرة عالية وعلى مقربة منه مشهد فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وعلى القبر مكتوب ما ضم قبر أم أحد كفاطمة بنت أسد رضي الله عنهما وعن بنيتها ومشاهد هذا البقيع المكرم أكثر من أن تحصى لأنه مدفن الجمهور من الصحابة المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من مات في أحد الحرمين حاجاً أو معتمراً بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب وفي طريق آخر بعث من الأمين يوم القيامة وعن ابن عمر عنه عليه السلام من استطاع أن يمت بالمدينة فليمت بها فإنني أشفع لمن يموت بها وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من جاءني زائراً لا يهيمه إلا زيارتي كان حقاً على الله سبحانه أن أكون له شفيعاً، وروى عنه صلى الله عليه وسلم من زارني بعد وفاتي فكأنه زارني في حياتي. وفي كتاب الشفاء لأبن سبع رحمه الله أن بعض العلماء قال ومما خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من

الآيات الظاهرة والعلامات الزاهرة الشعاع الذي يرى فوق المدينة كالإكليل يتطاير من موضع لا يخفى على من يتأمله وهذه كرامة أفرد بها المدينة دون سائر البلدان. وللمدينة المكرمة أربعة أبواب وهي تحت سورين في كل سور باب يقابله باب آخر الواحد منها حديد كله ويعرف بباب الحديد ويليه باب الشريفة ثم باب القبلة ثم باب البقيع المذكور، وقبل سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة هو الخندق الشهير الذكر الذي صنعه النبي صلى الله عليه وسلم عند تحزب الأحزاب وبينه وبين المدينة المكرمة عن يمين الطريق العين المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم وعليها خلق عظيم وبنيان مستدير ومنيع العين وسطه كأنه الحوض المستطيل، وتحت سقائتان مستطيلتان باستطالة الخلق، فقد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض المذكور جدار، فحصل الحوض محققا بجدارين وهو يمد السقايتين المذكورتين ويهبط إليهما على أدراج عددها خمسة وعشرون درجا وماء هذه العين المباركة يعم أهل الأرض فضلا عن أهل المدينة، وللمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد يهبط إليها على أدراج وماءها معين وهو بمقربة من الحرم الكريم، والمدينة المكرمة في مستو من الأرض شريف نزيه وسماها عليه السلام طيبة لأن من توجه نحوها يجد رائحة طيبة على مسيرة أميال، والمدينة المكرمة متسعة الأرجاء مشرقة الأنحاء طيبة الهواء كثيرة النخيل والماء ممتدة التخطيط والاستواء حسنة الترتيب والبناء لم أر قط ولم أتنشق عائق من ربها ولا أعقب من صباحها ولا أمرع من روضها، ولا أمرح من أرضها ولا أصفى من جوها ولا أضوأ من ضوئها، ولا اشرق من نورها وأفتن من زهرها ولا ارق حاشية من أديمها ولا ألصق بنياط القلب من أرجحها ونسيمها.

أحب الحما لأجل من سكن الحما ومن أجل من فيها تحب المنازل

ولم أزل أألم ذلك الحرم الشريف مساء وصباحا وأتعم في روضته الجنة غدوا ورواحا، وأرسل دمع اللقاء مدرارا، وأناجي الحبيب ليلا ونهارا، فتهب نفحات القبول من ذلك الجناب، وتنفع أرواح الرحمة فأجلى المحبوب من وراء حجاب، ويزدحم الناس على الروضة المقدسة فتتلقاهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، وفي كل ليلة تتجدد لها من اللطائف والتحف، والطرائف والزلف، ما تقصر الألسن من نعتها، وما نرى من آية إلا وهي أكبر من أختها، وقد أثبت جميع ما سمعت، وجميع ما لقيت من ذلك الحرم النبوي الشريف في برنامج روايتي. وأكبر من لقيت به وأفضلهم وأعلمهم بالله تعالى وأزهدهم وأكملهم الشيخ الإمام الأوحد، ولي الله تعالى أبو محمد بن أسعد بن علي اليافعي، اليميني الشافعي، رضي الله عنه هو أجل العلماء العابدين وأفضل الأولياء الزاهدين، وأحفل الأدباء البلغاء الماجدين أثر الفقر عن الغنى، واختار الآخرة على الدنيا وتبدل من الجياد، بالوهاد، واعتاض من اللدونة بالخشونة فقطع العلائق، وهجر

الخلائق، ورأى الدنيا ساعة فجعلها طاعة، وثمر للعبادة كل التشمير وبالغ في الزهادة حتى ما أبقى من فتيل ولا قطمير، فخرج من موطنه إلى بلاد اليمن سائحا وانقطع لعبادة مولاه شابا صالحا، مفارقا للامرة، وهاجر دياره إلى دار الهجرة، فاشتهر علما وعقلا، واشتغل بالحق عن الخلق وكفى بالعبادة شغلا، واستنفذ في طاعة مولاه الجهد، واستشهد في دنياه الجهد، وآثر الرغبة عنا والزهد، وتسوغ صابها كما يتسوغ الشهد، وأطال في حنادسها السهد، وواصل الصيام والقيام حتى أفنى العظم والجلد، ولقد عاينته وقد الصق بالأرض الخد وأرسل دموعه حتى سقت الثرى والنجد، وعلا صياحه متأوها باكيا حتى كاد أن يبكي الحجر الصلد. فيرحمه من شاهدوه قد فني ويرتجي له الخلد. فاستقر بالحرم النبوي الشريف وقر في ذلك الجنات العالي المنيف، وقسم مجاورته الكريمة. بين الحرمين الشريفين مكة والمدينة فتارة يكون في جوار بيت الله، وتارة يسكن في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وشرف وكرم. لم يزل على ذلك من سنين، فله من الحجج ما ينيف، على الخمسين، ما ملك زيادة على ستر عورته ولا علم أحد من أين يأتيه سد جوعته، وقد رفع العلم قدره، واحتقرت العين طمره، ولو أقسم على الله لأبره:

رب ذي طمرين نضو
لا يرى إلا غنيا
ثم لو أقسم في شيء
على الله أبره
يأمن العالم شره
وهو لا يملك ذره

لقيته بالحرم النبوي الشريف فسمعت منه، ورويت عنه، وظهرت لي بركة لقائه، وإجابة دعائه. نفعنا الله به وبأوليائه وسمعت من لفظه كثيرا من تأليفه الذي سماه كتاب الإرشاد والتطريز. في فضل ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز، وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين، وهو تأليف بديع السلك، وأجازه لي وأذن لي في روايته عنه وأجازني إجازة تامة وأنشدني منه قصائد عديدة لنفسه، من ذلك قصيدة طويلة أحسن فيها ما شاء وأجاد وأولها.

قفي حديثنا من حديث الأحبة
وقد سكروا من كأس راح المحبة
وأقمار حسن قد تجلت ليجتلوا
عرائس أنوار عن الوصف جلّت
ومن ذلك قصيدته التي أولها:

تركت هوى ليلي وسعدي بمعزل
ونادت بي الأشواق مهلا فهذه
وأنشدني لنجم الدين الاصبهاني:

وقد أوطأت نعلي كل أرض
وقد أتعبت نفسي باغتراب

وقد طوفت في الأفاق حتى

رضيت من الغنيمة بالإياب

ومن أعظمهم رياسة، وأكرمهم سيادة وسياسة، الشيخ العالم الرئيس جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الخزجي المصري السعدي العبادي رضي الله عنه ذو المجادة والأصالة، والسيادة الماثورة والجزالة، والحفظ لرسوم العلم والجلالة، الذي علم بالوفد، وشهد بالرفد، وتبوأ بمجوحة الجحد، وسار سيرة الصلحاء الأخيار وورث الأعمال البرة من أسلافه، وتقليل ذروة العز المكينة، وأشير إليه بالسمت والعدالة والسكينة، كبير الرؤساء، وأثير الكرماء، وعارض النعماء، وفاضل العلماء وكامل السؤدد والعلاء، عكف على إسماع الحديث وإقامة السنة، لقضاء أوطار أهل الاوطار، لا واهي المهمة ولا ضعيف المنه، لقي الصدور الأكابر، فوعى صدره علما كبيرا وسقى زلال الحكمة فأحيا الله به إنعاما وإناسى كثيرة.

جزته جوازي الخير عنهم فانه

سقاهم بشؤبوب من العدل ساجم

فقد سار فيهم سيرة لم يسر بها

من الناس إلا مثل كعب وحاتم

لقيته بالحرم النبوي الشريف تجاه الروضة المقدسة، فسمعت عليه كثيرا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الأربعين حديثا التي خرجها له الإمام الحافظ علم الدين البرزالي الدمشقي في كتاب الزيارة لأبي اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر، وحدثني بها عن أبي اليمن بن عساكر المذكور سمعا عليه، وأجازنيها مع جميع ما يحمله ويرويه إجازة تامة مطلقة عامة، ومولده في سنة ست وسبعين وستمائة وما برحت في ذلك الحرم النبوي الشريف في بلوغ سول، ومجاورة أكرم نبي، وافضل رسول، إلى أن وصلت الركبان الشامية التي كنا خلفنا خلفنا، فخرجنا بأثر وصولهم، وهبت علينا نفحات القبول والتكرم، والشوق في كل ذلك مكنتف ولا دمع إلا منذرف، ولا قلب إلا محتطف.

ولولا الترجي للمحبين لم تكن

قلوبهم يوم النوى تعمر الدرا

وكان خروجنا من المدينة الكريمة في ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين لذي القعدة المذكورة وسرنا نكفكف أمطار الدموع، ونخلف المدينة الكريمة بالطرف الرامق والقلب الولوع، وقلبي يتوقف ويتخوف على اللحاق، ويتخلف عن الرفاق من فرق الفراق، بعد فرح التلاق فصارعت مرامه وأنشدت أمامه:

الله أي هوى برامه

حيث القلوب المستهامه

لم يبق قلب في الحمى

إلا وقد أعطى زمامه

بالله يا حادي القلوب

إذا رجعت مع السلامة

فاخذع فؤادي عله

يرعى لمنزله ذمامه

حتى انتهينا إلى ذي الحليفة وهي على خمسة أميال من المدينة أحرم من هناك أكثر الناس بالحج مفردين، وقارين ومتمتعين فأحرمت منها بحجة مفرد، ومنها أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها هو حرم المدينة الكريمة إلى مشهد حمزة رضي الله عنه إلى "قبا" ثم سرنا ملبين راغبين لله تعالى مبتهلين، ولم نزل نسير في تلك الأودية وهجيرها يلفح. وزفيرها لا يكف عنا ولا يصفح إلى أن وافينا وادي الصفراء فزلنا على نعيمه الذي به حييت الذماء، وإن هو إلا الاسودان التمر والماء، وسرنا إلى أن نزلنا بدور وهناك يجتمع من مصر والشام الطريقان، ويتألف منهما الفريقان. وبمزلنا ذلك اجتمعنا مع الركب المصري والحمل الآمري فروينا من عذب ذلك الماء، وزرنا مشاهد الصحابة الشهداء. ثم رحلنا إلى أن وردنا ماء "رابع" بقرب الجحفة فأحرم هنالك من كان دون إحرام. وارتحلنا محرمين إلى بلد حرام. إلى أن وصلنا "خليص" فوردنا من ماءها النмир. وتزودنا تمرورها الكثير، وارتحلنا إلى أن وصلنا إلى بطن "مرو" وقد أنسنا بدنو المرام. والافتقار من بيت الله الحرام. فأدركنا في تلك الطريق الظلال بقية المقليل، وحيمننا بين متكاثف ذلك النخيل، وسرنا إلى أن وصلنا مكة شرفها الله تعالى فدخلناها من كداء الشبة التي بأعلاها في ضحوة يوم السبت الخامس لذي الحجة من العام المذكور. والأصوات تصافح الأذان بالتلبية، والألسنة تضج بالرغبي والأدعية فياله يوماً طرز به العمر وانشرح له الصدر، ووضع فيه الوزر وأجزل الثوب والأجر. فاعظم بحرمة حرمة وأكرم بمسائه وصحبته وأعقب بكافور غدوته، وزعفران عشيته، وعنبر ليلته، وفي ذلك يقول صاحبنا نجم الدين أبو الحسن علي بن داوود بن يحيى بن كامل الحنفي الدمشقي ونظمها قبل الوصول إلى الكعبة شرفها الله تعالى.

بك يا غاية الأمانى وسهلا

ليلة الوصل بالمليحة أهلا

كدت اقضي أسى وأعدم عقلا

طال عمر الصدود دونك حتى

ظنني الناس في الشبيبة كهلا

قد أشاب الفراق رأسي حتى

لنا بعد ما بلغناك حبلا

يا ليالي الوصال لا صرم الدهر

لا نبالي في ذلك لوما وعدلا

كم بكيناك بالدموع اشتياقا

من قفار الأفكار وعرا وسهلا

وركبنا نجائب السهر نطوي

غير أن الوصال والله أحلا

ولعمري جميع ذلك حلو

زمن البعد والجفا وتخلا

يا جفوني لك الهناء تقضي

ربع مي وهذه مي تجلا

فتملئ بما تمنيت هذا

فاجعلي دمعك المصون نثارا
أترى هذه منازل مي
فهو أعلى من اللثالي وأغلا
عن يقين وهذه مي أم لا
وهل الدهر جامع لمحـب
لا تلومي على الجهالة صبا
بك يا حلوة الشـمائل شملا
لا يرى غير شغله بك شغلا
كان قبل الهوى عزيزا فلما
ذاق طعم الهوى استكان وذلا
فغدا يبصر الشقاء نعيما
ويعد الملام في الحب جهلا
طاب يا ربة الستور سقامي
عندما طاب في هواك وجلا
وأذاب البعاد جسمي نحولا
ثم زال الشقا وفزت بوصل
وبلغت المنى فلست أبالي
أقبل الدهر بعد ذا أم تولى

وحين حمدنا السرى، ووصلنا إلى أم القرى وعلمنا أننا أضياف الله فدخلنا منه بأحسن القرى وتبدت لنا
الكعبة الغراء في أستارها، وتحلت لنا المليحة في حلل أنوارها

وضعنا جباها في الثرى قد تهللت
وطفنا بها سبعا وزفت ظلالها
أساريرها منها وزاد سرورها
على خائف مثلي أتى يستجيرها
وحين وقع نظري عليها، ومثلت لديها، أنشدت مرتجلا بلسان الخضوع، وكتبت خجلا بماء الدموع.
الهي هذا البيت بيتك جنـته
فهب لي قرى فيه رضاك وأنني
وعادة رب البيت أن يكرم الضيفا
من النار خوفي فلتؤمني الخوفا

وأخذنا نطوف طواف القدوم، ونعرف ما لنا من الكرامة بموجوده على المـعدوم، وقضينا الانسـاك مهـتدين
في قضائـها، مقتـدين في شـروع أدائـها، وعدنا إلى البيت الحرام نطوف به ونستلم، وتقـبل أركانـه ونلتزم،
ونصبر عند تقبيل الحجر على الاصطدام والاضطرام، نغتفر الزحام عند الـورود على منهله والمنهل العذب
كثير الزحام، ونستزل الألفاف ونستلذ المقام بين الركن والمقام، ونشرب من ماء زمزم ما يروي الاوام،
وييري من السقام، والقلب يتشبت بأهداب تلك الخيام، ويوطن نفسه دون بقية الجسد على المقام،
والطرف يذرف دموع المذنب الخاطيء، واللسان يردد لنجم الدين مهـلل بن محمد الدميـاطي:

يروق لي منظر البيت العتيق إذا
كان حلتـه السوداء قد نسجت
بدا لطرفي في الاصباح والطفل
من حبة القلب أو من أسود المقل

والبيت المكرم له أربعة أركان، وهو قريب من التربع وذكر أن ارتفاعه في الهواء من السطح الذي يقابل الصفا وهو بين الحجر الأسود واليماني تسع وعشرون ذراعا وسائر الجوانب ثمان وعشرون بسبب انصباب السطح إلى الميزاب فأول أركانه الركن الذي فيه الحجر الأسود ومنه ابتداء الطواف ويتقهقر الطائف عنده قليلا كأنه يمس جميعه بيده والبيت المكرم عن يساره وأول ما يلقي بعده الركن العراقي وهو ناظر إلى جهة الشمال ثم الركن الشامي وهو ناظر إلى جهة المغرب ثم الركن اليماني وهو ناظر إلى حيز الجنوب ثم يعود إلى الركن الأسود وهو ناظر إلى جهة المشرق وعند ذلك يتم الطائف شوطا واحدا ومن الركن الذي فيه الحجر الأسود إلى الركن العراقي أربعة وخمسون شبرا وذلك داخل الحجر، وأما من خارجه فمنه إليه أربعون خطوة وهي مائة وعشرون شبرا ومن خارجه يكون الطواف. ومن الركن الشامي إلى الركن اليماني ما من الأسود إلى العراقي لأنه الصفح الذي يقابله ومن اليماني إلى الأسود ما من العراقي إلى الشامي داخل الحجر لأنه الصفح الذي يقابله أيضا وباب البيت المكرم في الصفح الذي بين ركن الحجر الأسود بعشرة أشبار وذلك الموضع الذي بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم وهو موضع استحباب الدعوة على ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار فالطويل يتطامن لتقبيله والقصير يتناول له والحجر الأسود مرأى بديع ورونق صقيل هو قيد الأبصار حسنا وفي وسطه مما يلي جانبه الذي على يمين المستلم له إذا وقف نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها خال في تلك الصفحة المباركة، وفي هذه الشامة البيضاء أثر أن النظر إليها يجلو البصر فيجب على المقبل أن يقصد بتقبيله من الشامة المباركة ما استطاع، وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم حتى يود اللاتم أن لا يقلع فمه عنه فهو أعذب من رضاب الكعاب، وأشهى من شم العرب الاتراب، وتلك من خواص العناية الإلهية فيه، روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنزل الحجر من الجنة أشد بياضا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم. وروى الترمذي أيضا من طريق عبد الله بن عمر أن الحجر الأسود والركن اليماني ياقوتان من الجنة ولولا ما طمس من نورها لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب، وفي رواية غيره ولا براء من أستلمها من الخرس والجذام والبرص ومن حديث ابن عباس أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجر والله ليبعثنه الله يوم القيامة به عينان يبصر بهما ولسان ينطق يشهد على من أستلمه بحق وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت طائفا مع النبي صلى الله عليه وسلم بيت الله الحرام فقلت فذاك أبي وأمي ما هذا البيت. فقال يا علي أسس الله تعالى هذا البيت في دار الدنيا كفارة لذنوب أمتي. فقله: فذاك أبي وأمي يا رسول الله ما هذا الحجر الأسود. قال: تلك جوهرة كانت في الجنة أهبطها الله إلى الدنيا لها شعاع

كشعاع الشمس فاشتد سوادها وتغير لونها مما مسها من أيدي المشركين.
وفي حديث آخر قال دحيت الأرض من مكة وأول من طاف بالبيت الملائكة وما من نبي هرب من قرية إلا هرب إلا الله بمكة يعبد به حتى يموت وأن قبر نوح وهود وصالح وشعيب وإسماعيل فيما بين زمزم والمقام.

وفي حديث آخر أن حول الكعبة من قبور الأنبياء ثلاثمائة قبر نبي وإن ما بين الركن اليماني والركن الأسود لقبور سبعين نبيا.
وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الركن يمين الله في الأرض يصفح بها عباده كما يصفح أحدكم أخاه وإن الركن والمقام يأتيان يوم القيامة كل واحد منهما مثل أبي قبيس لهما عينان وشفقتان يشهدان لمن وافاهما بالوفاء.
وروى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أتيت الركن اليماني قط إلا وجدت جبريل عنده قائما يقول يا محمد أستلم.

وفي حديث آخر أنه قال ما أتيت الركن اليماني قط إلا وجدت عنده جبريل عليه السلام قائما يقول يا محمد استلم، وفي حديث آخر أنه قال ما أتيت الركن اليماني قط إلا وجدت عنده جبريل وهو يقول يا واحد يا ماجد لا تسلبني نعمة أنعمت بها علي، وفي حديث ابن عباس قال وقف جبريل عليه السلام وعليه عصا خضراء قد علاها الغبار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا الغبار الذي علا عصابتك أيها الروح الأمين قال إن الملائكة أمروا بزيارة هذا البيت فازدحمت على الركن فهذا الغبار الذي ترى ما تشيرون الملائكة بأجنحتها.

وروي أن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله عز وجل يتزل كل يوم ليلة عشرين ومائة رحمة على هذا البيت ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين. "والباب الكريم" مرتفع من الأرض بأحد عشر شبرا أو نصف وهو من فصاة مذهبة الصنعة رائق الصفة يستوقف الأبصار حسنا وخشوعا للمهابة التي كسا الله بيته وعضادته كذلك والعتبة العليا كذلك وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز في سعته مقدار شبرين وللباب نقرة فضة كبيرة تان يتعلق عليها قفل الباب وهو ناظر للشرق وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وغلظ الحائط الذي ينطوي عليه الباب خمسة أشبار وداخل البيت المكرم مفروش بالرخام المجزع وحياطنه كلها رخام مجزع قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة الطول متوسطة فيه وبين الأعمدة أقواس من الفضة عددها ثلاثة عشر، واحدها من ذهب خالص وظاهر البيت كله من الأربعة الجوانب مكسو ستورا من الحرير الأكحل وفي أعلاها رسم بالحرير

الأبيض فيه مكتوب: "أن أول بيت وضع للناس الذي ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين"، واسم الخليفة الإمام وفي سعته قدر ثلاثة أذرع يطيف بها كلها قد شكل في هذه الستور من الصنعة الغريبة أشكال محاريب رائقة ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى وبالنداء للإمام العباسي الأمر بإقامتها وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترا، وقد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الجوانب الأربعة محيطة الأعلى والأسفل وثيقة العرى والأزرار لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تحديدها، فسبحان من خلد لهذا البيت الكريم الشرف إلى يوم القيامة "والبيت العتيق" مبني بالحجارة الكبار الصم قد رص بعضها على بعض وألصقت بالعقد الوثيق إصاقا لا تحيله الأيام ولا تفصمه الأزمان وله خمسة مضاو عليها زجاج عراقي بديع النقش وفيه باب يسمى باب الرحمة يصعد منه إلى سطح البيت الكريم داخله الأدراج ولمعانة البيت الكريم هول يشعر النفوس الدهول، ويطيش الأفئدة والعقول، فلا تبصر إلا لحظات خاشعة وعبرات هامة وألسنة إلى الله تعالى داعية ضارعة لا يمل النظر إليه ولا يسأم الطواف به، ولا يبرح التلفت له، ولا تزال القلوب مشغوفة بحبه إذا غابت عنه أبدا "هذا البيت المكرم" وهو عروس الفلك الأرضي، واقتضى النص أنه أول موضع للناس.

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بين وضعهما فقال أربعون سنة وفي الخبر أول ما خلق الله القلم وأول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام وأول جبل وضع في الأرض أبو قبيس وقيل ان وقيل ان أول من بناه في الأرض آدم عليه السلام ولما أهبط من الجنة قالت له الملائكة طف حول هذا البيت فقد طفنا به قبلك بألفين ودحيت الأرض من تحته، وقيل أول من بناه إبراهيم عليه السلام ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالة ثم هدم فبنته قريش.

وروى أبو هريرة قال: كانت الكعبة زبدة بيضاء على وجه الماء عليها ملكان يسبحان الله تعالى قبل خلق الأرض بألفي سنة وسئل علي رضي الله عنه عن أول بيت وضع في الأرض فقال له انه كان قبل هذا البيت بيوت كثيرة ولكنه أول بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة، وقد ورد في الآثار ان إبراهيم عليه السلام لما بنى الكعبة أمره الله سبحانه أن يقف على جبل من جبال الأرض وأحيا له الأولين والآخرين إلى يوم القيامة وأمره أن ينادي في الناس ان ربكم بنى بيتا فحجوه فأجابه كل من سبق القضاء بحجه وأحياهم حتى سمعوا خطابه وهو أحد الاحياء الخمسة التي يتطور فيها الآدمي وينام فيها وقيل أنه كان من موضعه بيت فرفع إلى السماء الرابعة فالملائكة تطوف به في السماوات كالبيت الذي بمكة، وقد

صح في الشريعة وتواتر أنه أحب بقاع الأرض إلى الله وإنما سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة وتقطعهم وقيل لأن الناس يتبكون فيها أي يزدحمون في أيام الحجيج وبكة ومكة اسمان على مسمى واحد وقيل مكة البلد وبكة موضوع المسجد والصحيح هو الأول والمراد من الوضع المذكور في الآية الكريمة أن الله سبحانه وضعه متعبدا للناس وقبلة لهم تنبيهها على تخصيصه وتشريفه ووصفه بالبركة ظاهر لأنه يحمل لمن حجه أو اعتمره الخير والزيادة التامة وتكفير الذنوب والآيات التي فيه هي مقام إبراهيم وأمن من دخله، وأثر القدم في الصخرة الصماء وغوصه فيها إلى الكعبين. . .

وإثباته إلى الآن مع ذهاب سائر آيات الأنبياء وحفظه مع كثرة أعدائه كما قال تعالى ويتخطف الناس من حولهم "وورد في الأثر" أنه لما أرتفع ببيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة وقام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه، ولما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قال مرحبا بك من بيت ما أعظمك وأعظم حرمتك. وفي الحديث عنه عليه السلام ما من أحد يدعو الله عند الركن الأسود إلا استجاب الله له، وكذلك عند الميزاب وعنه عليه السلام من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وحشر يوم القيامة من الآمنين، ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم الشريف كالبرج المشيد وله التزيه الأعلى، وحمام الحرام لا تحصى كثرة وهي من الأمن بحيث يضرب المثل بها ولا سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامه ولا تحل بوجهه ولا على حال فترى الحمام يتخلل على الحرم كله فإذا قربت من البيت عرجت عنه يمينا أو شمالا والطيور سواها كذلك وفي أخبار مكة أنه لا ينزل عليها طائر إلا عند مرض يصيبه فأما يموت لحينه أو يبرأ فسيحان من أورثه التشريف والتكريم، ومن آياته أيضا أن بابه الكريم يفتح في أيام معلومة والحرم قد غص بالخلق فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله عز وجل والله الآيات البينات البراهين المعجزات. سبحانه وتعالى: ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به أنه لا يخلو من الطائفتين ساعة في النهار ولا وقتا من ليل فلا تجد من يخبر أنه رءاه دون طائف به فسيحان من كرمه وعظمه، وموضوع الطواف مفروش بالرخام البديع وقد اتسع عن البيت بمقدار تسع خطى وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض، وطواف النساء في آخر الرخام المفروش، وقد جدد ترصيعه ونمق تنميكا بديعا فيه تواريخ مرسومة ومنها ما نصه "بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف سيدنا ومولانا الإمام الأعظم، المفروض الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين، بلغه الله آماله، وزين بالصالحات أعماله، وذلك في شهر وسنة إحدى وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله "والحجر" من الركن العراقي إلى الركن الشامي يقابل الصفح الذي فيه الميزاب، وفي ارتفاع جدار الحجر ستة أشبار، وسمكه أربعة أشبار ونصف وداخل الحجر مفروش بالرخام المجزع

المقطع في دور الكف إلى دور الدينار إلى ما فوق ذلك ودونه. ثم الصق بانتظام بديع وتأليف عجيب معجز الصنعة غريب الإلتقان رائع الترصيع والتجريع وفي صحن الحجر بمقربة من جدار البيت المكرم قبر إسماعيل عليه السلام، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر رضي الله عنها، والميزاب في أعلى الصفح الذي على الحجر المذكور من صفر مذهب يغطي الأبصار، وقد خرج عن صفح البيت بمقدار أربعة أذرع وسعته مقدار شبر، وهذا الموضع تحت الميزاب، وهو أيضا مظنة استجابة الدعوة "بفضل الله تعالى" وموضوع المقام الكريم وهو الذي يصلي خلفه يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقي، وعليه قبة خشب مركنة محدودة بديعة النقش، قد نصبت على الموضع الذي كان فيه المقام وبازاء المقام الكريم منبران كبيران حسنان فيهما ضروب من قطع الخشب الملون المتخير المنتقي المستجاد، والجديد منها منقش من جميع جهاته ووجوه درجه وتاجه المذهب بأبدع نقش وأحده، وصنائه مقسومة على تصنيف وتشجير منطبعة كانطباع نسيج الديباج الهاشمي واليوسفي في الاعتدال والرونق مسمر بمسامير الفضة الخالصة المذهبة، مقضب بصفائح الفضة المرفشة منقوش عليه برسم الذهب ما نصه: "مما عمل برسم الحرم الشريف في شهور سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة".

ومن فضائل البيت الشريف ما خصه الله تعالى به من بئر زمزم وما جعله الله في هذا الماء. ومن الفوائد والمنافع لكل ما شرب له فمن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء زمزم لما شرب له ومنها ما رواه ابن العباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق، ومنها ما رواه الضحاك بن مزاحم قال: بلغني ان التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق وان ماءها يذهب بالحصى والصداع وان الاطلاع فيها يجلو البصر وانه سيأتي عليها زمان تكون فيه أعذب من النيل والفرات وقبة بئر زمزم تقابل الركن الأسود، ومنها إليه أربعة وعشرون خطوة وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض "وتنور البئر" المباركة في وسطها وهو من رخام قد ألصق إلصاقا لا تحيله الأيام وقد حف به من أعمدة الرصاص الملتصقة إبلاغا في قوة لزه ورصة اثنان وثلاثون عمودا قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البئر دائرة بالتنور كله ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة أشبار ونصف وغلظة شبر ونصف وقد استدارت بداخل القبة سقاية للماء للوضوء وحولها مصطبة دائرة يرتفع الناس إليها ويتوضئون عليها وفي ماء زمزم أمر عجيب وذلك أنه إذا شرب عند خروجه من قراراته يوجد حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئا وهو لما شرب له، وإذا صب منه من يجد إعياء أو كسلا من أمر متعب للبدن وجد الراحة والنشاط عليه وبظاهر جدار القبلة المباركة مكتوب بالخط الرائق المذهب ما نصه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم من طاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين وشرب من ماء زمزم غفر الله له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت تقبل الله ممن عمل بهذا الحديث، ودعا لمن أسس هذه السنة الحسنة من هذا الحرم الشريف في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

وتلي قبله بير زمزم من ورائها قبة الشراب وهي المنسوبة للعباس رضي الله عنه لأنها كانت سقاية الحاج، وهي كذلك له لان فيها يبرد ماء زمزم وتلي هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة أخرى وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وشمع وغير ذلك والمسجد الحرام تطيفه به من جهاته الأربع ثلاث بلاطات على ثلاث سوار من الرخام منتظمة كألها بلاط واحد، ذرعها في الطول أربعمائة ذراع وفي العرض ثلاثمائة ذراع فيكون تكسيه محققا ثمانية وأربعين مرجعا وعدد سواريه الرخامية أربعمائة سارية وأربع وثمانون سارية حاشا الجبسية التي منها في دار الندوة وعند باب إبراهيم. "وللحرم الشريف" أربعة أئمة وكل واحد من الأئمة الأربعة صلاته تحت حطيم له مصنوع من الخشب البديع النجارة، فالمالكية تصلي قبالة الركن اليماني، والشافعية خلف المقام والحنفية قبالة الميزاب في البلاد الآخذ من المغرب إلى الجنوب والحنبلية تقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني في البلاط الآخذ من المغرب إلى الشمال. ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق وعلى بعد منه يسيرا مشاعيل توقد في صحاف من حديد فوق خشب مركوزة فيتقد الحرم الشريف كله نورا، وتوضع بين أيدي الأئمة في محاريبهم وللحرم الشريف سبع صوامع أربع في الأربعة الجوانب وواحد في دار الندوة، وأخرى على باب الصفا وأخرى على باب إبراهيم وللحرم الشريف نيف وأربعون لها أسماء منها باب القائد ويسمى أيضا باب الخياطين وباب العباس رضي الله عنه وباب علي رضي الله عنه وباب بني شيبه وباب الرباط وباب الندوة وباب دار المجلة وباب السدة وباب العمرة وباب إبراهيم عليه السلام وباب جزورة وباب جياذ وباب غزوة، ومن باب الصفا إلى باب الصفا ست وسبعون خطوة والصفا أربعة عشر درجا، وهو على ثلاثة أقواس مشرفة والدرجة العليا متسعة كألها مصطبة وقد أهدت به الديار وفي سعته سبع عشر خطوة، والميل سارية خضراء وهي خضرة صياغية وهي إلى ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم الشريف وفيها يرمل في السعي إلى المئين الأخضرين، وهما أيضا ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة الواحدة منهما بازاء باب علي رضي الله عنه في جدار الحرم الشريف وعن يسار الخارج من الباب والميل الآخر يقابله في جدار دار وعلى كل واحد مهما بازاء لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج المنقوش فيه برسم مذهب "ان الصفا والمرة من شعائر الله" "الآية"، وبعدها أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد المستضيئ بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره، سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

فجميع خطا الساعي من الصفا إلى المروة أربعمئة خطوة وثلاث وتسعون خطوة، وأدراج المروة خمسة وهي بقوس واحد كبير، وسعته سعة الصفا سبع عشرة خطوة والخطوة ثلاثة أقدام، وما بين الصفا والمروة "مسيل" هو اليوم سوق حافلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب والمبيعات وغيرها. ومكة شرفها الله تعالى هي بلدة قد وضعها الله تعالى بين جبال محدقة بها وهي بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة تسع من الخلائق عددا لا يحصيه إلا الله عز وجل وهي البلد المباركة التي سبقت لها ولأهلها الدعوة الخيلية الإبراهيمية، قال الله عز وجل: "أو لم حرما آمنا تجي إليه ثمرات كل شيء" فبرهان ذلك فيها ظاهر إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تهوى إليها من الأصقاع النائية، والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة والثمرات تجي إليها من كل مكان، فهي أكثر البلاد نعما وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر، ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب فيباع فيها في يوم واحد فضلا عما يتبعه من الأيام من البر إلى الدر، ومن الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار من أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعقاقير الهندية إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة إلى الأمتعة العراقية واليمانية إلى السلع الخرسانية، والبضائع المغربية، إلى ما لا ينحصر ولا ينضب، ما لو فرق على البلاد كلها لا قام لها الأسواق النافقة، وعم جميعها بالمنفعة التجارية حاشا ما يطراً بها مع طول العام من اليمن وسواها فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها وهي تغص بالنعم والفواكه

والخضر على اختلافها ولا تنقطع منها مع طول العام ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق فيفضل فيها أنواعه الموجودة في سائر البلاد فهذه بركة لا خفاء لها "ولها ثلاثة أبواب" وأولها باب المعلى ومنه يخرج إلى الجبانة المباركة وهي بالموضع الذي يعرف بالحجون وعن يسار المار إليها جبل في أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج يخرج منها إلى طريق العمرة وتلك الثنية تعرف بكداء بفتح الكاف والمدة وهي التي عني حسان بقوله "تثير النقع موعدها كداء". وعن يمينك إذا استقبلت الجبانة المذكورة مسجد في مسيل بين جبيلين يقال أنه المسجد الذي بايعت فيه الجن النبي صلى الله عليه وسلم وبهذه الجبانة المباركة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين، والأولياء والصالحين رضوان الله عليهم أجمعين ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا وقال عليه السلام الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينتشران في الجنة ووقف عليه السلام على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم يوم القيامة سبعين ألفا فيدخلون الجنة بغير حساب. يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا وجوهم كالقمر ليلة البدر. وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف وطريق العراق والصعود إلى عرفات، وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال وهو

للشرق أميل، "ثم باب المسفل" وهو إلى جهة الجنوب وعليه طريق اليمن ومنه كان دخول خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح، ثم باب الزاهر ويعرف أيضا بباب العمرة وهو غربي، وعليه طريق مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وطريق الشام وطريق جدة ومنه يتوجه إلى التنعيم وهو اقرب ميقات المعتمرين، يخرج من الحرم إليه على باب العمرة، ولذلك خصص بهذا الاسم، والتنعيم من البلد على فرسخ وهو طريق حسن فسيح فيه الآبار العذبة التي تسمى بالشبيكة، وعندما تخرج من البلد بنحو ميل تلقى مسجدا بازائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم يقال أنه الموضع الذي جلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مستريحا عند مجيئه من العمرة، فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الحدود فيه وحق لهم ذلك، وعلى جانبي الطريق من هذا الموضوع جبال أربعة جبالان من هنا وجبالان من هنا عليها أعلام من الحجارة، يقال إنها الجبال المباركة التي جعل إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير عليها، ثم دعاهن حسبما ذكر الله في كتابه، ثم بعد هذا الموضوع بمقدار غلوة تلقى على قارعة الطريق المتوجهة إلى العمرة من جهة اليسار قبرين قد علتها أكوام من الصخر العظام يقال أنهما قبر أبي لهب وامرأته فما زال الناس في القديم إلى هلم جرا يتخذون سنة رجعهما بالحجارة حتى علاهما من ذلك جبالان عظيمان، وعند اجتيازك الزاهر وهو مبنى على الطريق يحتوي على ديار وبساتين تمر بالوادي المعروف بذي طوى الذي نزل النبي صلى الله عليه وسلم عند دخول مكة، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يغتسل فيه وحينئذ يدخلها وحوها إلى آبار تعرف بالشبيكة وفيه مسجد يقال أنه فيه مسجد إبراهيم عليه السلام فتأمل بركة هذا الطريق ومجموع هذا الآثار المقدسة التي اكتنفتها ثم تجئ الوادي إلى مضيق تخرج منه إلى الأعلام التي وضعت حجزا بين الحل والحرم وما هو داخلها إلى مكة حرم وما هو خارجها حل وهي كالأبراج مصفوفة كبار وصغار، واحد بازاء آخر على مقربة منه تأخذ من أعلى جبل يعترض عن يمين الطريق في التوجه إلى العمرة وتشق الطريق إلى أعلى جبل عن يساره، ومنه ميقات المعتمرين وفيها مساجد مبنية يصلي المعتمرون فيها ويحرمون منها ومسجد عائشة رضي الله عنها خارج هذه الأعلام بمقدار غلوتين وإليه يصلي المالكيون ومنه يحرمون وأما الشافعيون فيحرمون من المساجد التي حول الأعلام المذكورة قال الشيخ محيي الدين النوري رحمه الله تعالى جاء عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال في رسالته المشهورة إلى أهل مكة ان الدعاء يستجاب هناك في خمسة عشر موضعا، في الطواف وعند الملتزم وتحت الميزاب وفي البيت وعند زمزم وعلى الصفا وعلى السعي وفي المروة وفي السعي وخلف المقام وفي عرفات وفي المزدلفة وفي منى وعند الجمرات الثلاث، وأما مشاهدها المقدسة وأثارها العظيمة فهي اكثر من أن تحصى، ومكة شرف الله تعالى كلها مشهد كريم كفاهها شرفا ما خص الله تعالى به من مثابة بيته العظيم وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم، وإنها حرم الله وأمنه

وكفاها أنها منشأ النبي صلى الله عليه وسلم الأمي الذي آثره الله بالتشريف والتكريم وبعثه بالآيات والبيانات والذكر الحكيم، فهي مبدأ نزول الوحي والتزليل ومهبط الروح الأمين جبريل. وكانت بمثابة أنبياء الله ورسله الأكرمين، وهي أيضا مسقط رؤوس جماعة الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصاييح الدين. ونجوما للمهتدين. فمن مشاهدها التي عاينها قبة الوحي وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وفيها كان أبناء النبي صلى الله عليه وسلم بها. وقبة صغيرة أيضا في الدار المذكورة.

وفيها كان مولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وهذه المواضع المقدسة مغلوقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها، وكتب بداخل القبة الأولى ما نصه "بسم الرحمن الرحيم تقرب إلى الله تعالى بعمارة هذا الموضع الشريف المنسوب إلى خديجة رضي الله عنها ومسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومهبط الوحي الكريم العبد المفتقر إلى رحمة الله تعالى، مولانا السلطان بن السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي خادم الحرمين الشريفين بلغه الله تعالى غاية آماله، وتقبل منه صالح أعماله، وذلك بتاريخ شهر صفر سنة ست وثمانين وستمئة وكتب بداخل القبة الصغيرة هذا موضع مولد فاطمة رضي الله عنها" وموضع الولادة شبه صهريج صغير وفيها محتى النبي صلى الله عليه وسلم شبيه القبة وفيه مقعد في الأرض شبيه الحفرة داخله في الجدار قليلا وقد خرج عليها من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور، قيل انه الحجر الذي غطى النبي صلى الله عليه وسلم عند اختبائه في الموضع المذكور وفي زقاق هذه الدار على مقربة منها مصطبة فيها متكأ يقصد الناس إليها، ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها لان في موضعها كان قعود النبي صلى الله عليه وسلم ومن مشاهدها الكريمة أيضا مولد النبي صلى الله عليه وسلم والتربة التي هي أول تربة مست جسمه الطاهر بني عليها مسجد لم ير أحفل بناء منه أكثره ذهب منزل وكان دارا لعبد الله بن عبد المطلب أبي النبي صلى الله عليه وسلم.

والموضع المقدس الذي سقط فيه صلى الله عليه وسلم ساعة الولادة السعيدة المباركة التي جعلها الله رحمة للناس أجمعين محفوف بالغضة كأنه صهريج صغير سطحه فضة فيا لها تربة شرفها الله تعالى بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام ومولد خير الأنام صلى الله عليه وعلى آله وأهله وأصحابه الكرام، وسلم تسليما وعليه مكتوب ما نصه: هذا ما أمر بعمله عبد الله وخليفته الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره، في سنة ست وسبعين وخمسمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله، وعلى مقربة منه أيضا يشرف عليه جبل أبي قبيس وهو في الجهة الشرقية يقابل ركن الحجر الأسود وفي أعلاه رباط مبارك فيه مسجد وعليه سطح مشرف على البلدة الشريفة ومنه يظهر حسننها وحسن

الحرم واتساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه، وهو أول جبل خلقه الله، وفيه قبر آدم عليه السلام، وفيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم عند انشقاق القمر له بقدره الله تعالى وهو أحد أحشبي مكة، والاحشبي الثاني الجبل المتصل بقيقعان في الجهة الغربية، وبسفح أبي قبيس مسجد محتفل البناء عليه مكتوب هذا المسجد، هو مولد علي ابن أبي طالب رضوان الله عليه، وفيه تربى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان دارا لأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وكافله ومن جبال مكة المشهورة بعد جبل أبي قبيس جبل حراء وهو في الشرق منها على مقدار فرسخ أو نحوه وهو جبل مبارك كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما ينتابه يتعبد في غار فيه وأول آية نزلت في القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الجبل المذكور ومن جبال فيها أثر كريم ومشهد عظيم، الجبل المعروف بابي ثور، وهو في الجهة اليمنى من مكة على مقدار فرسخ وأزيد فيه الغار الذي أوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه الصديق رضي الله عنه حسبما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز، وخص الله نبيه بآيات مبینات، ومن مشاهدها الكريمة أيضا دار الخيزران وهي الدار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله فيها سرا مع الطائفة الكريمة المباردة للإسلام من أصحابه رضي الله عنهم حتى نشر الله الإسلام منها على يد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكفى بهذه الفضيلة الكريمة، ومن مشاهدها أيضا دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهي اليوم دار سكة الأمير ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه يقال أنه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم متى أجتاز عليه وذكر أنه صلى الله عليه وسلم جاء يوما إلى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه فنادى به ولم يكن حاضرا فانطق الله عز وجل الحجر المذكور، وقال يا رسول الله ليس بحاضر، وكانت من إحدى آياته المعجزات صلى الله عليه وسلم.

ثم تلبعت لقاء العلماء والحديث واستقرت المحاورين منهم جماعة جملة يضيق هذا المجموع عنهم ويتسع برنامج روايتي لهم فهم فيه على الكمال والتمام ومن أعظمهم قدرا وأرفعهم خطرا، وأشرفهم مكانة وذكرنا الشيخ الفقيه الخطيب بالحرم الشريف وصاحب الصلاة به، فارس المنابر وإمام الأمة، ومقتدي فرق الأمة. ولى الله عز وجل أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المكي المالكي المشتهر بخليل نفع الله تعالى به أحد السبعة الابدال، ورب الماثر المبرأة عن الخلاف والجدال والموجودة في بركاته ما يحجل الغيث في الانسحاب والانسداد، والموطأة أكنافة للخاصة والعامة، فهي معتدلة الكمال، كاملة الاعتدال، فالأعناق متعلقة عليه والركبان منتالة عليه، مائلة بين يديه، سامعون لأمره متبركون بمساس طمره، معترفون بفضله متصرفون عن إذن من قوله أو فعله، وكلهم يرد من إحسانه مناهل الكرم ويروى من فضله مواقع الدسم، ويسترشد من نور عمله ما هو أوضح من نار على علم، ويقتدى بآثاره فيسلك

شغف الشوق آداب الخدم، قد انتحله مواصلة العبادة، وأكلته الأيام بشغف الزهادة فلم تبق منه إلا الرسوم على السجادة، وهو على ذلك من أصبر الخلق وأجلدهم على إلحاح السائلين، واختلاف القاصدين إليه والساكنين والتكفل بجوائج الأغنياء والفقراء والمساكين، والنظر لجميعهم في جميع أمور الدنيا والدين لقيته بحرم مكة الشريف تجاه الكعبة المعظمة وبمترله أيضا بقرب حرمه الشريف فاكترت الاختلاف إليه، وكنت ممن استفاد في مناسك حجه تفقها ومعينة بين يديه، فانتفعت به أعظم الانتفاع واستفدت بالالتزام له والأتباع، وسمعت عليه واجازني جميع ما يحمله ويرويه إجازة تامة، مطلقة عامة.

ومن أرجحهم عقلا، وأوضحهم فضلا، الشيخ العالم الفاضل أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي رضي الله عنه شيخ علم وذكاء، وشيخ حلم وذكاء حسن الشارة مستحسن الإشارة حافظ العلم محافظ على شيم الحلم عبادة موردها صفو زلال، وزهادة موعدها روض يانع وظلال، ودراية تعضدها رواية وسماع. وينعقد عليها اتفاق واجتماع وقد أثني عليه كل من أخذ عنه بما أثني، ووردت فضائله على الألسن فرادى ومثنى محامده مطلعة في روض الطرس، وأفق النقس كل زهرة وزهرة، وأسانيده مكتوبة في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة، لقيته بحرم مكة الشريف تجاه الكعبة المعظمة فسمعت عليه كثيرا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن غير ذلك وانتفعت به وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة، ومولده سنة ست وثمانية وستمائة، ثم تكاملت الركبان بمكة شرفها الله تعالى فخرجنا إلى منى يوم التروية وهو اليوم الثامن لذي حجة في أمم يرتفع لها العجاج، ويتزاحم بها الفجاج، وخلائق يغص بهم البسيط الأفيج ويضيق عنهم المهمة الصحصح، فترى الأرض تميد بهم ميدا وتموج بجمعهم موجا، فتبصر منهم بحرا طامي العباب ماؤه السراب، وسفنه الركاب وشرعها الطلائل المرفوعة والقباب، فمن لم يشاهد هذا الخروج لم يشاهد الخروج لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدث به فمن هوادج تسيل في أباطح مكة وشعابها، ومن محابر كالقباب المضروبة تسير بأربابها، والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، فتراها تتهادى تهادي العرائس في الكلل، وترفل من قلائد الذهب وأستار الديباج في الحلبي والحلل، فلا تبصر إلا سحفا، تسحب على وجه الأرض، وتشبه في وشيها وشى الروض، خلائق تملأ من الطول إلى العرض، وتذكر مرأى الحشر والعرض، فسبحان من أحصاهم عددا، وأراد بهم رشدا ثم نزلنا "بمنى" فعائنا ليلة من لم يعاينها لم يعاين أعذب ليالي الدنيا، ولم يصبر الأرض عادت ثريا يوقد فيها من الشمع والمشاعل، والسرّج ما ترى الأرض تتألا به نورا، وتضيء سهولا ووعورا، وتفوق كواكب السماء سطوعا وظهورا، فله هي ليلة الدهر وعروس ليالي العمر، والبكر التي تهيم بها بنات الفكر، "بمنى" مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختلاط عتيقة الموضع تملأ النفوس بهجة وانسراحا، قد درست إلا منازل حسنة محدثة التزول، تحف بجاني طريق ممتد

الطول، كأنه الميدان اتساعا وانفساحا، فأول ما يلقي المتوجه إليها عن يساره بمقربة منها مسجد البيعة المباركة التي كانت أول بيعة في الإسلام عقدها العباس رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم مع الأنصار، حسبما أشتهر من ذلك ثم يفضي منها إلى جمرة العقبة وهي أول منى للمتوجه إلى مكة، وعن يسار المار إليها وهي على قارعة الطريق مرتفعة بالمتراكم فيها من حصا الجمرات، ولولا آيات الله البينات فيها لكانت كالجبال الرواسي لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالي الأزمنة وعليها مسجد مبارك وبها علم منصوب شبه أعلام الحرم التي ذكرنا قبل، وبعد هذه الجمرة العقبية "موضع الجمرة الوسطى" وبها أيضا علم وبينها قدر الغلوة، ثم بعدها تلقي الجمرة الأولى ومسافتها منها كمسافة الأخرى. والصادر من عرفات إلى منى أول ما يلقي الجمرة الأولى ثم الوسطى ثم جمرة العقبة ثم بعد الجمرة الأولى يعرج عن الطريق يسيرا ويلقى منحر الذبيح عليه السلام حيث فدى بالذبح العظيم، وعلى الموضع المبارك مسجد مبني وهو بمقربة من سفح جبل ثبير، وفي المسجد المذكور حجر قد ألصق بالجدار فيه أثر قدم صغير يقال إنها أثر قدم الذبيح عليه السلام عند تحركه، فلان له الحجر بقدره الله، فيتبرك الناس بلثمه ومسه، ثم يفضي من ذلك إلى مسجد الخيف المبارك وهو آخر منى من التوجه من المعمر من بالبنين، وأما الآثار القديمة فأخذة إلى ابعد غاية أمام المسجد وهو متسع الساحة، كبير المساحة، وهو من المساجد المشتهرة بركة وشرف بقعة وكفى بما ورد في الأثر الكريم، من أن بقعته مدفن لكثير من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ثم صعدنا إلى عرفات وتكامل الجمع بما فاجتمع فيها من الخلائق جمع لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل، ومن مزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين منى وعرفات من منى إليها ما من مكة إلى منى، وذلك نحو خمسة أميال ومنها إلى عرفات مثل ذلك ومن مزدلفة تسمى المشعر الحرام، وقبلها بنحو الميل وادي محسر وجرت السنة بالهرولة فيه وهو حد بين مزدلفة ومنى،

لأنه معترض بينهما وعرفات بسيط من الأرض مد البصر لو كان محشر الخلائق لوسعهم، وفي آخر ذلك البسيط جبل الرحمة، وفيه وحوله موقف الناس والعلماء قبله بنحو الميلىن فما أمام العلمين إلى عرفات حل وما دونهما حرم، ومقربة منهما مما يلي عرفات بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه في قوله صلى الله عليه وسلم عرفات كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرنة، فالواقف في عرنة لا يصح حجه فيجب التحفظ من ذلك وجبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال قائم في البسيط وهو حجارة منقطعة بعضها على بعض وكان صعب المرتقى فأحدثت فيه أدراج وطبقة واسعة من أربع جهات أنفق فيها مال عظيم، وفي أعلى الجبل قبة تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنها والله أعلم بصحة ذلك وفي وسطها مسجد يتراحم الناس للصلاة فيه، وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدد به فسيح الساحة، جميل المنظر يشرف منه على بسيط عرفات وفي جهة القبلة منه جدار قد نصبت فيه محاريب يصلي الناس

فيها وفي اسفل هذا الجبل المقدس عن يسار المستقبل القبلة فيه دار عتيقة البنيان في أعلاها غرف لها طيقان تنسب إلى آدم صلى الله عليه وسلم، وعن يسار هذه الدار في استقبال القبلة الصخرات التي كان عندها موقف النبي صلى الله عليه وسلم وهي في جبل متطامن وحول جبل الرحمة والدار المكرمة المذكورة صهاريج الماء وجباب، وعن يسار الدار ويسار القبلة مسجد قديم فسيح البناء بقي منه الجدار القبلي ينسب إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة وعن يسار العلمين في استقبال القبلة وادي الأراك وهو أراك أخضر يمتد في ذلك البسيط مع البصر امتدادا طويلا وكان الوقوف بعرفات يوم الأربعاء التاسع لذي حجة فخطب في ذلك المقام العظيم، والمشهد الكريم الشيخ الخطيب الولي أبو عبد الله خليل المذكور آنفا بعد أن جمع بين الظهر والعصر خطبة محبرة. نظم شذورها، وأحكم فصولها فذرفت منها العيون. ووجلّت لها القلوب، وعلا الضجيج، وأرتفع النشيج وتراكم الحجيج، ووقف جميع الناس خاشعين، باكين داعين إلى الله عز وجل في الرحمة والمغفرة متضرعين، فما شهدت يوما كان أكثر مدامع، ولا قلوبا خواشع، ولا أعناقاً لهيبة الله تعالى خوانع خواضع، من ذلك اليوم، فما زال على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم. والرحمة بفضل الله تعالى تكنف جميعهم، حتى سقط قرص الشمس وتمكن غروبها، ولما حان الوقت أشار الإمام بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعا وارتجت منه الأرض ورجفت له الجبال فيا له موقفا ما أعظم مرآءاه وأرجى في النفوس عقباه، جعلنا الله تعالى ممن خصصه فيه برضاه، وتعمده برحماء، انه منعم كريم، غفور رحيم، وروى ابن المبارك عن أنس بن مالك قال وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات وكادت الشمس أن تغرب فقال يا بلال أنصت لي الناس، فقام بلال فقال: أنصتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنصت الناس فقال: معاشر الناس أتاني جبريل آنفا فأقرأني من ربي السلام وقال ان الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المعشر وضمن عنهم التباعات فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله هذا لنا خاصة، فقال هذا لكم ولئن أتى بعدكم إلى يوم القيامة، فقال عمر بن الخطاب كثر خير الله وطاب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة وروى النسائي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة وفي صحيح مسلم عن ابن هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق يرجع كيوم ولدته أمه.

وفي صحيح مسلم أيضا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من يوم

أكثر من ان يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة فإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول ما أدر هؤلاء،
وفي طريق آخر انه سبحانه يباهي بأهل عرفات ويقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبادي جاءوا إلي من أقصى
الأرض شعشعا غبرا أشهدكم أنني قد غفرت لهم.

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلاة على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

قال عبيد الله سبحانه، الراجي عفوه وغفرانه خالد بن عيسى بن احمد بن إبراهيم بن احمد بن علي بن خالد البلوي، لطف الله به وأخذ بيده وبرحمته آمين.

ثم انصرفت من عرفات الوفود وانفض المشهد المشهود، وفاض الكرم الواسع وعم الجود، ورعدت الطبول وخفقت البنود وخرجت من بين العلمين تلك الجنود، وغصت بهم الربى والتهائم ولنجوم، إلى أن أتينا مزدلفة بين العشائين فجمعنا فيها بين الصلاتين، واتقد المشعر الحرام، وما حوله تلك الليلة مشاعيل من الشمع المسرح، وعاد كله نورا فيخيل للناظر إليه كواكب السماء كلها نزلت به وعلى هذه الصفة تكون هذه المشاهد مدة إقامة الركبان بها، لأن أولئك الخرسانيين وسواهم من العراقيين والشاميين أعظم الناس همة في استجلاب هذا الشمع والاحتفال فيه والإكثار منه إضاءة لهذه المشاهد المقدسة، فيا لك من ضياء زاهر، وسناء وارج خلاب أيام غرر وليال مشرقات، وكذلك يختلفون في القباب والأروقة والسراقات، على هيئة عظيمة فترى أحدهم من الأمراء والكبراء قد أحرق به سرداق كالسور، نسيج كتان كأنه حديقة بستان، وزخرفة بنيان، وفي داخله القباب المضروبة وهي كلها سواد في بياض، مشرقة ملونة كأنها أزهار رياض لهذا السرداق الذي كالسور المضروب أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ثم يفضي منها إلى الفصل الذي فيه القباب فكأن أحدهم ساكن في مدينة قد أحرق بها سور تنتقل بانتقاله، وتزل بتزوله، وهي من الأبهات الملوكية التي لم تعهد عند ملوك المغرب إلى قباب بديعة لمنظر، عجيبة الشكل، قد قامت كأنها التيجان المنصوبة، أو الأخبية المضروبة، تنقش أحسن النقش وتملأ بأهوى الفرش، ويقعد الراكب فيها مستريحا وأي مستراح وبازائه معادله أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى والقبه مضروبة عليهما ماشية فيهما فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران فعندما يصلان إلى الرحلة التي يحيطان بها ضرب سرادقهما للحين إن كانا من أهل الترفه والتنعيم، فيدخل بهما إلى السرداق وهما راكبان، وينصب لهما كرسي يتزلان عليه فينتقلان من ظل قبة المنزل، دون واسطة هواء يلحقهما، ولا خطفة شمس تصيبهما وناهيك من هذا الترفيه وهذا المحمل النبیه فهؤلاء لا يلقون لأسفارهم وإن بعدت مشقة ولا نصبا، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً، ويجب

على المجتهدين من القاصدين لهذه لمشاعر الكريمة، والمشاهد العظيمة أن يحملوا أنفهم مشقة لمشي على الأقدام. فورد في ذلك من الثواب كثير، وقد حج الحسن بن علي رضي الله عنه وعن آبائه الطاهرين خمسا وعشرين حجة ماشياً، والنجائب تقاد، وحج الإمام أحمد بن حنبل حجتين ماشياً، وحج علي بن الموفق على قدميه على قدم الفقر إحدى وستين حجة، قال فطفت ليلة متطوعاً، فقلت اللهم أي قد حججت كذا وكذا حجة، وأشهدك أي وهبت رسولك عشرة وأبا بكر عشرة، وعمر عشرة، وعثمان عشرة، والعشرون الباقية لمن لم يقبل حجة في هذا الموسم، وحجة الفريضة اكفيني قال فرأيت الحق سبحانه في المنام فقال لي: يا بن موفق أتتسخر علي وأنا خلقت السخاء أتجود علي وأنا خلقت الجود أتتكرم علي وأنا خلقت الكرم أما علمت يا بن موفق أي غفرت في هذه الليلة لكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، فبات الناس بالمشعر الحرام هذه الليلة، وهي ليلة الخميس العاشرة لذي حجة فلما وصلوا الصبح غدوا منه إلى منى بعد الوقوف والدعاء لأن مزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر، ففيه تقع الهرولة في التوجه إلى منى حتى يخرج عنه، ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار، وهو المستحب، ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخيف بمنى، فلما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمي جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم نحرروا أو ذبحوا، ثم حلقوا وحلوا من كل شيء إلا النساء والصيد والطيب حتى يطوفوا طواف الإفاضة، ثم توجه أكثر الناس لطواف الإفاضة، ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني، وأقاموا يرمون الجمار بمنى، فلما كان اليوم الثالث تعجل أكثر الناس في الانحدار إلى مكة قال الله تعالى: "فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه"، قال الإمام أبو بكر بن العربي رحمه الله خفف على الخلق الرجوع عنه إلى الأهل والوطن، ولما علم من علاقة قلوبهم بهم فأعادهم بأبدانهم، وعلق قلوبهم بما عاينوا من مكائهم، وذلك قوله تعالى: "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً"، فلا يراه أحد إلا تمنى أن يعود إليه، وإن حمله شوق الأهل وحب الوطن على أن يفارقه، قد رأيت الفراق ذقته وأكلته وشربته، وساورني وساورته، فما رأيت فراقاً أبعد ملتقى ولا استناماً أقصى مرتقى، من فراق المحصب.

فريقان منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

منهم مشرق إلى الغاية، ومغرب إلى النهاية، وشمالي بغير موعد وجنوبي ولات حين مرصد، ولا شك والله أعلم، أنه عيار لفراق يوم الموقف، فإنه بين آخذ إلى الجنة ومحمول إلى النار، ولا ملتقى أبداً، وأقمنا إلى أن خرجنا من منى بعد رمي الجمرة الأخيرة، وصلاة الظهر من يوم الأحد رابع يوم النحر، فترلنا بخارج مكة شرفها الله تعالى بئابار الزاهر، ثم أحرمننا للعمرة بمسجد عائشة رضي الله عنها بعد صلاة المغرب به، وأتينا مكة والحرم الشريف للطواف والسعي إلى أن قضينا ذلك في النصف الأخير من ليلة يوم الاثنين وهو

خامس يوم النحر ثم ودعناه ساعتئذ وخرجنا وانصرفنا، قد كمل لنا الحج والعمرة والحمد لله رب العالمين
وحين وجب طواف الوداع وتعين العزم على الإزماع، ودعنا البيت لحرام، والدموع تستوقف القطار،
وتستوكف الأمطار وقلبي لا يطيق وداعاً ولا تملك حبه انتزاعاً وسرت وأنا أكفكف العبرات وأنشد هذه
الآيات:

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| أيا شعب مكة نومي حرام | متى قوضت عن رباك الخيام |
| ألفناك ألف الرضيع الرضاع | وقد يؤلمن الرضيع الفطام |
| سأبكيك ما بكت الثاكلات | وهيهات يبرد مني أوام |
| وأحنو إليك حنين النياق | لهن بأكناف نجد غرام |
| أيا ساكنين الحمى هي يعود | لنا بعد وقع الشتات التثام |
| عليكم وأن شط مني المزار | سلام وجهد المقل السلام |

ولما استقلت نجائب الرفاق وتهاديننا تحف الأشواق، وتشاكينا روعة الفراق، وأخذنا نسري ونسير ليلاً
ونهاراً، ونجذب بالنجب الفياقي إشراقاً وأسحاراً، وتغيب عنا الشمس والأقمار فتتخذ من السرج
والمشاعل شمساً وأقماراً ونقطع مهامه ينقطع فيها الرفيق عن الرفيق ونسلك مسالك تارة في الاتساع
وتارة في الضيق إلى أن وصلنا إلى رأس "وادي العقيق" وتراءت لنا بعد البعاد أعلام ذلك الفريق، وهناك
أنشدت الأصحاب الحضريين ما أنشدني تجاه لكعبة المشرفة لوالده شيخنا جمال الدين أبو إسحاق إبراهيم
بن شهاب الدين أبي الثناء محمود ابن سليمان الحلبي وهي قصيدة ضربت في الإبداع بسهم مصيب وربت
من البيان في روض يانع ومرعى خصيب ونصها:

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| وصلنا السرى وهجرنا الديارا | وجئناك نطوي إليك القفارا |
| أتيناك نحدو البكا والركابا | ونبعث أثر القطار القطارا |
| إذا أخذت هذه في الربى | صعوداً أبى ذلك إلا انحدارا |
| وإن فاض ماء لفرط الحنين | ورجع حادي السرى عاد ناراً |
| كأننا به وهو يجي دماً | وقوف على الخيف نرمي الجماراً |
| أتيناك سعياً ننادي البداراً | إلى سيد المرسلين البداراً |
| إلى أشرف الخلق في محتد | وأحمي جواراً وأعلى نجاراً |
| إلى من به الله أسرى إليه | وما زاع ناظره حين زاراً |

لما نزعنا شعار الرقاد
نميل من الشوق فوق الرحال
نجافي عن الطيف أجفاننا
ونسري مع الشوق أنى سرى
ونسئل والدار تدنو بنا
وما ذاك أنا سئمنا السرى
إذا لبرق عارضنا موهنا
فنفري بأدرع تلك النياق
ونرمي بهن صدور الفجاج
إذا رقصت في الفلاة المطى
تسابق أرجلها في السرى
ونجمع بين السرى والمسير
وكيف القرار إلى أن نراك
من كان يأمل منك الدنو
ترى تنظر العين هذا البشير
لأعطيه روي سرورا بها

وأمسح عن أرجل اليعملات
واهدي على القرب مني السلام
وأكتب شوقي بماء الدموع
وأفدي بما طال من مدتي
ترى هل أناجي هناك الرسول
وأعلم أني على بابه
وماذا أقول وكل الوري

بأجفان عيني ذلك الغبار
وحسبي بها رتبة وافتخارا
بسطا إذا اللفظ كان اختصارا
بطيبة تلك الليالي القصارا
جهارا كما نرتجي أم سرارا
وقفت قبلت ذاك الجدارا
نشاوي هنالك مثلي حيارى

وأنشد يا شافع المذنبين
أقلني فقد جئت أشكو الذنوب
فكن شافعي يوم لا شافع
فمالي سوى حق هذا الجوار
وأني قطعت إليك القفار
وفي قطعها لك فضل على
ولو أستطيع قطعت الزمان
وما كنت أظعن إلا إليك
حمى حل فيه نبي الهدى
فيا فوز من كل عام أتاه
شممنا الشذا من مبادي الحجاز
فوها لها نفحة أذكرت
إذا خطرت في الربا سحرة
يمانية رابها إنها
على من سرت من حماة السلام

أجر من باب حماك استجارا
إليك وأنت تقيل العثارا
سواك يفك العناة الأسارى
إليك ومثلك يرعى الجوارا
فقيرا أقل ذنوبا غزارا
ولو خضت دون القفار البحارا
وأنت المنى حجة واعتمارا
إذا ما ملكت لروحي اختيارا
فأضحى به أشرف الأرض دارا
ويا فوت من غاب عنه خسارا
فخلنا العبير أعار العرارا
هواي وأذكت بقلبي الشرارا
وجرت ذيولا على الغار غارا
بطيبة مرت وجرت أزرا
وحيا الحيا ذلك الربع دارا

ووصلنا إلى المدينة النبوية الكريمة بقلوب مسرورة بالوصال، محزونة بما تتوقعه بعد ذلك من قرب الارتحال:

ما يقتل الليل الطويل سهرا
غير محب خائف أن يهجرا
فدخلناها عشية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذي الحجة من العام المذكور، واليوم قد ولى شبابه، والمساء قد استحكمت أسبابه:

والشمس تجنح للغروب مريضة
والليل نحو مغيبها يتطلع
ولما حططنا بها رحال الإمام، وخلعنا على عطف الصلاة برد الإتمام تسارعنا إلى الروضة الشريفة المقدسة تسارع الطير إلى الأوكار، وتسابقنا تسابق الخواطر مع الأفكار، وكنا ظننا أن الدموع نفدت، وأن نيران القلوب خمدت، فتراكمت من العيون سحبتها، وتزايد من القلوب لهبها، وأخذنا بعد السلام في شرح ما فعلت الأشواق وإن كانت الإحاطة بوصفها تكليف ما لا يطاق، وجرى الأمر كما سلف من خلوات

معهودة، وقلوب ببرد لمغفرة معمودة، وبتنا نطفئ نيران الأشواق بماء العبرات وننادي رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمام الحجرة لا من وراء الحجرات:

ولما وقفنا للسلام تبادرت دموعي إلى أن كدت في الدمع أغرق

فقلت لعيني هل مع الوصل عبرة فقالت ألسنا بعده نتفرق

ولما تحقق السير عن ذلك الحما، وأشأم حاد كان بالأمس أهما، أجريت الدموع وحرمت الهجوع، وأضرمت بنيران الزفرات الأكباد والضلوع، وانقطع بي الرجاء، وضافت على الأرجاء:

قالوا الرحيل وما تملت باللقا عيني ولا امتلأت بغير مدامع

فتيقنت روعي بأن مقالهم أن يصدق الحادي أشد مصارعي

ووقفت بين تأمل وتململ يبدو السرور على فؤادي الجازع

حيران لا أدري بقرب رائق أذري المدامع أم لبعد رائع

وودعنا الروضة المشرفة المكرمة، والتربة المقدسة المعظمة، فياله وداعا ذابت له الأجساد والتهبت به الأكباد، وكاد يتصدع الجماد وما ظنك بموقف يناجي بالتوديع فيه سيد المرسلين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين، وخيرة خلق الله أجمعين، وأنه لموقف تترع فيه الأرواح انتزاعاً، وترى الخلق من هوله صراعا كل يقاسي مرارة مذاقه ويروح لديه بأشواقه، لا يجد بدا من فراقه، فوا أسفاه وا أسفاه. ما أصبر قلبي على هذا الوداع وأجفاه:

عجا لقلبي يوم راعتنا النوى ودنا وداعك كيف لم يتفطر

بأننا الله تعالى منزلة الكرامة، بزيارة هذا النبي الكريم، وأحلنا من فضله في جواره دار المقامة، انه ذو الفضل العظيم بمنه وكرمه، ثم رحلنا من المدينة المنورة الشريفة، في يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة المذكورة وهو غد يوم دخولنا ووصولنا، وسرنا مع الركب المصري على عادتنا من وصل السري وحث المطى وأنا أجد نسيم طيبة المكيبية أعبق من العنبر الذكي وأفتق من المسك النقي، وأحلى على قلبي الصادي من المورد العذب الشهي.

ولفخر الرؤساء الرضى الموسوي.

أيها الرائح المجد تحمل حاجة للمتميم المشتاق

وأقرعني السلام أهل المصلى وبلاغ السلام بعض التلاقي

وإذا ما مررت بالخيف فاشهد

وَأَبْك عَنى فَطالما كُنْتَ مِنْ

ضاع قلبي فأنشده لي بين جمع

إلى أن وصلنا إلى الينبوع في عشي يوم السبت السادس والعشرين لذي الحجة المذكورة وصلناها بعد مسح الجبين، والانخفاف المبين فحللنا منها ببلد أثير، ذي نخل كثير، و ماء غزير، عذب نعيم، وخرجنا منها ضحوة يوم الاثنين الثامن والعشرين لذي الحجة المذكور وسرنا والغيط يشتد حره، والهجير يلتظي جهره، إلى أن وردنا ماء العقبة الكبرى على ساحل البحر وهي التي تسمى عقبة أيلة يجتمع عندها الناس من الشام ومصر وغيرهما للقاء الركبان، والسؤال عن الأحباب والإخوان،

ه متى عهده بأيام جمع

ولا تكتباه إلا بدمعي

فلعلي أرى الديار بسمعي

عارضاً بي ركب الحجاز أساء

واستملاً حديث من سكن الخيف

فاتتني أن أرى الديار بطرفي

وصلنا إليها في ضحى يوم الخميس السادس عشر لشهر الله المحرم مفتح عام ثمانية وثلاثين وسبعماية ثم تقسمت الركبان فبعض انقلب إلى الديار المصرية وبعض ذهب إلى البلاد الشامية:

وبلغ أكناف اللوى من يريدتها

ألا بلغ الله الحمى من يريده

فكنت ممن أثر زيارة تلك البقاع السامية الكريمة، واستخار الله تعالى فاختار له أفضل الغنيمة، ورحلنا من العقبة في ليلة يوم السبت الثامن عشر من شهر الله المحرم المذكور، فأول ماء لقيناه بعد العقبة المذكورة ماء غضيان ثم ماء الغمر ثم ماء التجان ثم سرنا فأتينا عقبة الصفا، وقد اشتدت حمرة القيط، والنفوس من جواز تلك العقبة الكثود تكاد تميز من الغيط. وما زلنا نسير فيشتد حر الشمس، ويشبه اليوم الأمس، إلى أن وصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام فدخلناها عند العصر من اليوم الخميس الثالث والعشرين لشهر الله المحرم المذكور، فاستراحت الأبدان وتلاقى الإخوان، وتفرق الركب، وتألف الصحب واجتمع كل بخيله ونسيه، وأخذ من سمط أبيه الخليل عليه السلام بسهمه ونصيبه، فقضينا ما تعين من الزيارة ووجب من السلام، لقيت من امكن من أولئك الفضلاء الأعلام، وخرجت منها في عشي يوم الجمعة من غد اليوم المذكور، وسرنا والعشى قد طفل، وعطفه في الثب القصير قد رفل، والشمس قد خجلت من فراق الحاضرين، صفراء فاقع لوها تسر الناظرين، فوصلنا إلى مدينة القدس الشريف في صبيحة يوم السبت الخامس والعشرين من شهر الله المحرم المذكور، وبها اجتمعت بأخي محمد حيث تركته بعدما جال في أطراف بلاد الشام، وكاد يبلغ مدينة السلام. فتلاقينا بتحية الإخوان إذا التقيا بعد البين، وحظينا بعد الأثر

بالعين، فكان بذلك لنوم عيني سبيل وعهدي بالنوم عهد طويل، وأقمنا بالقدس الشريف الكريم ملتصقين
البركة في ذلك الحرم العظيم إلى أن خرجت منه بالرغم، وتزودت بالغم ملتفتا إلى تلك الربوع ومكفكفا
واكف الدموع فنبت عنه مرتحلا، وفيه أنشأت عاجلا وأنشدت مرتحلا:

| | |
|------------------------------|---------------------------------|
| خليلي في ربع الخليل مني نفسي | وفيك فؤاد أنت يا حرم القدس |
| أحن إلى تلقاء هذا صباية | وألح من هذا سنى البدر والشمس |
| مواطن لو أنصفتها جئت زائرا | إليها على العينين والخد والرأس |
| ولو أنني أعطي مرادي بينها | لما رحلت من دونها أبدا عنسي |
| وكيف رحيلي عن معاهد لم تزل | على الحل والترحال لي غاية الأنس |
| أروح وأغدو بينها شيقا لها | وأصبح فيها مستهما كما أمسى |
| بلاد خليل الله والمسجد الذي | صلاة به في الأجر كالمائة الخمس |

| | |
|------------------------------|----------------------------------|
| ومواطن معراج لنبي محمد | وقد هب غمض النوم في الأعين النعس |
| وموطئ أقدام الرسالة والهدى | وقد لان صلد الصخر من ذلك اللمس |
| أيا مسجد قد بارك الله حوله | وعظمه في العرب والعجم والفرس |
| ويا أربعا قد أظهر الله فضلها | وكرمها في اليوم والغد والأمس |
| رحلت وفي قلبي لأجلك لوعة | فلم يبيلها مني الزمان ولم ينس |
| وأزعجني عنك النوى وهي دائما | تعاملني في جمع شملي بالعكس |
| وعندي إلى لقياك أي تشوق | به اغتدي دهري وألحد في رمس |
| عسى عودة أو زورة تتقع الظما | وتخلع عني للظما وارس اللبس |
| وإن كانت الأخرى ولم تك أوبة | فأهدي سلامي في القراطيس بالنفس |

وكان خروجنا من القدس الشريف في عشي يوم الجمعة أول يوم في صفر من العام المذكور. وسرنا
والعيشة تجود لزماتها، وذكاء تتشحط بدمائها، والفلا تذوب من كدنا خجلا، والنجم يردد من سرانا
وجلا، إلى أن وصلنا إلى مدينة الرملة، في عشي يوم السبت من غد اليوم المذكور، والأصيل قد قضى،
ودين اليوم قد انقضى:

| | |
|------------------------------|-------------------------|
| والشمس تنثر زعفرانا في الربى | وتقت مسكتها على الغيطان |
|------------------------------|-------------------------|

فترلنا بها بمدينة غضة المنظر، حسنة المخبر، ممتعة بالروض لناعم، والنسيم الأعطر، أحسن المدائن، أزقة وأسواق، وأكثرها فواكه وأرزاقا. وأملحها بياضا وإشراقا، وأبدعها اتصالا بالبساتين والتصاقا، قريبة من البحر، بعيدة من الغور كثيرة المساجد والخير، معتدلة الهواء، سامية البناء، واسعة الفناء، ساكنة المساكن، مكنية الأماكن، لائحة المباحج، واضحة المناهج، رائقة المنازه، رائعة المنازل، مرنة الرباب، معشبة الشعاب، هامة السحاب، عاملة الجنباب، سافرة المطالع، افرة الصنائع، سابغة المدارع، سائغة المشارع، صافية الزلال، ضافية الظلال، سارة الأسارير، زاهرة الأزاهير، معقودة الحب، معهوددة الربا، جلييلة العلا، جميلة الحلا، جائشة الجيوش، معرشة العروش، فيها جنات من نخل، وأعنان، طوبى لمبصرها وحسن مثاب، دخلت بداخلها المسجد الجامع الكبير حيث الخطبة الكبرى، والجماعة العظمى وهو المشتهر بالجامع الأبيض له صحن كبير جدا فيه أشجار وأطياف وجب وآبار فيها ماء كثير عذب نقي، وفي وسط الصحن مغارة عظيمة كبيرة تفضي إليها أدراج كثيرة، قد قامت على أقواس محنية وأرجل مختلفة مبنية، ذكر أن فيها جماعة عظيمة من الأنبياء مدفونين يعدهم النساك بالمئين، زرناها لما يؤثر عنها من البركات والأعمال بالنيات وعلى باب المسجد المذكور تاريخان منقوشان في الرخام، وقدمهما وأخصرهما ما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم" هذا ما أمر بعمارة هذا المسجد الجامع المبارك إياس عبد الله بن جهة الأمير علم الدين قيصر رحمه الله ورحم من ترحم عليه، سنة ست ثمانين وخمسمائة وخرجنا منها عشية يوم الأحد الثالث من صفر المذكور، وسرنا والشمس قد عصفت أبرادها، وردنا في العين الحميمة إيرادها، وبتنا نركب ظهر لسرى ونقطع بالذيل عمر الكرى، حتى سفرت الجونة عن نقابها، ونكصت النجوم على أعقابها، وأحرقت فحمة الليل عنبر لصباح، وخبا من النجوم الزهر كل مصباح، وهتف داعي العرفان، وحيل المثوب بالأذان، وأصبحنا على عسقلان في صبيحة الاثنين من غد اليوم المذكور، وهي مدينة كبيرة، مفروشة بالرخام عجيبة وكانت دار إبراهيم عليه السلام وفيها آثار النمرود من كنعان، فسرشنا بمسرح آمال، جنتان عن يمين وشمال، روضات قد أينعت فيها الأزهار، وانبعثت الأعين وعنت الأطياف، فحللناها بلدا أقفر وخرب، وأكل الدهر على محاسنها وشرب، وترك ساحته كدرامية بالعلاء، وغادره منقض الفناء، متقلص الأفياء فأطلت الركوع والسجود في ذلك المسجد الحافل، وظلت أتبرك بما تضمنه من الآثار الجلائل، وجعلت أجول معتبرا بين تلك المنازل وأتمثل بقول القائل:

أصممن أم بعد المدى فبلينا

فلبثن من بعد الشهور سنينا

ما للمنازل لا نجبن حزينا

دمن تقادم عهد هن على البلا

من مدينة مأثورة الفضل قليلة النظر في الحسن عديمة المثل لم يبق منها إلا رسومها الواهية وأطلالها العالية البالية، وأزقتها الخاوية الخالية:

طلول إذا دمعى شكى البين بينها شكا غير ذي نطق إلى غير ذي فهم

فالأعلام طوامس ووفود الأبواب روامس والمأموم بالإمام مزجور والدار خالية، والباب مهجور، ستغفر الله إلا روضها الناعم، وأرضها المنسابة المذانب انسياب الأراقم، وانتظام الشجر والبحر، والنسيم الزدري بعنبر الشجر، فإن المحاسن في ذلك راقية وصفا اتسقت رصفا، والأمواج تنعطف صفا تنقصف قصفا وتأتي خاضعة إلى البر فتقبل منه كفا وتتيه آونة فتنعطف عنه عطفاً وتتثنى عن الإمام به عطفاً:

تتكسر الأمواج فيه فتنثنى بيد الصبا مبيضة أعطافها

فكان شهب الخيل قد غرقت به فطفت على أمواجه أعرافها

فارقناها يصاحبنا الهواء الرطب ونسيمه، والأرج العنبري وتسليمه، ولنفس النجدي الذي هو في الصحة شقيقه وقسيمه، وقد أهدقت البساتين بما أحداق الهالة بالقمر، والأكمام بالثمر، وامتدت بطحتها الخضراء امتداد البصر فكل توقع لحظة لجهاثها نضرتة اليانعة قيد النظر، وما زلن نسير على بساطتها الأخضر، وأديمها الأنضر، إلى أن وفينا مدينة "غزة" في ظهر يوم الاثنين الرابع لصفر المذكور فأقمنا بما إلى خرجنا منها في عشي يوم الثلاثاء خامس صفر المذكور وقد تضخمت صفحات الربى بخلق الأصيل وأرزمت المطايا إلى الدعة أرزام الفصيل وسرنا نحت في الرحيل ونصل المساء بالصباح والغدو بالأصيل إلى أن وصلنا إلى "قراطية" والظلام يزملنا بنجاده واليباب يرفعنا إلى ظهور روايه من نجاده في نصف ليلة الأحد العاشر لصفر المذكور وهي بليدة عجبية منقطعة في ذلك الرمل غريبة جذبا خصب وشيها شبيبة، يمتد بين يديها من كلا جنبيها رمل أفيح أغبر لا ماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر قد نبذت بالعراء، ووضعت في وسط الصحراء، فهي تشكي ظماء وتستقي على البعد ماءها، لكنها حسنة المترع، متسعة المربع، تقبل من لحسن بثمان وتدبر بأربع لولا ظلم نهيها وأمرها، وشوب حلوها ومرها، وعظم ضرها للوارد وقهرها، تفتش أمتاعه، وتنهب رقاعه وتستلب من بين يديه، فلا بيعه ولا ابتياعه وفي مثلها يغضب الحليم فيحذر، وينفث المصدور فيعذر، قال بعض العلماء بلاد الحجاز آخرة ولا دنيا، ومصر دنيا ولا آخرة والشام دنيا وآخرة وقراطية لا دنيا ولا آخرة، ولما رأيت هبوب ريحها، وديب تباريحها، وتصريف صروفها، وتحريف حروفها، وتأملت الخائن فيها فإذا هو مؤتمن والتمست العدل فيها فوجدته كالماء في دار عثمان، له ثمن، زويت وجهي عن محاسنها، وساويت بين صفوها وآسنها، ورميت بجبلها على

غاربها، وضربت وجوه مشارقها بمغاربها وكرهت عليها ونهلها، وتركتها وتركت جملة لها، وخرجت منها في عشي اليوم المذكور، والشمس مرضى أصائلها، والربا معصفرة وصائلها، وسرنا نطوي مسافة البيداء، طي الرداء، ونطير في جو الرجاء بجناح النجاء، إلى أن وصلنا إلى مصر فزلنا بها في ليلة يوم الخميس الرابع عشر من صفر المذكور قد أظلنا الليل. كظهر الفيل، التف جناحه باها به، وافتت فجره عن نابه وكان سماءه سندس عليه نثير تفاح، وكان بدره يفتش عن صحبه بمصباح، ومر يحدوه السير إلى أن لف الثريا في ملاءته الفجر، فوسنا سنة النصب وهدأنا هدأة الوصب، فما صحت العيون من نشوة رقادها، إلا لتغريد الطير في أعوادها، وذكاء قد أذكت قبسها علينا، وسفرت فكشفت عن صبحتها إلينا، ونسيم الروض يروي الطيب ويسند، وبعض النبلاء يردد وينشد:

في ظل أخضر بارد الأنداء

بتناوبات الورد يضربه النداء

والصبح كشاف لكل غطاء

والليل يخفى نفسه في نفسه

أثر المداد به من المساء

وكانما الإصباح ينشر مهرقا

فأجابه صاحبه على إنشاده كأنه ما فطن لمراده:

وبدا طيسانه ينجاب

قم ترى الليل كيف رق دجاء

والدجا بين مخليه غراب

وكان الصباح في الأفق بار

وكان النجوم فيها حباب

وكان السماء لجة بحر

فعجبت من ذكاء المنشدين، وأدبت بعد الطهارة ما حل من الدين وتقاضينا جواب القطعتين فأنشدتهما لابن جرج رضي الله عنه:

وسابح مد بالهطالة الهتن

ربي تروق وروضات مزخرفة

يكاد من رقة يخفى على الغصن

وللنسيم على أرجائه حبيب

وأنشدتهما لابن صارة رضي الله عنه:

محياء وقد طفل المساء

تأمل حالنا والجو طلق

يجاذب مرطها ري رخاء

وقد جالت بنا عذراء حبلى

تعاين وجهها فيه السماء

بنهر كالسجنجل كوثر ي

"وبحر النيل" العجيب قد فاض فيضا، وركضت سيوله في البسيطة ركضا وزاد امتلاؤه على حده فسقى بالزيادة أرضا، وانسلت صلاله فسكنت الرياض، وقد يسكن الصل روضا، وتلك الأساطيل قد صففت من حوله صفوفا، وكفت من موجه كفوفا، وسلت لأعناقها من مجاذبها سيوفا كثيرا ما كنا نركبه ولا نرهبه، ونستصعبه ولا نستصعبه، نرد على طريق إليه ونعوج عن غيره، ونعرج عليه، ومع ذلك نواخي الفضلاء ونوالي العلماء فممن لقيته بمصر من كبراء المتصوفين، وفضلاء المتبتلين العابدين الشيخ العالم الصوفي الولي نجم الدين، أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف القرشي الحجازي نفع الله به فرع الحساب الصميم، ونبع الشرف العظيم، وطبع الفضل العميم وطوع التخلي الكريم شرف إلى سماء الكرم مرقاه، وأدب من ماء الكوثر سقاه، وكأطيب الثمر تخيره وانتقاه، سلف له في العالم أسلاف كرام وثبت له في قریش نسب يحق له إجلال وإكرام، واستقر له في التصوف قدم وإقدام، يجب له احتفاء واحترام وجل الكمال والكلام وصاحب الحال والمقام وحامل فخر الأقاليم ونجل السراة الأعلام، وأجل بيوت الإسلام غرر الزمن البهيم، وموارد الآمال الهيم:

قوم بأولهم أو مجددهم قعدوا

لو كان يقعد فوق النجم من كرم

ضربوا بمدرجة الطريق قباهم، وأفنوا في اكتساب المجد وفرهم وشباهم، رضي اللهم عنهم وأرضاهم:

غفر ذنبهم غير فخر

ثم زادوا أنهم في قومهم

ورث الطريقة الصوفية عن آبائه الكرام وأجداده، واستقل بشيخها فلم يدعها معه أحد من أنداده فغدا صدر صدور المشيخة الصوفية، والراسخ القدم في رتب الولاية الربانية، والمجلى في حلبة رواة الأحاديث النبوية والتميز بجملة وافرة من اللغة وفنون العربية، صوام نهاره، قوام ليله لا تلحقه سائمة الملل، ولا تتعلق به فترة الكسل، بالغاً درجة التوكل بالقول والعمل، فهو الآن في ذلك القطر، عظيم القدر شهير الذكر، له كرامات تربي على العد والحصر، وفراسات تغوص على السر، في موج الفكر، فتبرز المكتوم والكنون، وتنجز المظنون والمضمون وما يعقلها إلا العالمون، لقيته بمصر المحروسة فسمعت من لفظه جملة وافرة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن جملة مسموعاته كتاب مسلم بن الحجاج وكتاب الشفا للقاضي أبي الفضل عياض رحمه الله وغيرهما، وقد سمعت عليه بعضهما، وتناولتهما من يده المباركة وأخبرني رضي الله عنه أنه لبس خرقة التصوف كما ألبسنيها من يده المباركة عن والده ولبسها والده عن جده الولي الأكبر أبي الحجاج يوسف المشتهر بالأقصري ولبسها جده عن الشيخ أبي مدين دفين تلمسان رضي الله عنه، قال وكان اجتماع الجد أبي الحجاج يوسف المذكور به بالأرض البيضاء ببلاد السودان على خرق العادة، وللأرض ألسن ذاكرة تقول الله الله.

وسمعت من لفظه غيرهما وأجاوني جميع ما يحمله ويرويه وكتب بخط يده ما نصه قال الشيخ الكبير الجد يوسف عبد الرحيم الأقصري قدس الله روحه، ونور ضريحه، قيل لي من قبل الله تعالى من جاءك من أهل الطلب فدلّه عليها وأما الوصل فمن رأيناه صادقاً محققاً لدينا، وصلناه إلينا ومن رأيناه لا يصلح جعلناه خادماً وأجرته علينا، ومن رأينا غافلاً عنا طردناه من بين أيدينا، فانه لا يصل إلى المحبوب من هو بغيره محبوب، وذكر لي رضي الله عنه قال مما وصى به الجد الأكبر أبو الحجاج يوسف المذكور خواصه وأصدقائه قال: إذا أدركتكم الضرورة والفاقة فقولوا حسبي الله ربي فالله يعلم أنه في ضيق وذكر لي أيضاً رضي الله عنه قال رأى هذا الجد يوسف المذكور النبي أصابته فاقة فشكى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله النبي صلى الله عليه وسلم قل يا بر يا رحيم، ألطف لي في قضائك ولا تول أمري أحداً سواك حتى ألقاك فلما قالها أذهب الله تعالى فاقته قال فكان رحمه الله تعالى يوصي بما أصحابه وأحبابه، وأنشدني لبعض الفقراء وكتبهما لي بخطه:

فقد جمع الوفاء لنا قلوباً

لئن شت الزمان لنا جسوماً

فلست تزال من قنبي قريباً

وان أصبحت من عيني بعيداً

وأنشدني لفظاً لبعضهم وكتبهما لي بخطه رضي الله عنه:

فدتك نفسي يا روعي فأنت أنا

ما أنت غيري فأخشى أن تفارقني

فالأرواح واحدة والسر يجمعنا

لئن تباعدت الأجسام وافترقت

ومن لقيته بها من بلغاء الخطباء، وفضلاء العلماء الشيخ العالم الفاضل علم الدين أبو قاسم بن عبد الله بن أبي القاسم الشافعي أنقى الله بركاته سراج من سرج الأئمة وهداة الأمة ومن يقتدي بأنواره، ويهتدي بآثاره في شبه الظلم ويهتدي بآثاره في شبه الظلم وظلم الشبه وغياهمهما المدلّمة كلما تقلب تغلب. وكيف ذهب اذهب. وأينما أصاب أصاب، وحيثما تاب أثاب فأهل ولائه مهتدون بعلائه لا يطلع إلا ومغيب شهابه ظلاله، ولا يغيب قمرهم إلا وقد لاح هلاله، فأيديه تستهيدنها المحافل ويستجديها الطالع والآفل يجتنيها الجناة على اختلاف طبقاتهم، وتباين درجاتهم وقد طاب فيهم خيرها وخبرها وحسن في مساري أسماعهم وأبصارهم مسلكها وأثرها فرفعت بأيدي الأيدي راياته، وتليت بالسنة سوره المعجزة وآياته وامتدت في مجال التأييد والتأييد غايته وافترت به ثغور الأيام عن مباسمها، ونظمت مئثره الأثيرة في سلك أعياد ومواسمها وحفظت بحفظ علومه العلمية في عالمها ومراسمها، وحليت بحلى معارفه السنية السنية صفحات لباقها ومعاصمها، فأصبحت الأرض مشرقة بأنواره ومبتهجة بآثاره، قد راق نعمة

ونضارة، ورقت له لدونة وغضارة، وعتت برفادتها البدو والحضارة فأقسم بما لديه من أحكام البراعة وأحكام البراعة وباعث الاستطاعة بأعباء السمع والطاعة، وأنه لقسم لا يأثم عاقده، ولا تحل إلا بأكف البر معاقده لقد وردت لما وفدت موارد خطابه، وحصلت في حلبة خطابه وتولعت لما تطلعت إلى يسره وأرطابه، فتفياته ظلالا، واستسخته زلالا واستنرت بلؤلؤ غرته، وآلاء مبرته قمرا فأنشدته وماثلا بين يديه الكريمة ترويا وارتجالا:

إليكم صرفت النفس وهي مروضة **وجئت بقلبي نحوكم وهو يطيع**

وان كنت سني الإخاء فأنني **بحكم الهوى في حكم كتشيع**

لقيته أولا بأحواز مضر بيلد "دمنهو" ثم لقيته ثانيا بقسطاط مصر وهو بما العالم علم الدين المشهور، فسمعت من لفظه في الأولى حديث الرحمة المسلسل بشرطه وغير ذلك من مروياته، وأعلى مروياته، وقرأت عليه بلفظي في الثانية جميع الأربعين حديثا البلدانية للحافظ أبي طاهر رضي الله عنه وحدثني بها عن الإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن مخلوف بن عبد الرحمن ابن جماعة الإسكندري قراءة منه عليه بلفظه بما عن جعفر بن علي أبي البركات الهمداني سمعا عن الحافظ السلفي سمعا، وحدثني بها أيضا عن أبي الحسن علي بن عمر الواني الصوفي قراءة عليه وهو يسمع بالقاهرة عن سبط السلفي سمعا متصلا، وحدثني بحديث الرحمة وهو أول حديث سمعته منه قال أخبرني به أبو الحسين يحيى بن عبد السلام الإسكندري وهو أول حديث سمعته منه قال أخبرني ابن عمي أبو بكر ابن عبد السلام الصفاقصي عرف باب المقدسية وهو أول حديث سمعته منه عن الحافظ السلفي، وهو أول حديث سمعته منه حضورا بسنده فيه وقرأت وسمعت أيضا عليه غير ذلك من كتب الحديث وغيرها وأجازني إجازة تامة مطلقة عامة وكتبت لي بخطة وأنشدني لبعض المشارفة:

ألا يا راحلا في فقر عمر **يكابد في السرى حزنا وسهلا**

بلغت نقى المشيب وجزت عنه **وما بعد التقى إلا المصلا**

وأنشدني للصاحب أبي القاسم بن عباد:

أيا قمر تبسم عن أقاح **ويا غصنا يميز مع الرياح**

جبينك والمقلد والتنايا **صباح في صباح**

وأنشدني لبعضهم:

قلت للأهيف الذي فضح الغصن **كلام الوشاة ما ينبغي لك**

قال قول الوشاة عندي ريح **قلت أخشى يا غصن أن يستميلك**

وأنشدني لبعضهم أيضا:

تثني عطفه خطوات دل

إذا لم تثنه نثوات راح

يميل مع الوشاة وأي غصن

رطيب لا يميل مع الرياح

وأنشدني لابن سنا الملك:

يا عاطل الجيد إلا من محاسنه

عطلت فيك الحشا إلا من الحزن

في سلك جسمي خيط الدمع منتظم

فهل لجيدك في عقد بلا ثمن

لا تخش مني فأني كالنسيم ضنى

وما النسيم بمخشي على الخصن

ودخلت على الشيخ الأكبر، دوة الدهر ووحيد العصر، أبي حيان محمد بن يوسف بن حيان المتقدم الذكر، منزله من القاهرة المعزية مجددا عهدا ومجردا من فوائد ما لا أجد منه بدا، فقرأت عليه أجزاء عديدة، وأخذت عنه أشياء مفيدة وقد استوفيتها في برنامج روايتي، ومما قرأت ثانيا عليه من نظمه قصيدة طويلة مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولها:

لا تعذلاه فما ذو الحب المهذول

العقل مختبل والقلب مبتول

هزت له اسمرا من خط قامتها

فما انثنى الصب إلا وهو مقتول

وقرأت عليه من نظمه قصيدة بارعة يصف فيها غرناطة وطنه ويث فيها شوقه وشجته ويندب معاهده بها ومشاهده، ويذكر مصدرة بينها وموارده، وأولها:

هل تذكرين منازل بالأحبل

ومنازها حفت بشطى شمل

ومشاهدا ومعاهدا ومناظرا

للقاصرات اليعملات الذبل

حيث الرياض تفتحت أزهارها

فشملت أذكى من أريج المندل

والطير تشدو مفصحات بالغنا

فوق الغصون الناعمات الميل

فتنير للمشتاق داء كامنا

وتذيل صائن دمعته المتهلل

وأخذ يصف لي أشواقه إلى الأندلس الكريمة، ويتأوه لذكر عهوده القديمة، وتبع الزفرة بالزفرة، ويصل العبرة بالعبرة ويقول والله لقد كنت ارتحل إليها لو كانت لي طاقة أو قدرة، وأنشدني لنفسه ودموعه تفيض نورا، وتبل منه صدرا ونحرا، وتسيل على بسيط حدوده فتسلك منها سهلا ووعرا:

يا فرقة أبدلتني بالسرور أسى

وأسهرت ناظرا قد طالما نعسا

أنى يكون اجتماع بين مفترق

جسم بمصر وروح حل أندلسا

فبكيت والله لبكائه، ودعا الله في رجوعه إليها فأمنت على دعائه، ثم شهق شهقة حسبت فؤاده بها منفطرا ولم يزل بقية يومه منكسرا.

أن للجنة بالأندلس

مجتلى عين وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب

ودجا ليلتها من لعس

فإذا ما هبت الريح صبا

صحت وأشواقى إلى أندلس

ثم خرجنا من مدينة مصر في يوم الأربعاء الموقى عشرين لصفر المذكور فركبنا في بحر النيل العجيب جوارى منشئات، عذارى حبشيات وناسكات على الماء ماشيات، تطلعننا على تلك الآيات، وتطالعنا بحسن الآيات وتذكرنا بهذه الأبيات:

نزلنا بمصر وهي أحسن كاعب

فقيدة مثل زانها كرم الفعل

فلم أر أمضى من حسام خليجها

يلوح على أفرنده صداً الصقل

إذا سأل لا بل سل في متها لك

من الأرض جذب طل فيه دم المحل

غداة جلا تبر الشعاع متونه

ولا شك أن الماء والنار في النصل

ولا مثل أعطاف الغصون كأنها

شمائل معشوق تنتهى من الدل

ينظم تعويذا لها سبح الدجا

وينثر إعجابا بها لؤلؤ الطل

ورحنا على البحر وقد سكن هائجه وركن مائه، وأقبلت الزوارق تهفو بقوادم غربان وتعطو بسوالف غزلان تحالها في سمائه أهله مكسوفة. وتحسبها فوق مائه جريدة دهم مصفوفة. وزورقنا بينها يسرع في اندفاعه. وقد استدرنا تحت ظل شراعه فحسبته خوف العواصف طائرا مد الحنان على بنيه جناحه، وما برحنا نسرع سفرا. ونسير نفرا، ونرتشف من ماء النيل كوثرنا، ونتجلى منه حبابه زهرا. ومن جوانبه زهرا. ونتبوأ من جناته منازل فتحت أبوابها فدخلناها زمرا، وأنشدتها حين ودعتها.

وفتحت أبواب السهاد لناظري

وجعلت ليلي بالنجوم مسمرا

إلى أن وصلنا إلى "فوهة" ضحوة يوم الجمعة الثاني والعشرين لصفر المذكور وهي بلدة من أحسن بلاد ذلك الساحل مرعى وأخصبها مرعى. وأملحها مرسى. وأمنحها أنسا وأينعها روضا وانفعها أرضا فأمننا بها برهة ثم قطعنا النيل أمامها عشية وسرنا في الخليج راكبين بين جنات معرشات وغير معرشات وبلدان

موشاة بالبطاح منقوشات وروضات هي مرتع النواظر، ومتنفس الخواطر قد أخذت أدوات الجنان. وضحكت عن العبقرى الحسان، وأتت من الحسن والإحسان بما يقصر عن وصفه لسان القلم وقلم اللسان، إلى أن وصلنا إلى الإسكندرية فدخلناها في صبيحة يوم الأحد الرابع والعشرين لصفر المذكور، ونزلنا منها بالمدرسة الموسومة بالعلمية منزلاً تشتهيه الأنفس وتلذ له الأعين وتسبح من حسنه الأفواه والألسن، وأقمت متردداً هل يتسنى لي السفر أم القعود، وهل أعود في البحر أم أبقى على توبتي منه لا أعود، يدبر ابن آدم والقضاء يضحك، إلى أن تهيأ مركب ابن خلاص للسفر إلى تونس فلما كمل فيه الوسق وركب فيه الخلق قلت الدخول فيما دخل الناس فيه هو الحق وجعلت أفضل البحر فتقرب الأوطان، ونسيت هوله وما أنسانيه إلا الشيطان، فاستخرت الله تعالى وركبت فيه أنا وأخي محمد بمرسى المنار في عشي يوم الأحد ثاني يوم من شهر ربيع النبوي المبارك من عام ثمانية وثلاثين المذكور ثم رفع الشراع وسرنا حتى إذا كنا بالمواسط أمر الله باجتماع الرياح المختلفة، وتفريق تلك الأمة المؤتلفة، فضربنا في البحار يمينا ويساراً وسرنا إقبالا وإدباراً، ورأينا بروقا وأمطاراً، وكسرنا أقساطاً وجراراً، وقدرنا الهلاك أما انظماراً، وإما انكساراً، فلما انتهينا إلى قريب طرابلس الغربية بعث الله تعالى ريحا شديدة غربية ضربت من تجاهنا في وجوهنا، وردتنا على أعقابنا وأدبارنا إلى أن دخلنا بها مرسى العمارة في عشي يوم السبت الموافق عشرين لشهر ربيع الأخير من العام المذكور بعد أن كابدنا نصبا وعناء وعدمنا زادا وماء، وكدنا نموت غرقاً وجوعاً وظمناً. والأخبار كلما كانت أشد على من شاهدها كانت أطرب على سمعها والأسفار سفر عن أخلاق لرجال وتجول بالمرء في كل مجال لا جرم أي لقيت بها أنجادا وأغواراً وظلمات وأنواراً:

واللبصيرة حكم ليس للبصر

والناس كالناس إلا أن تجربهم

وغنما يقع التفضيل بالثمر

كالأيك مشتبهات في منابتها

"وهذا المرسى" لما رسينا به قام رئيس الجفن المذكور رجل من الأرذلين يلقب بالفنش فقال يا قوم قد رما السفر فما تيسر لنا فلا بد لي من الإقامة أيام الشتاء هنا على كل حال وهي ثلاثة أشهر لا محالة فمن أراد السفر في البر غرباً أو شرقاً فليفعّل ثم أظهر لنا العزم على القعود، وأعطانا عليه جميع الموائيق والعهود، وأشهد على نفسه شهود السفينة وناهيك بالشهود، وحلف باللازمة المغلظة، وإيمان الطلاق المؤكدة ثم رفع إلى السماء يديه وشرع في سب والديه، والدعاء بالذبح على ولديه. فهبط عند ذلك من المركب نحو المائتي رجل مشرقين ومغربين:

ويسري إلى الهم من حيث أعلم

تفيض لي من حيث لا أعلم النوى

ثم قام فقال لي يا سيدي حفظك الله وأصلحك أيي والله أحبك فوجب على أن أنصحك فقلت وما ذلك، جعلت فداك، فقال أرى أن تنزل إلى البر لتستريح وتكفي هذا الماء وهذا الريح، وهنا في هذا البراري دشار يقال له العماري فصل إليه فإن صلح بك أخذت حوائجك وعزمت عليك فقلت له لعمري لقد نصحت وبينت وأوضحت، وعجبت من فضله، وشكرته على قوله، ولم أدر أنه تحيل فيما تحيل ومكر فيما ذكر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تعلم

فبادرت مسرعا ونهضت لا مودعا. ونزلت أنا وأخي على أن نعود ونرتاد حيث نلتزم العقود:

وقد كان حسن الظن بعض مذهبهم فادبني هذا الزمان وأهله

وكان نزولنا في صبيحة يوم الخميس الخامس والعشرين لشهر ربيع الأخير المذكور فساعة وطئنا تراب البر، وغبنا عن الجفن وعن البحر، رفع الخبيث شراعه، ووافق شيطانه الغوى وأطاعه، وراح وتركنا منبذين بالعراء، مطروحين في وسط الصحراء حيارى في أمرنا سكرى، ولا ندري أغربا سلك أم رجع القهقري، ولا نلتفت إلا إلى زفرة حرى، وعبرة تتوالى وتترى، فما أم طفل قد قذفها خطب الزمان لعنيد، ببعض مسارحليد، في أرض موحشة المسالك كثيرة المهالك، قد لمع سراهما، وتوقدت هضابها، وصرخ بومها ونفر ظليمها وحضر سمومها، وغاب نسيمها، فلما خافت على ولدها من الظلماء الهلاك، وأجلسته إلى جانب كثيب هناك، ثم عادت في طلب ماء للغلام، ليلا يقضى عليه حر الأوام، فانتهى بها المسير إلى روضة وغدير، وآثار مطى بوارك، تدل على أن الطريق هناك، فعادت إلى الغلام مسرعة وكل أعضائها إليه عيون متطلعة، فلما شارفت جانب الكثيب، رأت ولدها في فم الذيب. . .

بأعظم كنى حسرة وتلهفا وأكثر منى حرة وتوجعا

وأغزر دما عندما أقلعوا ضحى ومركبنا أضحى على البعد مزمعا

فلما تجرعت أفضع منها غصة، ولا أفصح منها فرصة وتحملت فقد كل شيء وتجلدت عليه إلا فقد الكتب فلم تبقى لي جلدا، ولا عزيت عليه خلدا، وسقط في يدي، وأظلمت الدنيا في عيني وبقيت ولا تسأل كيف بقاءي، ودعوت وما قدرت على دعائي وعتبت ولكن:

كأنني كلما أصبحت أعتبه أخط حرفا بأقلامي على الماء

ومكثت في دشار الغناري النكد لا املك إلا نفسي وأخي عاريا من الثياب خاليا إلا من الوجد
والاكثاب، بين قوم لا يحسن بهم إلام، ولا ينهاتهم عن قبيح شيب ولا إسلام، ما فيهم إلا من يكلج،
ويقسم وجهه أنه لا يفلح:

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح المخبر

قد عكم البرد أفواههم، ووسم الفقر جباههم، فلا التفت منهم إلا إلى وجه مكرب، ولا أدري إلى أين
انقلب هل إلى مشرق أو إلى مغرب:

حيران أذهل عن إجابة من دعا بأسمى وأوحش في الجميع الحضر

فلقمنا نبغي فرجة من عقال، وعرجة إلى خير انتقال، وبقيت هنالك في بيت الصلاة أتجرع الغصص وألج
كما يلج العصفور القفص، أتحيل لهذه النفس لأنقذها مما وقدها، وأتخلصها مما تقلصها، وأتوسل لأحلاف
أخلاف، أتجرع بينهم مرارة الذل، وأعدم حتى لحة الظل:

أملتهم ثم تأملتهم فلاح لي أن ليس فيهم فلاح

فلما طال الأمر وعيل الصبر، ولم يبق منهم إلا من تسبب في سفك دمنا وكاد، وبلغ بالنفس التراقي أو
كاد، قلت لأخي أما وقد حصلنا في هذا الكرب، فالإسكندرية أقرب من الغرب، وأخلص أن سلمنا من
العرب، فلنخرج فلعل الله يسلك بنا للنجاة منهجا ويجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا، فوافقتني على ذلك
واستخرنا الله تعالى هناك، وخرجنا:

في ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب من ظلماتها الطنبا

ليلة يوم الاثنين السابع لجمادى الأولى من العام المذكور، فتسللنا متفرقين فريقين، وقصدنا جهة البحر،
ودعونا الله تعالى في ستر الأمر، وسرنا في الماء ليلا تقع العين على الآثار، وسلطنا بطون الأودية وظهور
القفار، وقلوبنا تطير فرقا، وتخفق وجلا، وإن رأينا غير شيء ظنناه رجلا، لا نركن إلى الحلال ولا نجد
سبيلا إلى الماء الزلال راكبين ظهر مهمه يضل القطا في ساحته وتكل الرياح النكب دون مساحته:

سريت به أحبيه لا حية السرى تموت لا ميت الصباح يعاد

يقلب مني العزم إنسان مقلتي له الأفق جفن والظلام سهاد

وطبقنا نسير كذلك ليلا ونهاراً، ولا نبیت صياما ولا نجد إبطارا، فكنا إذا أضربنا الجوع كل الضرر، ولم
نقدر معه على الهجوع ولا على السفر ملنا إلى بعض بيوت الشعر، وقلنا الضيافة على أهل الوبر، ليست
على أهل المدر، ثم نعطف عليها عطفنا ونحن نتساقط ضعفا، ونقدم باعا ونوخر ألفا، فلا نجد إلا من يقول

أفا، ويهدد حتفا، ويضاعف الكرب ضعفا، فنخرج عن البيوت مشردين ومطردين على حالة ترحمها
الجبال الشم، وترثي لها الصخور الصم:

فنعود في البيد القفار أدلة خضع الرقب نواكس الإبصار

وما زلنا نقبل في ذروة وغارب ونطارده كل شارد وغارب:

تترامى كأنها ورق جف فألوت به الصبا والدبور

إلى أن قاربنا أرض الإسكندرية وخفت عنا هموم تلك البرية:

فيا دارها بالغور أن مرامها قريب ولكن دون ذلك أهوال

وسرنا نتقلب إلى البيوت فنحتال على شيء من القوت، وما ظنك بالقوت، وهو كف من الشعير البالي
لا نحمله إلا عن العوالي ولا نأخذه حتى نقرأ ألف رقية، ونعقد ألف خيط بألف عقدة، يطلب منا نفعها
ودفعها للصوص والذئاب، والكهوف والكلاب:

تدعو الضرورة في الأمور إلى ركوب ما لا يليق بالأدب

فإذا فتح الله تعالى تلك الحفنة منه وضعناها مع النار في الأرض حتى تتلقى ثم نفخناها من الفحم والتراب
والرماد وأكلناها:

لونا ينم لنا عليه طيبه ويزيد ألواناً على ألوان

ويلوح من مرآه مرأى حالك وكذلك كان يضيء في الأبدان

وبقيت الحال على ذلك إلى أن دنونا من المدينة وحيثئذ لمنا غرة الصخينة، فألزمنا قمرها من سحابنا
سجوها، ومحونا إشراقها كسوها، وما ظنك بخرقاء وجدت صوفاً، وما ظنك بالحلفاء أدنيت لها النار ولما
وقفت من أمر برقة على ما وقفت، وكابدت منها ما كابدت، وعرفت ما عرفت أحببت أن أذكر من
ذلك في النظم، ما يقرب للحفظ ويكون في العلم، وهي قصيدة نظمتمتها شبه الارتجال، وعلقتها بين يدي
الأوجال، وأولها:

لا قدس الله ربى كل بحري رمى بنا بخداع في الغماري

في أرض برقة لا ماء ولا شجر ولا مكان سوى الريح الجنوبي

يستوحش الوحش فيها في مسالكه ويستعيز لديها كل جني

فيها طوائف أعراب ذوي شره مبرئين من الدين الحنفي

تلقاهم بين أطمار ملفقه
من تلق منهم ثقل لاقيت أسوءهم
وجها وأسوء بالطبع الغريزي
ولا يعرفون لقرص الخبز من صفة
ولا يبببت لهم ضيف على شبع
محاربين ترى الحجاج بينهم
مجردين حفاة هالكين أسي
تلين فيها الصخور الصم راحمة
والقوم لا راحم فيهم على أحد
كيف التخلص لي من هؤلاء وما
أرقى الجمال وأرقى كل ذي وجع
وأكتب الحرز للمحموم ينفعه
ونشرة الكسب في حفطي إذا وضعت
والشقف عندي لرب البيت أكتبه
وأعرف اليوم أشقاه وأسعده
وأعرف الشهر في خف وفي ثقل
وأضرب الخط في رمل وأعرف من
وأحفظ الشعر للعربان أنسبه
فهذه كلها في برقة سبب
ولا تفتك عصا للكلاب تحملها
وقد دلتك عن علم وتجربة
لا يعرف الشوق إلا من يكابه
لا يوجد الكعك إلا عند كعكي
من فوقها كل ذي وجه غرابي
موتى يخوضون من حي إلى حي
والأكل أول منبوذ ومنسي
لمن يراها ولو كان ابن ذمي
أرحمة ترتجى في قلب برقي
تريد من شاعر فيهم ونحوي
ويستريح بنفثي كل جذري
وأعقد الخيط ما لي فيه من عي
على الزريبة تنفي كل وحشي
يلقى على باب بيت غير قبلي
والليل أعرف فيه كل دري
والعام هل مطر فيه لصيفي؟
أشكاله كل مائي وتربي
لأهله من جذامي ولخمي
للعيش إن بات فيها كل غربي
وتتكياها لدى الأمر الضروري
سل العليل ولا تسأل لطبي
لا يوجد الكعك إلا عند كعكي

ثم سرنا نجتاز على بيوت من الليف ونروي الأحاديث عن الرغبة فما يتفق لنا في الوجدادة إلا بالسند
الضعيف، وتسلسل الحال، واتصل الترحال، إلى أن وصلنا الإسكندرية المحروسة، وقد فنيينا بؤسا، وعرينا
ملبوسا، وتبدلنا صورا ونفوسا، وحملنا حشى كفؤاد أم موسى، حتى كأننا أخرجنا من القبور نخبر عن
النفخ في الصور، وهول يوم النشور، فدخلناها عشية يوم السبت الرابع لجمادى الثانية من العام المذكور،

فترلنا منها بالمدرسة العلمية المتقدمة الذكر منزلا مرتضى أعقب بالرضى، وانس وأنسى ما مضى،
فانبسطت نفسي ورجع إلى عقلي وحسي، وعاد يومي أحسن من أمسي، وجعلت أنشد أهل ودادي
وأنسى:

أنا من البدو أقبلنا نؤمكم
لأبد للصب أن تبدو صبابته
انضاء شوق على انضاء أسفار
ذا تبدل غير الدار بالدار

ثم سمعت بخبر جفنا المذكور الذي غاب عدة من الشهور، ورمى وسقه ورجع فارغا إلى تحت السور، أنه
قد كان قبلنا وصل ودخل راجعا إلى مرسى المدينة وحصل، فما كذبت ولا صدقت حتى ذهبت
وحققت، فألفيته قد اعترف بالخيبة واعتذر عن بعد الأوبة، وانتبذ وحده من بين الأجفان كلها، انتبذ من
جنى جناية لم يوت بمثلها، والناس يعظمون ذنبه جدا ويعدون شهور غيبته عدا، ويقولون له قد جئت
شيئا إذا، وهو قد أبدى وجهه ولبس حجله، وقال تعست العجلة، فأسرعت لما سمعت ما سمعت وأنزلت
منه جميع ما استودعت وتمثلت:

كان الفتى لم يعر يوما إذا اكتسى
ولم يكن صعلوكا إذا ما تمولا
ثم ضمنت رحلي، وشمرت لدخول المدينة ذيلي، وخليت بينهم وبينه، ودخلت ولم تر بعد عيني عينه،
وأخذت في تمهيد القعود والإقامة، وتحديد العهد بالأئمة المشتهرين بإمامة، فاختلفت إليهم فائتلف الشكل
والشكل، وعرفت منهم ما لم أكن عرفته من قبل، والله المنة على في ذلك والفضل:

وقد كان صرف الدهر فرق بيننا
فمن حسنات الدهر أن جمع الشمل
وقد انتقيت منهم هاهنا مستأنفا، زيادة إلى ما ذكرته من أهل قطرهم آنفا، جماعة البسوي شرفا وجمالا،
وأوسعوني برا وإجمالا، فألبسهم اللسان إحسانا، وأبرزهم البيان والبنان إنسانا فإنسانا "فمنهم" ملك قلم
الفتيا، وسالك القنى العليا، والشيخ العالم العلامة نجم الدين أبو الحسن علي بن زين الدين أبي عبد الله
محمد بن جمال الدين أبي القاسم هبة الله ابن الأنصاري الخزرجي المالكي أبقى الله بركته، عالم بالأحكام
والشروع، ومفتي الأئمة في الخطب المروع، وإمام في الحديث والنحو والفروع، وأنه النجم في أوجه،
والبحر متدفقا بموجه، له عقل راجح، وعلم واضح ونور لائح، ومع ذلك رجل صالح للخيرات إيضاحه
وخبه، وبالصالحات غرامه وخبه ومناثره الأثيرة، أبين من ابن ذكاء وأظهر من شمس الظهيرة:

وليس يصح في الأوهام شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

ولي في بلده القضاء، وأحسن فيه السيرة والإمضاء، وأجاد الحالتين السطوة والأغضاء، ثم نزعته من يده نزعا، وانتقل عنه تطبعا وطبعاً، واشتغل بالله قلباً وذهناً وبصراً سمعاً، وأقبل على العبادة والإفادة بإخلاص ويقين، فتقبل الله تعالى علمه وعمله، وإنما يتقبل الله في المتقين، ردد الاختلاف إلى بيت الله الحرام، وأطال الطواف بين الحجر والحجر والركن والمقام وجاور بالحرمين الشريفين عدة من الأعوام، فكثرت حجاته وعلت درجاته، وناجت حسناته، وحسنت مناجاته:

يقضي بنشر العلم في الناس يومه وتجفوه في جنح الظلام المضاجع

فينفك عنه يومه وهو ذاكر وينفك عنه ليله وهو راکع

انتحل العلوم دهوراً وسنين، ورزق جماعة من البنين وكلهم حملة علم، وأولو وقار وفضل وحلم، بلغوا من بره فوق مراده ومقصده، وعكفوا على تقبيل رجله فضلاً على يده، وعلامة الشيخ الصالح نجابة ولده، عمرت بفوائده المدارس، واستمرت له فيها محافل ومجالس، فعظم بها الانتفاع، وعلا فيها السماع، وتتابع لها الأشياع والأتباع، سمعت عليه جميع كتاب الملخص لأبي الحسن القابسي رحمه الله، وحدثني به عن قاضي القضاة زين الدين أبي القاسم محمد بن الشيخ الإمام القاضي العلامة علم الدين أبي الحسن محمد بن رشيق المالكي قراءة منه عليه بجميعه، وحدثه به عن والده علم الدين المذكور سماعاً منه عليه بجميعه بحق سماعه له من أبي الطاهر إسماعيل بن ظافر العقيلي عن الشيخ الجليل أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد التجيبي قراءة عليه، قال حدثني الفقيه أبو العباس أحمد بن الخطيب، قال حدثنا الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن منصور الحضرمي، قال حدثنا أبو عبد الله بن الوليد بن سعد البكري قراءة عليه، قال أنبأنا الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القابسي وجميع ثلاثيات الإمام أبي عبد الله البخاري رضي الله عنه، وحدثني بها عن الشريف تاج الدين أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد بن عبد الحسن الحسيني القرافي قراءة منه لها عليه، قال سمعتها عن الشيخ الصالح أبي الحسن علي بن أبي بكر بن زربة القلانسي قال سمعتها علي الشيخ أبي الوقت عبد الأول السجري بسنده المعلوم وجميع كتاب شرف أصحاب الحديث للحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى وقرأت عليه تفقها نحو الربع الأخير من كتاب موطأ الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه وبعض صحيح مسلم رضي الله تعالى عنه، ونحو النصف من آخر سفر من كتاب أبي عيسى الترمذي رضي الله عنه، وجزءاً كبير من كتاب الشفاء للقاضي أبي الفضل عياض رحمه الله تعالى ونحو الربع من آخر كتاب التهذيب لابن سعيد البرداعي رحم الله تعالى وغير ذلك من كتب العربية والتأليف الزهدية والوعظية، وأجازني الإجازة التامة وكتب لي

بخطه وأسانيده في هذه الكتب المذكورة مذكورة بخطي في برنامج روايتي ومولده رضي الله عنه في آخر
جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وستمائة، ومنهم الموفق للسداد، المصيب في الاجتهاد الشيخ العالم القدوة
شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الإمام مفتي المسلمين، فخر الدين أبي محمد بن الحسن بن الشيخ
جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم القمني الأنصاري الإمام الأعظم والجهيد الذي على عقده ينشر الكلام
وينظم، والفذ الذي به تفتتح المعالي وتختتم، وعنه تتضح المعارف وعنده تحيم سلالة الصدور الأعظم
والبحور الخضارم، والسيوف الصوارم والليوث الضراغم وكفاه شرفا. ممدود رواق النساء، أخذ بأفاق
السماء أنه عطارد وذلك القطر فلك. وأن ليس وراءه في اتقاد النبل واعتقاد الفضل مسلك، له البحث
الذي لا يناهض والإدراك الذي لا يعارض. والسبق الذي لا يجاري ولا يقارض أقام السؤدد حفافيه.
ويهي العلم بين يديه فما شئت من معال تليدة، ومعان طريفة، خرست لها شقاشق الفحول، وانقطعت
دونها مصاقع الخطباء لما اخترعت ما خط سواها منه المطروق وابتدعت ما نسي به زمان البديع وأتت
بالعبر التي ضاقت عنها العبارة، وسارت فلم تبلغ أدنى غايتها إلا مثال السيارة، فالبشر المسفر روض
يرف، والبر الأوفر عارض يكف، والعلم الوضح بحر طام، والحلم الأرجح طود سام، واللسان الرطب،
مهند غضب، والإحسان لا يغير مورد عذب، والذكاء المستعر زندوار، والذكاء المشتهر نور سار،
والكنف اللين مربع مهضوب، والشرف الأبين مفخر في صفح الدار مكتوب، إلى سجايا كرم، وأيمان، لم
ينفطر عليها أهل هذا الزمان رعاها ضمان الله، ولا زال نشرها نزهة الإسلام وطيب الأفواه، لقيته
بالمدرسة المعدة لتدريسه بالإسكندرية فسمعت عليه بها جميع كتابه الأربعين، المخصوصة بالتعيين، لرواية
سيد المرسلين عن رب العالمين تصنيف الشيخ الحافظ شرف الدين أبي الحسن علي بن الفضل بن علي
المقدسي. وحدثني به عن الشيخ كمال الدين أبي العباس أحمد بن شجاع بن ضرغام القرشي الشافعي
سماعا عليه بحق سماعه لجميعه على المنصف شرف الدين المقدسي المذكور. سمعت من لفظه جميع الكتاب
المسمى بكتاب الأربعين في فضل الدعاء والداعين، تصنيف الحافظ شف الدين أبي
الحسن المقدسي المذكور، وأخبرني به سماعا كذلك عن الشيخ كمال الدين أبي العباس بن شجاع بن
ضرغام المذكور بسماعه عن المصنف شرف الدين المذكور وقرأت عليه بلفظي جميع الثمانينات المخرجة
للشيخ نجيب الدين عبد المنعم بن عبد اللطيف الحاراني المعروف بابن الصقيل وهي أربعة أجزاء، وحدثني
بها عن الشيخ نجيب المذكور سماعا لجميعها عليه في يوم الجمعة خامس المحرم سنة سبعين وستمائة بمثل
الملك المجاهد بباب القنطرة بمصر المحروسة، وقرأت أيضا عليه حديث الرحمة بسنده فيه وهو أول حديث
مسلسل سمعته منه وهو أول حديث سمعته عن الشيخ نجيب الدين المذكور وأجازني جميع ذلك كله وأذن
لي في روايته عنه، وأجازني جميع ما يحمله ويرويه إجازة تامة مطلقة عامة، وكتب لي بخطه، "ومنهم"

المؤثر الديانة المستكثر الصيانة الشيخ العالم المسند شرف الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن الشيخ المحدث المرحوم عز الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن الكهف القرشي الشافعي، جملة جلال، في خيلة خلال، وموضع الاتساع، والاصطناع والاحتفال في الإجمال والازدياد، من حمده المستجاد والاستكثار من التحسن بحلله والاستظهار، فإنه بقية صالحة وغرة في دهمة الوقت واضحة، نابت في أطيب سرار، باث في مهاده فخار ثابت من المجد في حجر قرار، يتحلى بظرف حسين، ويحمل وفاء عامر بن جوين ويأوي إلى ربوة وضية، ومروءة مرضية إلى فنون علوم مقامها في العالم معلوم، ومعارف سابقة له فيها مراتب سابقة وصالحات يهئ طرقها وأسبابها، ومكرمات يسحب أذيالها وأثوابها فلقد بدا من وجوه فضله، وسداد قوله وفعله، وشمول إبانته وعدله، ما تضيق عن تقريره الرقاق، وتترفه بذكره الأسماع، وغيره ممن يشيد بناء، ويستفيد ثراء، ويستزيد جاهها وذكاء، وقد كساه الله اكتسابا ووراثه من هذه الوجوه الثلاثة، ما تنقطع دونه الأعناق، ويوضحه الإجماع والأصفاق، ويعرف به جميل مقصده في الخير ومنحاه، ومكانه من العلم لذي يلتزم كل أحد أن يحله ويرعاه "لقيته" بالإسكندرية فسمعت عليه أجزاء منها جميع الجزء المعروف بسداسيات الرازي بسماعه للجميع من الشيخ أبي البركات هبة الله بن أبي محمد عبد الله بن أبي البركات بن زروين الأزدي في يوم الخميس رابع الحرم سنة اثنتين وستين وستمائة بسماعه لجمعيه من أبي القاسم عبد الرحمان بن مكي بن حمزة بن موقى السعدي الأنصاري بسماعه لجمعيه من الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي المذكور، قال: أخبرنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدي بمصر قال: أخبرنا عبد الله بن محمد بن بطة العكبري بما أخبرنا عبد الله بن عبد العزيز البغوي حدثني يحيى الحماني حدثنا عطوان بن مشكان حدثني حمزة بنت عبد الله اليربوعية قالت: ذهب بي أبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما قد رددت على أبي الإبل، وقال: يا رسول الله أدع الله لابنتي هذه قالت: فأجلسني في حجره ووضع يده على رأسي ودعا لي، وبه إلى الرازي، قال: ومن أغرب ما وقع لي وأقربه إسنادا وهو من الخماسي ما أخبرنا القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدي بمصر قال حدثنا عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري، قال: أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي قال: سألت أحمد بن عبيد بن أبي طيبة وكان يزعم أنه سمع من أنس بن مالك والحسن وابن سيرين وحدثنا عنهم فسألته عن اسم أبي طيبة فقال اسمه ميسرة قال عبد الله وقال أحمد بن عبيد صمت لله مائة وتسعة وعشرين رمضان، قال عبد الله: وسمعت منه في سنة خمس وعشرين ومائتين انتهى أول حديث من هذا الجزء المذكور وقد أذن لي في روايته عنه جميع ما يحمله ويرويه إجازة تامة مطلقة عامة وكتب لي بخطه "ومنهم" الذي بشر بإنجاز إجازته الوعد، وأثار بره سحابا يحدوه الرعد، الشيخ العالم الكبير عماد الدين أبي الحسين بن أبي بكير بن أبي الحسين الكندي المالكي قد كنت لقيته في المرة الأولى، ولم أعمل في

إثباته اليد الطولى، لاستصعابه، وقلة استصحابه، وانقباضه عن حملة العلم وطلابه، ثم رأيت أن إهمال ذكره إهمال لقدره وإخلال به بين أهل قطره فشفت فيه عمله، وأعلقت هذا الديوان اسمه، فقد علم الله أني لا أمين ولا أميل، واغتفر الكثير القبيح إذا تبعه التزر الجميل. وهذا الرجل وإن ألزمه الطبع صلفاً، وناء بجانبه أنفا فقد رفعه العلم وعضده الحلم، وكان له

الحكم، فلم يعرف منه الظلم، ولى رتبة القضاء العلى، ببلد الثغر الإسكندراني، فجرى على النهج السوي، والسنن الرضى، فجر ذيول العز طلقاً، وجرع الحلو والمر جزعاً ومذاقاً وحظى فرقا، وأسعد فرقا، وأنحس فرقا، ثم عزل فلحقه الخمول، وعثر به الجد ففاته المأمول وبقي مطرحاً، وأقطع الإهمال مسرحاً:

ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالى الجو وانحط القتام

وما زال يدرس في أحسن المدارس، فيغص مجلسه بالواقف والجالس، ويحضر بين يديه خيار الفضلاء، وكبار العلماء، كلهم معتمدون عليه مستندون إليه، مستفيدون بين يديه:

وكل خاشع الصوت لديه خاضع النطق

وأنه لأجل إمام وأكبر نحير، ولا سيما في حديث وعربية وتفسير، وأقول فيه قول من يختصر في ذكره، ويصدق سنة فكره، هو مالك أزمة علو اللسان، وإمام تفسير الحديث والقرآن، والمعول عليه في مذهب مالك بالإجماع والمشار إليه مهما ذكر علم العربية في سائر البقاع، سمعت عليه كثيراً أول الأمر عند ورودى لذلك الثغر، فلما قفلت في العودة ظننته بعض العدة وقلت: العماد مشتق من العمدة، فاستأذنت عليه بأبيات ارتجلتها، وأقمت بباب منزله وأرسلتها وهي:

وارد جاء لاثم لك تربا أصدق الناس في جلالك حبا

طبق الأرض من ثنائك شرقا وسيملي مسامع الأرض غربا

طلب الأذن أن يراكم بديها ثم إن شئت زاد أوزار غبا

أتراكم أسعفتموه لقاء أم تراه عن بابكم بان صبا

فأعرض عن وجهها الحسن، ونكب عن قصدها تنكيب الجفن المهجور عن الوسن، ففجبت من الجفا، وتعذر الوفا، ثم أعاد نظره فعاد إلى بذل الفضل والخلوص والصفاء، فرسم لي خطه بالإجازة، ووسمني بسمه السماع وإجازة الإجازة، ومما سمعت عليه جميع الجزء المنتقى من كتاب فضل الخيل وما يستحب وما يكره من ألوانها وشيائها، وما جاء في كراهية أكل لحومها وإباحتها وما ورد في سباقها وسهامها وصدقائها، تأليف الحافظ شرف الدين أبي محمد عبد المومن ابن خلف بن أبي الحسن الدمياطي انتقاء

الفقيه الفاضل تقي الدين أبي المعالي محمد بن جمال الدين رافع بن محمد السلاحبي بسماعه هو لجميع كتاب فضل الخيل المنتفي فيه هذا الجزء على مؤلفه شرف الدين الدمياطي المذكور في شعبان خمس وتسعين وستمائة بالمدرسة الظاهرية من القاهرة المعزية ومن أشياخه المجيزين له بالفتيا والتدريس على مذهب مالك رضي الله عنه قاضي القضاة ناصر الدين بن الأنباري وغيره، وأخذ علم العربية عن الشيخين الإمامين الدينيين أبي عبد الله محمد بن عبد الله النحوي الشهير بحافي رأسه، وبهاء الدين أبي عبد الله محمد بن النحاس الحلبي، وأجازاه كل واحد منهما بإقراء فن العربية وسمع الحديث من جماعة منهم الحافظ شرف الدين الدمياطي المذكور وقاضي القضاة تقي الدين أبو الفتح محمد ابن مجد الدين أبي الحسن الشهير بابن دقيق العيد وغيرهما، وأجازاه كل واحد منهم إجازة تامة مطلقة عامة، وسمع على الشيخ عبد النصير المريوطي بعض مقامات الحريري وحدثه بها عن أبي عماد عن ابن النفور عن الحريري وقد سمعت بعضها عليه، وبعض كتاب مسلم ابن الحجاج وبعض كتب التهذيب للبرادعي وبعض كتاب الجزولية في النحو وبعض كتاب الفصيح لأبي العباس ثعلب كل ذلك تفقها مع غير ذلك من الكتب وأجازني جميع ما يحمله ويرويه إجازة تامة وكتب لي بخطه ومولده في شوال سنة أربع وخمسين وستمائة، "ومنهم" العلم الذي بأنواره الاهتداء والعالم الذي بآثاره الاقتداء، الشيخ المحدث الحافظ معين الدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين أبي العباس أحمد بن فتوح ابن أبي الذكر المصغوني الشافعي رضي الله عنه هذا رجل جليل، له فضل جزيل، وفعل جميل، وعقل نبيل، وطول حفييل، وعلم فضيل، وحسب أصيل، ومحاسن لم يحوها من العباد إلا قليل، فإن ذكر كرم المنصب وشرف المحدث كانت شجرته المصغونية في قرارة المجد والعلاء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، وأن وصف حسن الخلق والخلق فله طلعة كالشمس على وجه الأرض وأخلاق خلقت من الكرم المحض، وشيم تشام منها بارقة المجد وتنم عليها خمائل الروض، وإن مدح التواضع وبعد المهمة ضربنا به المثل، وتمثلنا همة على هامة زحل، وأما سائر آلات الفضل وأدوات الخير، وخصال المجد وفنون العلم؟ فقد قسم الله تعالى له منها ما يباري الشمس ظهورا ويجاري القطر وفورا والله هو إذا خاض في عجائب علم التحديث، وسلك طرقها بالباع المديد، والسير الحثيث وأخذ في التعديل والتجريح، وجذب أهذاب الآداب والنحو والتاريخ فهناك ترخر بحار العلوم، وتذخر جواهر المنثور والمنظوم، ويجتمع الحسن برمته والإحسان بكليته، وتضيق المجالس عن الجلوس، وتوسع أقدام الأقلام في سطور الطروس، صيغ من أشرف الجواهر وردي رداء المحامد وبوئ ببوحة الكمالات فلا غرو أن بدا التأخر للمتقدم وغدا العالم في صورة المتعلم:

أن يجمع العالم في واحد

وليس لله بمستنكر

ارتحل في طلب العلم شاباً ما أحكمت يده عقد الإزار، ولا سما فأدرك خمسة الأشبار، ثم آب وقد حمد إيا به، وأجزل ثوابه، ونفع به في طلبته وصحابه، فهو اليوم رحلة الزمان وخليفة ابن النعمان والإمام الذي علقت به الأمان فأصبحت في الأمان، مجالسه زينها الصدق وحسنها الحق، وأحبها الخالق والخلق، فنورها يعلو على النسرين، ويرغب في خير الدارين، وإن مشائخه لتزيد على الألفين، حقاً أقول أنه الآية الله في الأرض، وما فهمت من محاسنه إلا ببعض البعض، فالغلو فيه القليل، والخلو منه ساعة خمول، فما انتجاع الحمائل في أبرديه، ولا اجتماع الفضائل إلا من برديه ولا العلياء إلا في مخبره ومنظره، ولا الدنيا إلا بين مبدأه ومختصره، ولا العز إلا التعلق بأذيله، ولا الأمن إلا التقي بظلاله، وردت ذلك الثغر لا رشف ريقه، وأكشف فريقه، وقد رافقني البين، وفارقني الغبن، وأصابتني العين، فتلقاني رضي الله عنه بمحيا حيي، وصافحني براحة أريحى، وعاملني ببرصفي، وبشر حفى:

فبشرت آمالي بشخص هو الورى ودار هي الدنيا، ويوم هو الدهر

ومكثت زماناً تحت أفضاله، وواسع نواله، فلما دخل شهر رمضان ضاعفر في المعونة وخفف على المثونة، وأفاض على وعلى من لدي عوارفه فيضا، وأوجب ذلك على نفسه الكريمة سنة وفرضا، حتى رحلت مسافراً من عنده، وحينئذ بنت برغم مكارمه عن رفده، وقد تحصل لي عليه ما بين قراءة وسماع ما ينيف على المائة تأليف جلها بل كلها منقولة بخط يدي من أصوله لعتيقة مصححة عليه على ما تقتضيه إمامته في تلك الطريقة، وأجازني غير ما مرة وكتب لي في غير ما موضع بخطه، ومن جملة ما سمعته عليه جميع القصيدة اللامية الشاطبية المسماة بحر الأمان وحدثني بها عن الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الكندي سماعاً من لفظه بسماعه من الشيخ أبي الحسن علي بن شجاع بن سالم العباس الهاشمي حدثه بها عن ناظمها أبي القاسم الشاطبي سماعاً وقراءة، ومما سمعت عليه بلفظه جميع الأربعين حديثاً تخريج قاضي القضاة تقي الدين أبو الفتح محمد المشتهر بابن دقيق العيد. بإجازته منه إن لم تكن سماعاً وجميع الأربعين البلدانية السلفية وحديث الرحمة المسلسل بشرطه، وجميع مسند حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وجميع العمدة في الحديث تأليف أبي محمد عبد الغني بن سرور المقدسي رحمه الله وجميع الأربعين حديثاً على مذهب المحققين من المتصوفة جمع الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق رحمه الله ثم قرأت جميعها عليه بلفظي مرة ثانية قراءة تصحيح وكذلك قرأت عليه بلفظي مرتين جميع الأربعين السباعيات المخرجة من سماع الشيخ رضي الدين أبي المعالي عبد المنعم ابن عبد الله الفراوي النيسابوري وقرأت عليه بلفظي مرتين ثنتين كذلك جميع ثلاثيات الإمام أبي عبد الله البخاري

رضي الله عنه وقرأها هو وسمعتها على جماعة منهم الشريف تاج الدين أبو الحسين علي بن أحمد الحسيني القرافي قرأها عليه بلفظه وقد تقدم سنده فيها آنفاً وقرأت وسمعت عليه غير ذلك مما قد استوفيته في برنامج روايتي، وأخبرني أبي عبيد الله المهدي كان أديباً شاعراً وجال في البلاد بعد قتل أبيه ودارت عليه صروف الدهر، واضطر إلى الاستجداء بالشعر حتى مدح الوزير ابن عطف وكيل أبيه بقصيدة منها:

أقول لا مالي ستبلغ أن بدا

محيا ابن عطف ونعم المؤمل

فقلت لها أن لاح يفنى التعلل

فغافل عنه فكتب إليه:

أياها المكن من قدرته

لا يراك الله إلا محسنا

إنما المرء بما قدمه

كنت فانظر فعله في ملكنا

فمطال النفس من شر العنا

لا تكن بالدهر غرا وإذا

مدكفا نحو كف طالما

أوارحني بجواب مؤيس

فقال صاعقة لم يرسلها الله إلا على، ثم قال لو كيلاه أدفع إليه خمسة عشر درهما. فقال: يا سيدي ما لهذا القدر رونق، أما عشرة أو عشرين، فقال: أدفع إليه عشرة فقال له الوكيل ما قلت لك هذا إلا لتطلع همتك ولا يكون كلامي شرفا على الرجل فقال: يا هذا دع الفضول فغما أنت وكيل لا مشير فقال فارجع إلى الحال الأول فحرد وحلف إلا يعطيه شيئا فتحيل الوكيل في خمسين درهما، ودفعها إلى عبيد الله فسمع ذلك ابن عطف فقال له: من أنت في الكلاب حتى تعطي خمسين كأنك معن بن زائدة أو جعفر البرمكي مثلك لا يستخدم فصرفه فقدر الله موت الوزير فتزوج الوكيل زوجته وسكن داره فقال في ذلك عبيد الله شعرا أوله:

أيا دار قولي أين ساكنك الذي

أبي يومه أن يترك الشكر خالدا

وأضحى وكيل كان يأنف فعله

فقلت: أين هذا من مالك بن طوق رحمه الله عليه فإنه كان جالسا في بهو مطل على رحبة ومعه جلساؤه إذ أقبل أعرابي نخب به ناقته فقال: إياي أراد ونحوي قصد، لعل معه أدبا ينتفع به ثم أمر حاجبه بإدخاله فلما مثل بين يديه قال ما أقدمك يا أعرابي قال: المل في سيب الأمير والرجاء في نائله، قال: فهل قدمت

أمام غرضك وسيلة، قال: نعم أربعة أبيات فلتها نظما، قال: فهل لك أن تنشدا أبياتك ولك أربعة آلاف درهم، فإن كانت أبياتك أحسن فقد ربنا عليك وإلا فقد نلت مرادك وربحت علينا، قال: قد رضيت:

وما زلت أخشى الدهر حتى تعلقت يداي بمن لا يتقي الدهر صاحبه
فلما رءاني الدهر تحت جناحه رأى مرقا صعبا منيعا مطالبه
رءاني بحيث النجم في رأس باذخ يظل الوري أكنافه وجوانبه
فتى كسواء الغيث والناس حوله إذا أجذبوا جادت عليهم سحائبه

قال ظفرنا بك يا أعرابي، والله ما قيمتها إلا عشرة آلاف درهم قال: فإن لي صاحباً شاركته فيها ما أراه يرضى ببيعتي، قال: أترى حدثت نفسك بالنكت، قال: نعم، وجدت النكت في البيع أسهل من خيانة الشريك فأمر له بها وأخبرني، قال: دخل المظفر الأعمى على الملك الكامل فقال له الملك نصف هذا البيت: وأنشد بديها: قد بلغ الشوق منتهاه.
فقال المظفر: وما درى العاذلون ما هو؟ فقال الملك: وغنما غرهم دخولي.
فقال المظفر: فيه فهموا به وتاهوا.

فقال الملك: ولي حبيب رأى هواي فقال المظفر: وما تغيرت عن هواه فقال الملك: رياضة النفس في احتمالي فقال المظفر: وروضة الحسن في حلاه فقال الملك: أسمر لدن القوام ألمي فقال المظفر: يعشقه كل من يراه فقال الملك: ريقته كلها مدام فقال المظفر: ختامها المسك من لماه فقال الملك: ليلته كلها رقاد فقال المظفر: وليلتي كلها انتباه فقال الملك: وما عسى من يهين عبدا فقال المظفر: بالملك الكامل احتماه. وكانت بيد الملك رقعة يكتب فيها كل ما نظمناه فرمى بها تجنبا أن يكتب مدحه بيده، ثم زاد المظفر بعد ذلك وأخبرني قال: أخبرني أبو عبد الله محمد بن حماد القطان التونسي قدم علينا حاجا قال: حدثني الشيخ أبو محمد المغربي، قال: لما جئت برسم الحج إلى الديار المصرية تعرفت بشيخ من المتصفة، فقال لي: أريد أن أجمع بينك وبين الأمير ابن يغمور فأجبت: إلى ذلك فجئنا إليه وهو في بستان فاستأذنا فأذن إلينا، وأمرنا بالجلوس، فجلسنا وبين يديه مملوك صغير حسن الصورة، ومماليك أخرى بين يديه. . . وبين يديه محبرة، فقال له الشيخ عني، هذا الرجل أديب فاضل يقول الشعر فسر بذلك وأخذ غرارة وكتب فيها من نظمه:

لاح بدرا وتثنى غصنا فحكى الشمس سناء وسنا

ثم نادى الحسن هل من عاشق. . . ثم قال لي: أجز هذا البيت فارتج على زمانا، إذ دخل نوتي من المركب فقال ليبيك، فألهمني كلامه فقلت: "فأجاب القلب لبيك أنا. . ." فاستحسن ذلك ووصلني،

وأخبرني قال صنع بعض الفضلاء ببغداد طعاما ودعا إليه الناس فأجابوا دعوته وكان في جملتهم أبو العباس المبرد فلما فرغوا من أكلهم دعا رب المنزل جارية له خلف ستر، وقال لها: اسمعينا شيئا فقالت:

وقالوا لها هذا حبيبك معرض
فما هو إلا نظرة بتبسم
فقلت ألا أعراضه أيسر الخطب
فتصطك رجلاه ويسقط للجنب

فقام كل من كان في المجلس وطابوا بأجمعهم وداروا إلا أبا العباس فلم يقم ولم يتحرك. فقال له رب المنزل: لِمَ لَمْ تقم، فقالت الجارية: دعه يا سيدي إنما لم يقم لأنه ظن أني لحت في قولي، هذا حبيبك معرض، ولم يعلم أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قرأ وهذا بعلي شيخا فقام فطرب حينئذ أبو العباس وطاب، وقام ودار حتى شق ثوبه "وأخبرني" قال حضر ابن حجاج البغدادي وليمة فتأخر الطعام فكتب لصاحبها:

يا ذاهبا في داره جائيا
قد جن أصحابك من جوعهم
لغير معنى وبلا فائدة
فاقرأ عليهم سورة المائدة

وجميع ما أنشدني من القصائد والمقطوعات يحتمل سفرين كبيرين، وقد تقيد لي جميع ذلك في غير هذا بخطي وبخطه رضي الله عنه فما لخصت منه هنا ما أنشدنيه لمهلل الدمياطي:

يا بانة الرمل هل مرت بك الإبل
ويا عرب النقى هل للقا أمد
وساحة الشيخ هل حطت بك الكلل
ويقتضي بحماكم ذلك الأمل
رحلتكم بفؤادي يوم رحلتكم
وحقكم ويمين الحب صادقة
يا سائق البدن بالبطحاء فقف نفسا
بدر تمام من الأكوان مطلعها
يا للرجال عسى خل يعين فتى
قد دار بالوجد حتى شاب مفرقه
لعل عيني بحسن القوم تكتحل
في القلب والطرف قد حلوا وقد نزلوا
حلف الغرام رمته الأعين النجل
ومارس الحب حتى جاءه الأجل

وأنشدني لتاج الدين السرخدي:

تأنوا ففي طي النسيم رسائل
وما مال إلا للسؤال
وميلوا فإن البان بالسفح مائل
حديث هوى فاستحدثوه وسائلوا

روى خبرا عن بان نعمان مرسل
خذوا عن يمين البان قد بلغ الهوى
وقصوا غرامي للنسيم فإنه
وميلوا إلى رمل الحماعل سربه
وإن سؤالي للنسيم علالة
كما أن دمعي للمنازل سائل

وأنشدني لعلبي بن مسعود الحلي المعروف بالذهبي وهو من شعراء الملك الناصر:

إلى كم تراني يا خليا من الوجد
وكم فيك جرعت الهوان بمنزل
أعيد وأبدي ما أحس من الهوى
وبرق تراءى من تهامة موهنا
سرى خافقا من أيمن الغور مهديا
وأضحى على وادي الأراك مخيما
لك الله يا برق الغضا، أن للغضا
وتعرض عن بئي وتخلف لي وعدي
علمت به أن المنازل لا تجدي
على رسم دار ما يعيد وما يبدي
فأوهمني قرب المزار على بعد
إلى الماء والجمر المضرم في نجد
يلوح ويخفى مثل حاشية البرد
بقلبي ما للنار من مهجة الزند

وأنشدني لكافور بن عبد الله الخصمي خدام روضة النبي صلى الله عليه وسلم وهي قصيدة طويلة:

أولها: وحق الهوى ما هبت الريح من نجد
وإن لاح برق من ثنية لعلع
هلالية تحكي بوجهها
على أنني ما زلت منذ علقتها
فأما على شوق يتاح إلى الثوى
أردية الخدين من ترف الصبا
صلي واغمني شكرا فلا وردة الربا
خليلي أن الصدر ضاق عن الجوى
وأنشدني للشريف بن الجلاوي الموصل:

حكاها من الغصن الرطيب وريقه
وما الخمر إلا وجنتاه وريقه

هلال ولكن أفق قلبي محله
غزال ولكن سفح عيني عقيقه
على خده جمر من الحسن مضرم
يشب ولكن في الفؤاد حريقه
على مثله يستحسن هتكه
وفي حبه يجفو الصديق صديقه
أحن إليه كل حين صبابه
وقد سد من بعد المزار طريقه
وأشتاق أكناف الحماحين حله
ومن ذا الذي ذكر الحما لا يشوقه

وأنشدني لأبي مختيار الأبله البغدادي المشهور برقة القول في الغراميات:

بأي لسان للوشاة آلام
وقد علموا أني سهرت وناموا

أهيم وما أظهرت في الحب بدعة
ولو أنهم ذاقوا الغرام لهاموا
هل العشق إلا لوعة في جوانحي
تتم عليها أنه وغرام
الأم على حبي وهو مبرح
وأكبر حب في هواك ملام
أيستكثرون الوصل لي منك ساعة
وقد مر عام للصدود وعام

وأنشدني قال أنشد أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري لمحمد بن أبي أمية:

مل الوصال فعاد بالهجر
وتكلمت عيناه بالغدر
وظللت محزونا أفكر في
إعراضه عني وفي صبري
ما نلت منه في مودته
يوما أسر به مع الدهر
في كل موضع لذة حزن
يغتاله من حيث لا ندري

وأنشدني قال أنشد أبو محمد بن القاسم الأنباري لخالد الكاتب:

قد القضيبي حكى رشاقة قده
والورد يحسد وردة في خده
والشمس جوهر نورها من نوره
والبدر أسعد سعده من سعده
خشف أرق من الحياء بهأوه
ومن الفرند المحض في أفرنده
لو مكنت عيناك من وجناته
لرأيت وجهك في صفيحة خده

"ومنهم" الأثير النائل، الكثير الفضائل، الشيخ الإمام، القدوة تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن هبة الله

بن احمد المقدسي الأنصاري الشافعي نفع الله تعالى به، ذو الرياسة العلية والسياسة العلمية، والمراتب

السنية والمناقب السرية والهمم البعيدة الزكية، والشيم الرضية المرضية وأفضل الفضلاء بقطر الإسكندرية

من رجل انتهى إليه العلم ووقف عليه العقل واختصه الكرم، وبعد له الصيت ووسمه الصدق وعظمه العالم وخلقته العبادة، وأدبه التواضع، وارتضاه التصوف ووسعته السنة وأحبته الأمة، وجرت على يديه النعمة، بسيط الكف رحب الصدر موطأ الأكناف سهل الخلق، كريم الطباع غيث مغيث وبحر زخور، ضحوك السن بشير الوجه، بادي القبول، يستقبلك بطلاقة ويخبرك ببشر، ويستدبرك بكرم غيب وجميل، نشر، ريان من العقل، خميص من الجهل، وراجح العلم، ثاقب الرأي، طيب الخلق محض "كذا" الظرفية، كاس من كل مكرمة، عار من كل ملامة، إن سئل بل، وإن قال فعل، فلم يحو فضله العصر، ولم يبد مثله ذلك الصفع، وذلك القطر، ولما درت له درر أخلاق التوفيق فشرب ربه، وهبت له نسيمات الإرشاد، فتنسّمها ذكية عنبرية، والتاحت له شمس المعارف، فالتمحها ببيضاء نقية، ودعته المعالي لنفسها فأسرع إجابة دعوتها المعنوية إذ لا نطقية، اصطفته الخطّة الشرعية، وارتضته إلا مرة القاضوية، فهو رئيس كتابها ومنشئ شروطها وآدابها، ومفتي مشكلها وإعراها، والعارف بنقضها وإبامها، والعاكف على تنقيح نوازها، وتنفيذ أحكامها ومع سمو قدره ونفوذ نهيه وأمره، فالناس منصفون في سبقه، ومعتفون ببخس حقه، عارفون بما يجب لعلمه وفضله وحذقه، لقيته بمثله من الإسكندرية لآخذ عنه واستفيد منه فأراني من فضله ما أتى بخرق العوائد وأتحفني بأعظم التحف وأكبر الفوائد:

مواردها في فم الصادر

لقد كان لي روضة عذبة

فيرتع في مونق زاهر

أقلب طرفي بأرجائها

وقد تحصل لي بخط يده البارع جملة تفتخر المهارق بما افتخارا وتطلع في أفق الطروس ليلا ونهارا فإنه:

نكر على السحب أن بنبتن أزهارا

تبت يمانه زهرا في الطروس ولا

ونجعل القلم النفث سحارا

خط هو السحر لكنا ننزّهه

ومما قرأته عليه بلفظي كتاب عيون الحقائق تأليف شيخه العالم الكبير الشهير الولي لله تعالى أبي سليمان داود الشاذلي نفع الله ببركته وهو ديوان عجيب من أحسن ما جمع في علم التصوف ومن أصل شيخه الذي بخطه البارع نقلت أصلي منه ومعه قابلته وعليه صححته، حدثني به عنه قراءة عليه ومما أسمعني من لفظه جميع الجزء الذي ألفه في الطريقة الصوفية فأبدع فيه تأليفا وإنشاء واطلع منه كواكب العجائب تشرق صباحا وتروق عشاء، وجميع الأحاديث الأربعينية البلدانية السلفية بحق قراءته لجميعها على الشيخ المحدث محي الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن مخلوف بن عبد الرحمن بن جماعة بسماعه لها على الشيخ أبي الفضل جعفر بن علي بن هبة الله الهمداني نقلا بسماعه لها من مخرجها الحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد السلفي رحمه الله وقد سمعت عليه أجزاء كثيرة وأحاديث مسلسلّة عديدة منها حديث الرحمة المسلسل

بشرطه وأجازني وكتب لي بخطه وأخبرني وقال:

أخبرني الفقيه العالم أبو بكر الأذفري قال: أخبرني الفقيه حرب من أهل دمشق قال: شخص من الفقراء لإخوانه أحب اليوم أن يجتمع وأغني لكم قال فاجتمعوا فغنى لهم:

سلي نجوم الدجى يا طلعة القمر
عن مدمعي كيف يدمي فيك بالسهر
أيه بعيشك ماذا أنت صانعة
من الجميل فهذا آخر العمر

ثم شهق ومات رحمه الله تعالى، وأخبرني أبو بكر المذكور عن القاضي شمس الدين بن القماح قال: سمعت الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يذكر في مجلس درسه بجامع ابن طولون أنه حضر سماعا وكان هناك فقير فغنى مغن من أبيات ابن الخياط:

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه
فقد كاد رياها يطير بلبه
وأيا كما ذاك النسيم فإنه
متى هب كان الموت أيسر خطبه
أغار إذا آنست في الحي أنة
حذارا وخوفا أن تكون لحبه
وفي الركب مطوي الضلوع على جوى
متى يدعه داعي الغرام يلبه

قال فقال الفقير لبيك ورفع رأسه فإذا هو ميت.

"ومنهم" مفتي الإسلام، فخر الأنام، الشيخ الإمام فخر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الفضل بن عاصم الذي له الكرامات الظاهرة، والآيات الزاهرة، والمجاهدة الوافرة، والبيت الذي بالصلاح مشهور، وبالرياسة في التقدم على الصوفية مذكور، فهو شيخ الطريقة، ومعدن الحقيقة نشأ مذ كان على الطرائق العلمية المليمة وترى في حجر الحماية بعين الولاية لما سبق له من الرعاية بالعناية الأنعامية، وحباه سبحانه بأن ألهم هممه العلية للاهتمام بالعزلة والفراغ عن الشواغل الدنيوية، ومنحه بصدق المجاهدة ومراتب المراقبة، ومشاهد المشاهدة ما منحه من مواهب العرفانية، وخصائصه الإحسانية، فلم يزل يتقلب في أطوار العبادة، ويصحب أهل الفضائل ويلازمهم للإفادة والاستفادة، مترقيا إلى أفلاكهم، وفائتا شأوا إدراكهم، فحفظ أنواع العلوم الربانية ولحظ أسرار الخطرات الواردة الإلهامية، فظهر عند فنائه في فناء معارجها وبر حين هب عليه نسيم القرب، فتموجت معارف بحارها وبحار معارفها، وأقام يقيم رسوم العلوم الدراسية، بيد أعمال الطاعة، فلاح في معادن أسرارها، ومشارك أنواره، ما شئت من شواهد البرهانية ودلائله الإيمانية، إلى ما حوى من بدائع المواعظ الزهديات وروائع الحكم الأدبيات التي تبرقت بنور الصباح، وحسن الأوجه الصباح وتخلقت بنشوة الراح، وارتياح الأرواح، فتجلت لها أنوار جلت ظلمات الأفكار الجسمانية، وتبدت لها أسرار محت بقايا الأطوار الروحانية:

فما سر بيان الراح في روح وامق

بأنفس منها في نفوس وعاتها

سقانا بها حتى سكرنا مدامة

فكيف لنا بالصحو من نشواتها

فهاهو واحد زمانه وفريد أوانه، وواسطة نظام العقد الذي تجلى بلؤلؤه ومرجانه، وشاع وذاع فملاً القلوب والأبصار والأسماع، بما راق وراع، من فوائده البيانية، وفرائده التيبانية وعوائده الدنيوية والأخروية، قد صفا من الكدر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر، وفاق رجال الأمصار والآفاق من البلاد الإسكندرية والمصرية والشامية، لقيته بمدينة الإسكندرية فقرأت وسمعت عليه كثيراً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في تأليف عديدة منها جميع الجزء المسمى بالمجالس الثلاثة من امالي الحافظ أبي الحسن علي بن الفضل بن علي المقدسي رضي الله عنه بسماعه لجميع الجزء في سنة أربع وثمانين وستمئة على الشيخ شرف الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الخالق القرشي بسماعه لجميعه من مخرجه المقدسي، وقرأت وسمعت عليه غير ذلك من الكتب والأجزاء والأحاديث المسلسلة وغيرها مما قد استوفيته في برنامج روايتي، وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة، وكتب لي بخطه وأخذت عنه في التصوف تأليف عديدة نقلت منها هنا ما نصه:

أما الصوفي فهو العالم بما لا بد في أعمال الطاعة منه، المقبل على الله بوجهه كله المتجرد عن نفسه القائم في شيء بإرادة ربه، سمعت شيخنا الإمام قطب الوقت شهاب الدين أبا عبد الله عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد السهروردي رضي الله عنه يقول: من عمل ولم يعلم كان كمن يبذر في السباح، ومن علم لم يعمل كان علمه ضائعاً، وأما الفقير فهو المقبل على الله تعالى بوجهه المتمكن من تربية ظاهرة وباطنة بصريح العلم الذي لا تفاوت في معاملته بين خلوته وجلوته، المتطلع بترك المال والجاه إلى ما تحقق عند الله من العوض في المثال، قال فارس رضي الله عنه: قلت لبعض الفقراء رضي الله عنه ورأيت عليه أثر الجوع ألا تسأل قال: أخاف أن أرد فلا يفلح الراد، وقال محمد بن ياسين: سألت ابن الجلاب رضي الله عنهما عن الفقر فذهب ثم رجع فقال: كانت عندي أربعة دنانق فاستحييت من الله أن أتكلم في الفقر وهي عندي فذهبت حتى أخرجتها، ثم تكلم، وهذا يظهر الغنى في الفقر، وقال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه إظهار الغنى في الفقر أحب إلينا من الفقر، وأن يكون العطاء أحب إلينا من الأخذ.

والإرادة هي القصد إلى طريق السالكين إلى الله تعالى وهو أول منازلهم والمريد هو القاصد إلى تلك الطريق، وأعلم أن الخرقه خرقتان خرقه تبرك وخرقة إرادة، وخرقة التبرك حقوق، منها لا يمنع طالبها ولا يرد مع صحة القصد خاطبها وأن يلقاها بالقبول، ويرجو ببركتها الوصول إلى أهلية خرقه الإرادة، وأن يجالس إلى أهلية خرقه الإرادة، وإن يجالس هذه الطائفة متشبهها بهم متزييا بزيهم متأدبا بأدابهم ناظرا إلى

سيرهم وأحوالهم، متعرفا بذلك عوارف بركاتهم، ولها شروط منها ما هو شرط في صحة لباسها ومنها ما هو شرط في دوام حكمها، أما الشرط الأول، فهو الأيمان بطريق القوم، قال شيخنا رضي الله عنه الأيمان بطريق الصوفية أصل كبير، وذكر قول الجنيد الأيمان بطريقنا هذه ولاية فقال وجه ذلك هو أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة وآثار مستعذبة عند أكثر الخلق لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم، وإشارتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه، و"الأيمان بذلك أيمان بالقدرة، ولهم علوم من هذا القبيل، ومن أهل الملة من أنكر الكرامات فلن يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله بمزيد عنايته، الشرط الثاني سلوك الطريق التي لا تتوجه على سالكها من حاكمي العقل والنقل لوم فإن عصوك فقل أني بريء مما تعلمون فإذا حرك لباسها بحركة تنافي طريق القوم متعمدا لذلك مصرا عليه غير مجيب إلى الرجوع عنه تترع خرقة المشايخ عنه، ويصان حریم احترامها عنه، فإنها محترمة شريفة مكرمة، لأنها شعائر المقربين، وحلية الأبرار المتقين، قال إبراهيم بن شيبان رضي الله عنه كنا لا نصاحب من يقول نعلي، وقال أبو احمد بن القلانسي رضي الله عنه دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فأكرموني فقلت يوما لبعضهم أين إزارني فسقطت من أعينهم، ودخل الرود باري رضي الله عنه يوما دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق فقال صوفي وله باب مغلق، فكسر وأنفذ جميع ما وجده فيه إلى السوق، فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئا، ودخلت امرأته رمت بكساء كان عليها وقالت بيعوه فهو من بقية المتاع وقالت مثل هذا الشيخ يباسطنا ويحكم علينا وندخر شيئا عنه، ومن آدابها أن يصلي لباسها عقب إلباسها ركعتي القدوم بالإجماع من سفر الغفلة لى وطن الوصلة، ثم يقبل على تقبيل يد الشيخ على عادة دخول الرياضات في تقديم صلاة القدوم على صلاة التسليم، ومن فوائدها أن ببركتها تلوح للباسها إشراك الفتى فيحذرهما ويعلم أن النكير يشتد عليه من كل طائفة فينكرها، وإن بدا منه اضطراب في شيء من ذلك فذلك لأنه:

كالمهر لا يعرف اللجاما

ضاق بحمل العذار ذرعا

وأنشدني رضي الله عنه لطاهر بن حسن المخزومي:

وعليه من نسج المسوح مرقع

ليس التصوف أن يلافيك لفتى

فكأنه غيها غراب أبقع

بطرائق بيض سود لفقت

يخشى الفتى فيه الآلاه ويخشع

أن التصوف ملبس متعارف

وأنشدني أيضا لغيره:

ولا بكأوك أن غنى المغنونا

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه

ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا

ولا صياح ولا رقص ولا طرب

بل التصوف أن تصفو بلا كدر

وتتبع الحق والقرآن والدنيا

وأن ترى خاشعا لله مكتئبا

على ذنوبك طوال الدهر محزونا

"ومنهم" لغمر الدم، الغر الشيم، الشيخ العالم الأصيل جمال الدين أبو عبد الله محمد بن شرف الدين محمد بن المنير. له البيت الذي نعى على قواعد الأديان الصحيحة، وسمى على عمد الأعمال الصالحة والأنساب الصريحة، والعلم الذي أنارت ثواقب مفاخره ومآثره في أقطار الآفاق وآفاق الأقطار، وطارت مناقب نزاهته وعدالته في الخافقين كل مطار وانتظمت أسلاك أصالته في أجياد الأسطار وهمت سحائب كرمه على الداني والقاصي كالغيث الواكف المدرار. وسرت أمثال علمه سرى نسيمات باسمات الأزهار. وبهرت صفات شخصه النفيس الجوهر المطهر المحتد الكريم لعنصر المشرق الأنوار، واستدار فلك مجده على قطبي العلم والدين وأسحار قمر هديه أشرق من الصبح المبين، فسما في العلم علما راسخ القواعد، مشار إليه من كل غائب وشاهد، آونة للصلة وأونة للعائد، مشاورا في نوازل الديانات، مسفحي في عوارض غوامض القضايا المشكلات تصطفيه الرتب العلية السنية، وتنافس فيه الخطط لشرعية السنية، فطورا مقدما في أندية الوزراء والأعيان، وتارة صدرا في قضاة العدل والإحسان، حتى اعترف بإرشاده الخاص العام، واغترف من بحر إرفاده الراوي والظام، فما من جار في تحصيل مرام إلا عليه اعتمد، وما من سار على سبيل اعتصام إلا بدليله اسرشد:

خلاله عن طريق المجد حاسده

ومن يساجل صوب العارض الهطل

علم وحلم ورأي محصف وندي

سبحان جامع هذا الفضل في رجل

لقيته بمقره من الإسكندرية فسمعت عليه أكثر تأليف عمه العالم الكبير قاضي قضاة الإسكندرية ناصر الدين أبي العباس أحمد بن محمد المنير رحمه الله، ومنها الأرجوزة الكبرى التي فسر فيها القرآن العظيم، وتأليفه المفيد الذي فسر فيه راجم أبواب صحيح البخاري رضي الله عنه، وجزء فيه أحكام السماع بشروطه، وغيرها من تأليفه، وحدثني بما عنه سمعا عليه وسمعت عليه غير ذلك وأجازني وكتب لي بخطه وأنشدني من شعر عمه المذكور جملة مقطوعات حكيمة وزهديات، قيدتها في غير هذا وأنشدني له كذلك الشيخ العالم الأوحدمفتي المسلمين عز الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نور الدين بي عبد الله محمد بن حباسة وقال أنشد فيهما غير ما مرة ناظمهما قاضي القضاة ناصر الدين المذكور يمدح والذي نور الدين رحمهما الله تعالى:

يا نور أوصافك الغراء كالحبك

ووجهك البدر بدر التم في الفلك

عليك نور بهي لا خفاء به

نور العفاف ونور الدين والنسك

وذكر لي الشيخ عز الدين المذكور قال ولي نصر الدين بن المنير هذا القضاء بالإسكندرية وهو ابن خمس وثلاثين سنة وكان مشائخه من نوابه رحمة الله عليه، ومنهم العظيم القدر المشروح الصدر الشيخ المحدث العدل، صدر الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الإمام الكبير محيي الدين أبي عبد الله الزماتي المالكي الشهير بأبي حافي رأسه، نوع آخر منه، وفرع من أصل يقصر الوصاف عنه، فإن والده محيي الدين، من كبار الأئمة المهتدين، وهو الذي أحيا لسان العرب وعلم العربية في الديار المصرية والإسكندرية ثم تولد هذا الفرع عن ذلك الأصل، وتخلد نسخة ثانية من الفضل:

وحسبكم مجدا أثيلا مكارم

جسام تلافوها العقيب عقيب

حووها على مر الليالي وراثته

تشابه فيها منجب ونجيب

فنجب وأنجب، ساد وشاد، وجاد وأجاد، وأفاد واستفاد، وأقام المتن والإسناد، وعي وعلم، اجتنى ثمر الحكم واجتلى غرر الكلم، إلى تطرف يواجهك بالوجه الوسيم، وتلطف يحادثك محادثة النسيم، وقد تولته السنة الحمد من القاصد والوارد، وأظلمته سماء المجد بجمال المشتري ظرف عطار، فهو درة العصر، ونخبة فضلاء ذلك المصر لقيته بدكانه من الموثقين من الإسكندرية، فسمعت عليه أجزاء عديدة مفيدة، منها جزء فيه المجلس الخامس في فضل صوم المحرم، تخرج الحافظ أبي المظفر منصور بن سليمان بن منصور الهلواني الشافعي بسماعه بجميعة منه، وجزء فيه مقطعات وأبيات والجزء بجميعة من نظم الإمام العلامة الأديب أبي النصر مظفر بن محاسن بن علي بن نصر الله الذهبي الدمشقي بسماعه عليه وإجازته له، وسمعت عليه غير ذلك وأجازني إجازة تامة مطلقة عامة، وكتب لي بخطه، ومولده سنة ثلاث وستين وستمائة بالإسكندرية وأنشدني لوالده محيي الدين المذكور يرثي بعض الفضلاء رضي الله عنه:

من لمسترشد ببسط البيان

من لمسترغد ببسط البنان

مات برهان فابكوا وقولوا

ويح دين خلا من البرهان

عين إنسان دهري كان وتدري

فقد عين الإنسان للإنسان

و"منهم" الباهر الفصاحة، الطاهر الجنب والساحة الشيخ لفيقه العالم ناصر الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ العالم المصنف المرحوم وجيه الدين أبي بكر بن عبد المنعم ابن علي بن ظافر بن مبادر الشافعي الزبير من ذرية مولانا الزبير بن العوام رضي الله عنه خبر خير، مقيد مفيد، متقن، متفنن، ناقد نافذ، قد زان العلم بالحلم، والباهة بالتزاهة والذكاء بالزكاء، والرواية بالدراية، فجمع بين العلم والتقيد، واعتلاء

الأسانيد إلى دين متين استمسك بعروته الوثقى وزهد جرى منه إلى الأمد الأقصى، وأياد على الأنام لا يجوز أن تكفر، وحسنات حق ذنوب الأيام بما أن تغفر، فاستحق من الثناء ما يستغرق لفظ اللافظ، وارتسم في رتب العلاء بالإمام الحافظ، وأقسم بالرحمن والمثاني والقرآن، انه لفخر الأعيان، وعين إنسان الزمان، وإنسان عين البيان، وأبلغ بني ذبيان، ومن أبي الحسين عند بني حمدان، ونائب ديوان الإنشاء ببغداد، ومع طيب النخيزة وشرف هذه الغريزة، فقد كان له من نفوس الناس محل لفضله، واعتداله وانقباضه عن مظان الاقتحام والتزامه لا جرم أنه حسن الطريقة والسمت، ذو معرفة بموضع الأصابع في النطق والصمت:

إذا ما اجتنبى في القوم أو نطق اقتدى بحكمته لقمان أو هابه كسرى

لقيته وسمعت منه وقرأت عليه بلفظي جميع كتاب النيسير للحافظ أبي عمرو الداني وحدثني به عن الشيخ الإمام الزاهد العابد شيخ المتصوفين جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الملك الحميري الشاطبي المالكي سمعا منه عليه بجميعه في مجالس آخرها سلخ جمادى الأولى سنة سبع وستين وستمائة، وحدثه أنه سمعه بمدينه شاطبة جبرها الله تعالى عن الشيخ المعمر المسند المحدث أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي، وسمعه أبو داود على مصنفه أبي عمرو الداني وحام الله جميعهم، وأجازني الإجازة التامة وكتب لي بخطه في عام واحد وستين وستمائة وله رطوبة أدب وحلاوة شعر أنشدني لنفسه ملغزا وعنى به القرآن العظيم:

النصف منه عشره

شيء عجيب أمره

سهل يسيل ذكره

عذب لذيق مشتهى

إلا عظيم قدره

لم يستطيع تفسيره

وما زلت أختلف إليه واقراً عليه إلى أن اتفق منج جملة المقادير والأسباب أن هيأت لتونس قرقورة الأصحاب فعرض على السفر فيها عرض الركماء، وحضني عليه فأنشدته:

ولا المسيح أنا أمشي على الماء

ما أنت نوح فتنجيني سفينته

ثم رفضت الغربية، وفرضت القربى، والقربة واغتنتم المركب المبارك والصحبة رددت الاستخارة وجددت الاستشارة عزمت على ما عرفت من مكابدة البحور، وركبت أنا وأخي في المركب المذكور فكان ركوبنا بمرسى منار الإسكندرية في عشي عيد الفطر يوم الأربعاء عام ثمانية وثلاثين المذكور وظللنا ليلتنا تلك نقلد ونواسي ونرقع الرقائق والمراسي إلى أن أخذ منا السهر واستبان لنا السحر، وأطلت راية الصباح في أفق الشرق حتى:

وأخذنا نسير ونمور وننجد بين الأمواج ونغور، ونصبح ونمسي ليس إلا السماء والبحور، إلى أن اشتدت علينا الرياح الغربية وتحكمت فينا المياه البحرية فتقهقرنا بسبب ذلك إلى أن أشرفنا على مرسى طبرق من مراسي برقة المشؤومة فدخلناه يوم السبت التاسع لذي قعدة من العام المذكور فتل به من الأصحاب من قدر الله في سفره من البر نزوله ونظمت في ذلك ساعة وصوله ودخوله:

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| يا ليلة جمعت بمرسى طبرق | أجلى صباحك عن نوى وتفرق |
| ألفت بين مفرق ومجمع | وجمعت بين مغرب ومشرق |
| ضحك الفراق لنا وقد عبس الدجا | فبكيت فيه بدمعي المتدفق |
| قد مزق الإصباح ثوبك مثل ما | مزقت ثوب الصبر كل ممزق |
| ورمى سوادك من بياض صباحه | بمثال ما صنع الفراق بمفرق |
| أبدا بحلكته بياضا ناصعا | فأعاد دهمته شيات الأبلق |
| وتبسم الزنجي فيه تعجبا | من قسوة البين الذي لم يرفق |
| أكثرت يا جفني البكاء لبينهم | لا تخشى من أقلال دمع أنفق |
| ولقد رهننت القلب فيهم فانتنوا | وبقيت رهن صباية وتشوق |
| نهضوا وما نفضوا الموائق أن هم | شرحوا شهور المستهام الموثق |
| بانوا فيها بان اللوى هل بلغوا | مني السلام إلى النقاء والأبرق |
| راحوا فراح تصبري من راحتي | يا راحتي روعي أمام الأينق |
| مروا فحلو العيش مر بعدهم | وحللت حالي مركب أو زورق |
| وقفوا لتوديعي ففاضت أدمعي | أسفا وغازت بالزفير المحرق |
| ومن العجائب أن دمعي أحمر | والجفن يسبح في الغدير الأزرق |
| يا راحلين لأرض أندلس إذا | جزتم على بان الكتيب المونق |
| وبدت لكم تلك الربا الخضر التي | تهدي الشذا من عرفها المستنشق |
| عوجوا على تلك الديار وقبلوا | جدرانها بتلطف وتملق |
| وقفوا هناك على المتيم وقفة | تذر الهوى في قلب من لم يعشق |

منكم وتقديري لدعمي المطلق

منه اعتداء أخذ من لم يشفق

باق على حفظ المودة ما بقي

وأصدعه الأكباد إن لم نلتق

وصفوا لذيالك الفريق تفرقي

قولوا تركناه وقد أخذ الهوى

وعلى تحول حالتيه فإنه

يهوى لقاءكم ويأبى دهره

وأقمنا به ننظر تأتي الريح، ونعاني من أهل برقة ألم الوجد وعظيم التبريح إلى أن أقمنا به مدة، ورأينا الأمر لا يزداد إلا شدة فرفعنا الشراع للرجوع وسرنا ولا كرامة للسلو ولا للهجوع.

ففررت منه فنحوه نتوجه

وإذا أتاك من الأمور مقدر

وخرجنا من المرسى المذكورة يوم السبت السادس عشر لذي قعدة المذكور، فترلنا به للإقامة. وحمدنا الله تعالى على السلامة، ثم حللت من المدينة بالمدرسة السراجية ساكنا وقد نال مني نصب البحر ظاهرا وباطنا، وعدت لعادي من الاجتماع بالفضلاء، والانتفاع بالعلماء:

إذا كان من بعد الفراق تلاقي

كأن لم يكن بين ولم تك فرقة

ولما نزلنا بالمدرسة السراجية الحافلة، وجمعت فيها بين الفريضة والنافلة، صادف نزولي بها قدوم مدرستها الأكبر وإمامها الأشهر، الشيخ الفقيه العالم مفتي المسلمين شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الصالح شرف الدين أبي الروح عيسى بن أبي الحسن علي بن أبي الحسن اسم كنيته ابن أبي العلاء عبد الله الكنائي الشافعي الشامي ثم الإسكندري نفع الله تعالى به وافى من سفر كان أبطأ فيه، ثم أسرع به إلى الحظ الذي يقرب الأمل النازح ويدنيه، فحللناها حلول الهائم المجد، في وصل الحبيب المسعد، ومنشدين "ويجمعنا شتى على غير موعد" واستقررت منها بمسكن مجاور لمسكنه، حيث مأوى تدريسه، وخزانة كتبه، فكان فيه جاري بيت بيت، والمهدي لجاري حتى الخل والزيت، فسقاني حتى أروي كل ظمأ وجواد وأحلي من مبرته وفؤاد، ووالى من إتخافه، وضروب الطافه، ما حسبتني به مفظوما يعلل على الفطام، ورأيت الأمانى مجنوبة إلى في الخطام:

ألذ من الإغفاء في عقب السهد

وحسن طعم العيش حتى أعاده

وكنت كثيرا ما أجلسه فأقطف من مؤانسته أعبق نور، وأحالي بمجالسته كجليس الققعاق بن شور، وأنسى في اليوم فعل الأمس، كما أربى على ليلة البدر يوم الشمس، ففي كل يوم أزيد فيه اغتباطا، واستوثق في يدي محبته ارتباطا، وكأني استقبل منه في كل زمن فرد رباطا، ولما حملني من مننه أعظم من جهدي ومن طوقي.

أصبحت كالورقاء في شكره

لما غدا أنعامه طوقي

إلى ما استدفندته من الفوائد العلمية، والمسموعات النبوية والدرر الأدبية إذ هو روضة لعلوم العاطرة الريا،
الباهرة الحيا، النادرة في هذه الدنيا، ناهيك من رجل هجرت إلى لقائه المواطن، واستنارت له بأنواره
المعرفة الظواهر والبواطن، فهو اليوم عمدة الصقع الإسكندري، والمفتي على الإطلاق في مذهب الإمام
الشافعي، ومقتدي الفرق في العلم العقلي، ومن لا يختلف اثنان في فضله الفرعي والأصلي، يقول فيختلس
العقول ويكتب فيجلب ويخلب، فإن عبر، قلت بالسحر خبر، وعنبر الشجر خبر، حتى إذا تكلم في
العلويات والسفليات والعلوم الربانيات، والحكم الأدبيات، والحركات الهندسيات أسمعك رغائب
الغرائب، وأطلعك على نجائب العجائب مع ما منحه الله تعالى وخوله، وجبله عليك وركبه فيه من
الشجاعة الغريزية والنجدة النفسانية والقوة الجسمانية التي هي مواهب الجلال وكمال خصال الكمال،
والفرق بين النساء والرجال، وقد خصه الله تعالى منها بالحظ الأوفر، والنصيب الأكبر، والجزء الذي لو
قسم على الأجناد لا غنى عن الدرع والمغفر، يبدو فترى طلعة بدر، وجلالة قدر، وسعة صدر، ونهضة لا
مشوبة بأشر، ولا منسوبة لغدر، ثم ينيلك بدائع دانيات القطاف، ويعاطيك أحاديث مستعذبات النطاف،
ويهاديك أزاهر من حدائق القراطيس أو من أعطاف القضب اللطاف، فتسيل هذه زلالا، وتطلع هذه من
سحائب أنامله هلالا، ومنه تعلمت أحكام الرماية بالقوس العربية، وهو رضي الله عنه محكم لذلك غاية
الإحكام ومهتم باكتساب أنواع السلاح غاية الاهتمام، فلو شاء لأخرج من خزائنه الواسعة ما وسع
الجمهور من السلاح الموفرة، والعدد المذخورة وآلات الحرب المنيعة المذخورة إلى غيرها من أمهات
المجلدات وألوف التأليف وصنوف التصانيف المجموعات المصنفات قرأت وسمعت عليه عدة من تأليفه التي
أفاد فيها وأجاد، ونسخت منها ما سئت وبالغت في تصحيح ذلك معه ما استطعت وقرأت سمعت عليه
نيفا على الثلاثين تأليفا في فنون شتى تقيدت أسماؤها وأسانيدها في برنامج روايتي، وأجازني وكتب لي
الإجازة الحافلة بخطة وأنشدني للملك الأشرف في مملوك له جميل وقعت عليه شمعة فأصابته شاربه فقال
فيه بديها:

وذي هيف زارني ليلة

فأضحى به الهم في معزل

فمالت لتقبيله شمعة

ولم تخش من ذلك المحفل

فقلت لصحبي وقد حكمت

صوارم لحظيه في مفئل

أندرون شمعتنا لم هوت

لتقبيل هذا الرشا الأكحل

درت أن ريقته شهدة

فحنت إلى ألفها الأول

وأنشدني لابن سرايا الحلي من أهل العصر في شمع كان يدخل به إلى مجلس صاحب ماردين على أيدي
الغلمان الحسان:

أهلاً بشهب في سماء المجلس
زهر إذا أرخى الظلام ستوره
هيف القدود تريك بهجة منظر
كالقضب إلا إنها لا تنتهي
أذكت لحاظ عيونها فكأنها
نابت عن الشمس المنيرة عندما
وإذا تحذرت النجوم رأيته
وضحت أسرتها وقد عبس الدجا
إن خاطبتها رد لسانها
وإذا تعودها النسيم ترى لها
في طرفها عمش إذا حققته
عجا لها تبدي لعط لسانها
رضيت ببذل النفس حين تبوأ
الصالح الملك الذي أنعمه
شمس حكى الشمس المنيرة باسمه

هتكت أشعتها حجاب الحندس
فعلت بها كصحيفة المتلمس
أبهى لديك من الجواري الكنس
منها القدود وزهرها لم يلمس
زهر تفتق في حديقة نرجس
حبست وساطع نورها لم يحبس
ترعى الصباح بمقلته لم تتعس
وتتنفس والصبح لم يتنفس
همسا كلجلة للسان الأخرس
خفقا كقلب الخائف المتوسوس
لم يبد منها الاسم ما لم يعكس
بشرا وتحيا عند قطع الأروس
من حضرة السلطان أشرف مجلس
طوق الغنى وطوق جيد المفلس.
وضياء بهجته وبعد التلمس

هو صاحب البلد الذي لسماحه
لا زال في أوج السعادة لابسا

وأنشدني له تورية في ساق:

وساق من بني الأتراك طفل
أملكه قيادي وهو رقى

وأنشدني له أيضا:

ما زال كحل النوم في مقلتي
حتى سرقت الغمض من ناظري
من قبل أعراضك والبين
يا سارق الكحل من العين
وأنشدني لابن الأثير الجزري:

كأن في فيه نبالا وأللالا
منوع الحسن بيدي من محاسنه
وبين جنبه نفاثا ونبالا
لا عين الناس أصنافا وأشكالا
فلاح بدرا ووافى دمية وذكا
وافتر درا وغنى بلبالا وسطا
وأنشدني له أيضا:

إن التي ملكنتي في الهوى ملكت
رنت غزالا وباهت روضة وبدت
مجامع الحسن حتى لم تدع حسنا
بدرا وماجت غديرا وانثنت غصنا
وأنشدني: قال أنشدني قوام الدين العجمي بمصر ما ادعاه لنفسه وهو:

تصاممت إذ نطقت ظبية
وما بي وقر ولكنني
أردت إعادة ألفاظها

قال واستحسنها أهل مصر، وعارضها منهم ألف وخمسمائة شاعر وأعجب بالبيتين صاحبنا شافع بن عبد الطاهر كاتب السر للسلطان الملك الناصر فاستحسنهما واستقصى جميع من عارضه فيهما من الشعراء ثم وقع في نفسه انهما لغيره فلم يزل يكشف عنهما حتى وجدهما لابن الرومي في ديوانه الكبير قال فلما وقف عليهما فيه بعثني بذلك إليه فأعلمته، فقال قوام المذكور وهو وأنا معا بالجامع الأعظم من مصر والله الذي لا إله إلا هو ما علمت بهما قط، وأن هذا لمن توارد الخاطر، ووقوع الحفر على الحافر، وذكر أنه دخل بعض الشعراء من المغاربة على صاحب طرابلس الشام وبين يديه مملوك جميل الصورة في نهاية الحسن والجمال فالتفت الشاعر وجعل ينظر حسنه فقال له السيد إن كان قد أعجبك فامدحه بشعر حسن وخذه هدية لك فأنشد فيه قصيدة أولها:

تناقده غضن الصبا سكرًا
غريب معاني الحسن ذابل قدّه
فعربد ساجي طرفه نافثًا سحرًا
جرى قلم الريحان يثبت حسنه
يريك قضيب البان قد أثمر البدرا
ونادى بلال الخال من فوق خده
فخط بمسك الخال في خده سطرًا
تبارك ممن فرعه أطلع الفجرا

وسبحان من أنشأ بخذه جنة
وأجرى بها ماء وأذكى بها جمرا
وساق إلى فيه من الخمر كوثر
مكللة في كأس ياقوتة درا
فلو لم يكن مبعوث حسن لما غدت
صحائف آيات الجمال به نقرأ

قال فلما أنشد الأبيات، أعجب بها السيد فوهب المملوك له ثم افتداه منه بعد ذلك بوزن المملوك دراهم عشر مرات، قال رضي الله عنه ومن أخبار المتوكل مع ابن الجهم أنه دخل عليه يوما فأنشده شعره الذي يقول فيه:

"هي النفس ما حملتها تتحمل".

وكان في يد المتوكل جوهرتان فأعطاه التي في يمينه فاطرق يفكر في شعر يأخذ به الأخرى فقال له المتوكل إنما تفكر فيما تأخذ به الأخرى ورمى بها إليه فقال ابن الجهم:

يسر من رأى إمام عدل
تغرف في جوده البحار
يرجى ويخشى لكل أمر
كأنه جنة ونار
الملك فيه وفي بنيه
ما اختلف الليل والنهار
يداه في الجود ضربتان
كلتاها في النداء تغار
لن تأت منه اليمين شيئا
إلا أنت مثله اليسار

قال: قال أبو العتاهية بيتين في أيام الرشيد ورفعهما إلى زبيدة بمدح ابنها محمد وهما:

الله درك يا عقيلة جعفر
ماذا ولدت من العلا والسودد
أن الخلافة قد تبين نورها
للناظرين على جبين محمد

فأمرت أن يملأ فمه درا، وذكر لي أنه صلب ابن بقرية وزير بغداد وكان الخليفة قد وكل به من يحرسه ليلا ونهارا ولم يتجاسر أحد على أن يرثه، وقف الكاتب ابن الأنباري عليه والناس حوله قائمين صفوفًا فرثاه بقوله:

علوا في الحياة وفي الممات
لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا
وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا
وكلهم قيام في الصلاة
مددت يديك نحوهم اكتفاء
كمدهما إليهم بالهبات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن
أصاروا الجو قبرك واستتابوا
ولم أر قبل جذعك قط جذعا
لعظمك في النفوس تببت ترعى
وتشعل حولك النيران ليلا
ركبت مطية من قبل زيد
وتلك فضيلة فيها تأس
أسأت إلى نوائب فاستثارت
وكنت تقيل من صرف الليالي
غليلي باطن لك في فؤادي
ولو أني قدرت على قيام
ملأت الأرض من نظم القوافي
ولكني أصبر عنك نفسي
ومالك تربة فأقول تسقي
عليك تحية الرحمان تترى
يضم علاك من بعد الممات
هم الأكفان ثوب السافيات
تمكن من عناق المرمات
بحراس وحفاظ ثقات
كذلك كنت أيام الحياة
علاها في السنين الماضيات
تعاند عند تعبير العادات
فأنت قتيل ثار النائبات
فصار مطالبا لك بالثرات
يخفف بالدموع الجاريات
بفرضك والحقوق الواجبات
ونحت بها خلاف النائحات
مخافة أن أعد من الجنات
لأنك نصب هطل الهاطلات
برحمات غواد رائحات

قال فأعطاه ابنه عليها ثلاثين ألف دينار كبار، وقال الحافظ رحمه الله وأخبرنا أبو بكر يحيى بن إبراهيم السلماسي قال: قرأت على القاضي أبي قاسم ناصر الدين بن أحمد بن بكران الحوفي، ووجدت بخط والدي الشيخ أبي الطاهر بن أحمد إبراهيم بن أحمد بن محمد السلماسي، قال لما أمر عضد الدولة بقتل الوزير أبي محمد بن بقية وصلبه بمدينة السلام في سنة سبع وستين وثلاثمائة كان له صديق يعرف بأبي الحسن الأنباري فرثاه بهذه الأبيات وكتبها ورمى بها في شراع بغداد فتناولتها الأدباء إلى أن وصل الخبر عضد الدولة، فلما أنشدت بين يديه تمنى أن يكون هو المصلوب دونه فقال على بهذا الرجل فطلب سنة كاملة وأتصل الخبر بالصاحب إسماعيل بن عباد بالري وكتب له بالأمان، فلما سمع بذكر الأمان قصد حضرته فقال له أنت القاتل لهذه الأبيات قام نعم قال: أنشديها من فيك قلما أنشده:

ولم أر قبل جذعك قط جذعا
تمكن من عناق المرمكات

قام صاحب فعانقه وقبل فاه وأنفذه إلى حضرة عضد الدولة فلما مثل بين يديه قال له: ما الذي حملك على مرثية عدوى فقال له: حقوق سلفت، وأياد مضت فجاش الحزن في قلبي فرثيت فقال: هل يحضرك شيء في الشموع والشموع تزهر بين يديه فأنشأ يقول:

من النار في كل رأس سنانا

كأن الشموع وقد أظهرت

تضرع تطلب منك الأمانا

أصابع أعدائك الخائفين

فلما أنشده هذين البيتين خلع عليه وحمله على فرس وأعطاه بدره، وذكر لي أن الخليفة الناصر كان وزيره ناصر بن مهدي الحسيني وكان كثير المخالفة في كل ما يأمره به فقال للخليفة يوما بعض خواص أن هذا الوزير يسئ الأدب، ويخالف أمير المؤمنين فيما يأمر به فوجد الخليفة لذلك وقال للوزير لئن خالفتني بعدها أو عارضتني في شيء من أمري لاستبدلن بك من وجدته في الحال، فقال له: نعم وأذن للسمع والطاعة، ثم أقام على ذلك أياما فعرض للخليفة في بعض الأوقات أمر من الأمور المهمات فذكره ودبر رأيه فقال له الوزير لا يا يأمر أمير المؤمنين، الرأي أن تفعل خلاف هذا، فقام الخليفة لوقته وخرج من بعض أبواب قصره فوجد شابا مصفر الوجه يلتقط شيئا من نفاضات الموائد فدعاه الخليفة إليه وقال له أتحسن الكتابة قال: أجل فدخل به وولاه الوزارة من حينه وخرج صاحب الشرطة بين يديه إلى دار الوزارة وقام يدبرها أحسن التدبير، وكان ظن الوزير المعزول أنه لا يوجد مثله لما كان فيه من المعرفة فكتب إلى الخليفة رقعة فيها:

ليس داود فيه كالعنكبوت

شمل النسج من حاك لكن

فتيقن أن لست بالياقوت

القني في لظى فان أحرقتني

فلما بلغت الخليفة أخذها وأطال النظر فيها فقال له الوزير المستجد يا أمير المؤمنين أراك النظر في هذه الرقعة فدفعها إليه فلما أخذها من يد الخليفة وسمع ونظر إليها قال: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في الجواب، قال: نعم، فكتب تحت البيتين:

وكان الفخار للعنكبوت

نسج داود لم يفد صاحب الغار

مزيل فضيلة الياقوت

وبقاء السمنند في لهب النار

فلما نظر الخليفة الجواب بعث إليه به وقال غدا يأتي النعي الوزير فما أصبح الصباح حتى جيء بنعي الوزير وذكرت له بهذه الحكاية ما وجدته ببعض التأليف المعتمدة وذلك أنه مر بعض الملوك بغلام يسوق حمارا غير منبعت وقد عنف عليه في السوق، فقال يا غلام أرفق به فقال له الغلام الفرق به مضرة عليه،

قال: وما مضرت قال يطول طريقه ويشند جوعه وفي العنف به إحسان إليه يخف حمله ويطول أكله، فأعجب الملك كلامه فقال له: قد أمرت له بألف درهم، فقال رزق مقدور وواهب مأجور، وقال: وقد أمرت في حشمي، قال: كفيت مؤنة فرزقت بما معونة، فقال: لولا أنك حديث السن لا ستوزرتك، فقال: لم يعدم الفضل من رزق العقل، قال: فهل تصلح لذلك، قال إنما يكون الحمد أو الذم إلا بعد التجربة، ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يلوها، قال: فاستوزره فوجده ذا رأي صائب ومشهورة تقع موقع التوفيق، ومن ظريف الوجدادة وغريب الاتفاق أني لما دخلت الإسكندرية قافلا وقعت عيني ببعض الجدران على هذين البيتين:

قدير على تيسير كل عسير

إذا ضاق بي صدري استعنت بخالق

فكان أسير وانجبار كسير

فبين انطباق الجفن ثم ارتفاعه

ثم تنقلت خطى يسيرة وإذا بحائط آخر مكتوب عليه ما نصه:

بحسام قطعت ألف قلم

ما رأينا ضربة من بطل

بمداد نكست ألف علم

بل رأينا نقطة في كاتب

ثم دخلت المدرسة السراجية المذكورة آنفا فرأيت بأعلى باب بيتي الذي سكنته فيها ما نصه:

رحلنا وودعناك غير ذميم

عليك السلام الله يا خير منزل

فما أحد من صرفها بسليم

فان تكن الأيام فرقن بينا

ثم تأملت فإذا بعده بخط آخر ما نصه:

كذا الدنيا نزول وارتحال

تركنا همنا ثم ارتحلنا

ولا يبقى على الإنسان حال

وما دهر على أحد بباق

ثم ألفت فإذا أمامه بخط آخر ما نصه:

وكذا الدهر غيبة وحضور

قد حصرنا في ذا المكان وغنينا

وقرأنا من بعده ما كتبتم

قد حضرنا في ذا المكان وغبتم

فاذكرونا بمثله أن حضرتم

وذكرنا كم بكل جميل

فعجبت لدار تدين برحيل وتنبئ عن سفر طويل وتفرق بين كل حل وخليل وكتبت من نظمي هناك بطرف داعم وقلب عليل:

وذكرنا كم بخير جميعا

قد استلم لنا الدموع نجيعا

وسألنا يا حاضرين دعاء

واجترعنا الفراق والتوديعا

وكنت لما صدرت من الشام وخرجت عن أقطارها وسرت في بعض قفارها أداني السير إلى أطلال عالية بالية فوجدت لرؤيتها كل الوجد وقربت إليها من البعد، فإذا ببعض تلك الجدران مكتوب عليها بالفحم هذان البيتان:

ولقد ندمت على تفرق شملنا

أسفا ففاض الدمع من أجفان

ونذرت نذرا أن ظفرت بعودة

لا عدت أذكر فرقة بلسان

فعلمت أن كاتبهما مثلي بعيد الدار، متصرف بين يدي الأقدار قد سئم السرى وشاقه النسيم متى سرى، فدعوت الله تعالى في جمع شملي وشمله ورد كل غريب إلى وطنه وأهله وكتبت هنالك من نظمي على شاكلته وشكله:

ولقد جرى يوم النوى دمعي دما

حتى لقال الصحب انك فان

والله إن سمح الزمان بقربنا

لكففت من ذكر النوى وكفاني

وقرأت بخط الإمام أبي الحسن علي بن سعيد قال: قرأت بحائط التربة التي فيها معروف الكرخي الزاهد بالجانب الغربي من مدن بغداد:

وما ضرني إلا الذين عرفتم

جزى الله خيرا كل من لست أعرف

وتحت هذا لبیت: رجل غريب، طاف بالأرض فلم يظفر بحبيب ووجدت في مقابلة ذلك بخط آخر:

لعمرك ما انتفعت بغير خل

له عندي الذي ألفيه عنده

يراعني فيصبح عبد قصدي

كما أمسى إذا ما احتاج عبده

وتحتهما من صفا باطنه، كأن كل العالم صديقه، ومن كدر باطنه كان كل من في العالم عدوه، وجرى الحديث بذلك مع الشيخ الإمام العالم المفتي المسلمين عز الدين أبي إسحاق بن حباسة رضي الله عنه بمثلة من الإسكندرية المحروسة، فقال لي: سافرت إلى الشام مع السلطان قلاوون الصالح فيبينما نحن نسير في فلات من الأرض القفراء وإذا أنا بطلل بال قد لحتته على بعد فحنتت إليه وقصدته فلما دنوت منه ألقيت عليه مكتوبا بالمداد ما صه: جبت القفار، ووقفت على الآثار، فما رأيت صديقا صادقا، ولا رفيقا موافقا، فمن قرأ هذا الخط فلا يركن لأحد قط من الأنام والسلام، وحدثني الشيخ الإمام عز الدين المذكور قال أخبرني أخي وصديقي الشيخ الإمام القدوة رئيس الكتاب نور الدين أبو الحسن علي بن الشيخ الإمام الكبير، رئيس الكتاب جمال الدين بن المكرم قال: سافرت مع السلطان الملك الأشرف ابن السلطان

قلاوون الصالحي إلى مدينة عكة في غزوته إياها، فأقمنا عليها، إلى أن يسر الله تعالى في فتحها بعد مدة طويلة قال: فلما دخلناها دخلت الكنيسة التي كانت بها فإذا هي ذهب ساطع وإذا أنا بكتب على حائط منها قريب العهد لم يحف مداده فيه ما نصه:

أدمى الكنائس أن تكن عبثت بكم
أيدي الحوادث أو تغير حال
غلطا لما سجدت لكن شمامس
ثم النوف ججاج أبطال
ليكن عراكن الجميل فإنه
يوم بيوم والحروب سجال

قال فعلمت قطعاً أن كاتبه نصراني وعجبت في ذلك غاية العجب وحدثني الشيخ عز الدين المذكور قال وجد مكتوبا على باب كافور الأخشيدي بمصر:

أنظر إلى عبر الأيام ما صنعت
أفنت أناسا بها كانوا وما فنيت
ديارهم ضحكت أيام دولتهم
فإذا خلت منهم ناحتهم وبكت

وذكر لي الشيخ عز الدين المذكور أن أهل مصرنا لهم جور من بعض ولاية كافور المذكور ولم يعلم بذلك كافور ولا أطلع عليه فاجتمع خاصتهم وكتبوا كتابا بالشكوى أعلموه فيه بحالهم، نصه بعد البسملة أما بعد فإنكم قدرتم فأسأتم وملكتهم فقهرتم ووسع عليكم فضيقتهم، واغتررتم بصفو العيش ولم تتفكروا في عواقبكم، وتهاونتم بسهام الأسحار وهي صائبة لا سيما إذا خرجت من قلوب جرحتموها، وأكباد اجحتموها، وأجساد اعريتموها ولو تأملتم هذا حق التأمل لأشفقتهم، أو ما علمتم أن الدنيا لو دامت للعاقل لم يصيبها الجاهل، ولو دامت لمن مضى لم يصل إليها من بقى، وكفى محنة رجل يكون في هلاكه فرج العالم كله ومن المحال هلاك المنتظرين وبقاء المنتظر به وحده، اعملوا ما شئتم فأنا صابرون، وجوروا فأنا بالله مستحيرون. وثقوا بقدرتكم فأنا بقدره الله واثقون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فلما وصل الكتاب إلى كافور ساءه، وشغل باله فلم يلبث سوى سبعة أيام حتى مات والشيخ عز الدين هذا هو أبو إسحاق إبراهيم بن نور الدين أبي عبد الله محمد بن زين الدين أبي الحسين يحيى بن وجيه الدين أبي علي منصور بن أبي محمد عبد العزيز بن نور الدين بن أبي الحسن علي بن حباسة بفتح الحاء المهملة. وحباسة هو ابن علي بن محمد بن محمود بن موسى بن عز العرب بن زيد بن عمرو بن محارب ابن مكاث بن رافع بن مدافع بن مغيث بن حرب بن عمارة بن المسيب ابن شريك بن محور بن حارث بن ربيعة بن معن بن وهب أياد بن حيا ابن عامر بن معاوية بن الحارث بن تميم بن مرة بن طابخة بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، هكذا كتبه من حفظه وهكذا صححته بعد عليه، وأن سلفه هذا من بني

تيم، لذو مجد صميم، وجد عند الملوك عظيم، قدم في العلم ماضية على منهج قويم، وصراط مستقيم وأن الشيخ عز الدين هذا السالك مسالكهم وصالحهم ومحبي مآثرهم، ومجدد مفاخرهم، وأولهم في حمل الفضائل وإن كان آخرهم فهو دوحة الجدة وريحانة الكرم الممد، وروضة العلم، وهضبة التقى والحلم تفتحت له روضة المعارف، وتفسحت له المجالس بين الأعلام العوارف، فتدلت له ثمرات تلك الحدائق، وعلت به دوحات أولى النهي والحقائق، فصحب من أولياء الله تعالى فريقا، وركب جادة الجدة إليهم طريقا، واتخذ العلم والعمل دليلا ورفيقا، أخذ نفسه الكريمة بالتصوف فأدبها بآدابه وهذبها بعلامته أربابه. حتى آض شيخا لشيخ تلك الطريقة، وعلمنا في أعلام أولى الحقيقة مع اتساع روايته. وامتداد باع درايته، واهتمامه بالعلم وعنايته، وتبحره في استخراج جواهر الحكم وتقدمه في السخاء والجود والكرم:

وتأخذه عند المكارم هزة كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

واظبته وقد ناهز التسعين، وجف ماء عمره المعين، إلا أنه قد متع بلسانه وجنانه وأقطع ما شاء من إحسانه وبيانه. ووضع له البركة في سمعه وبصره وبنانه، فما دخلت عليه قط إلا وهو مطالع في الدواوين والتأليف، أو ناسخ لكن بالخط الرقيق والقلم النحيف على نخافة جسمه وقيامه، في ليله وصيامه في نهاره، له سماع من أبيه كثير، والماع بفنون العلم أثير، وقدره كبير، وبيته شهير، وله نظم يدل على رقة صنعه، ويعرب عن كريم طبعه وأما نثره فشبيه بنثر الدر غير أن ألفاظه تزيد على أسماطه في القدر لازمته كثيرا وتباني فكنت صدى صوته. وسلمان بيته، وكنت كثيرا لا استأذن في الدخول عليه ولا أزال أقول بين يديه:

سلمان بينكم وحق المج د أن يرعى ذمامه

فرضت صلاتك كالصلاة وحمد وافدك الإقامة

وقرات وسمعت عليه نحو الأربعين مجلدا في أنواع مختلفة وصححها لي بخطه وجازني الإجازة التامة، ومما قرأت عليه بلفظي لعلوه فيه جميع الأربعين حديثا السباعية الفراوية النيسابورية، وجميع الأربعين حديثا البلدانية السلفية وجميع الأربعين حديثا الودعانية غيرها، مما قد استوفيته في غير هذا"، وأخبرني أنه قرأ جميع الأربعين البلدانية السلفية على الشيخ الإمام الكبير كمال الدين أبي الذكر أحمد بن رضى الدين أبي محمد عبد القادر بن المعالي رافع بن أبي الذكر أحمد بن الدمراوي بحق سماعه لها من الشيوخ لثلاثة العلماء الأئمة أبي الفضل جعفر بن علي بن هبة الله الهمداني، والشيخ جمال الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن مكى بن الحاسب سبط الحافظ السلفي رشيد الدين أبي محمد عبد الوهاب بن رافع بن علي عرف والده

برواح بسماعهم الثلاثة من الحافظ أبي طاهر السلفي المخرج المذكور رحم الله جميعهم. عنه، ومولده رضي الله عنه في الرابع عشر من شعبان المكرم سنة اثنين وستين وستمائة وعنه أخذت خرقة التصوف ولبستها من عنده ومن يده كما لبسها من شيخه الإمام الأوحى قطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد القسطلاني رحمه الله "سنده المخرج في تأليفه الذي سماه ارتقاء الرتبة باللباس والصحبة، وقد أخذت عنه عن شيخه هذا قراءة وتصحيحا ومن أصل المؤلف قطب الدين المذكور نقلته ومما أنشدني غير مرة لشيخه قطب الدين أبي بكر قال أنشدنيها غير مرة:

إذا المرء ربي نفسه بمراده
فقد شاد بنيانا على غير أسه
ومن لم تربيه الرجال وتسقه
لبانا لهم قد رد من ثدي قدسه
فذاك لقيط ما له نسبة الوري
ولا يتعدى المرء أبناء جنسه
وان شاب من بعد هذا رياسة
فقد سكن الداء العضال برأسه
فكن قاطعا أن ليس يفلح دهره
إذا كان ممن ذاق طعما لنفسه

وأنشدني الشيخ الإمام الكبير الشهير شهاب الدين السهروردي وهو غير صاحب كتاب عوارف المعارف:

أبدأ تحن إليكم الأرواح
ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل وداكم تشناقكم
وإلى جميل جمالكم ترتاح
وارحمه للعاشقين تحلموا
ثقل المحبة والهوى فضاح
بالسر أن تباح دماؤهم
وكذا دماء البائحين تباح
وأنشدني للملك الكامل رحمه الله:

طوا مغرما من أجلكم واصل الضنى
وفي حبكم طيب المنام فقد فقد
أثار الهوى نارا تشب بقلبه
فكيف بإطفاء الغرام وقد وقد

وأنشدني للإمام أبي عبد الله الشافعي رضي الله عنه:

رضيت من الدنيا بقوت وخرقه
وأشرب من كوز حوافيه تكسر
فقل لبني الدنيا اعزلوا من أردتم
وولوا وخلوني على البعد أنظر

وأخبرني بسنده فيه قال أتى رجل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقال له عنبة الهلالي فقال يا محمد أني قلت شعرا أفتسمع مني فقال النبي صلى الله عليه وسلم قل فأنشدته:

وحي ذوي الأظعان تسبى عقولهم
تحيتك الحسنى فقد يرقع النعل
فإن هتفوا بالقول فأعف تكرما
وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذي يوذيك منه استماعه
كأن الذي قالوا ورايك لم يقل

فقال له صلى الله عليه وسلم: أجدت يا أخوا العرب فتبسم الأعرابي وقال له يا محمد فهل أنزل عليك ربك شيئا مثل هذا فترل جبريل عليه السلام وقال له: اقرأ "ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم"، فقال الأعرابي: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. ومن المستظرف ما أخبرني به الشيخ العالم الزاهد جمال الدين أبو الفرج محمد بن الشيخ الفقيه الإمام نجم الدين أبي البركات محمد بن الشيخ الفقيه الصالح المرحوم شرف الدين بي القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن محمد بن سلامة البلوي القضاعي المالكي الإسكندري رضي الله عنه قال: كان هنا ببلدنا رجل من أحسن الناس خطأ، فقطعت يمينه وصار يكتب باليسار أحسن ما يمكن من الخط فرفع إلى أبي رسالة يستجديه بها وهي هذه وناولني رقعة، قد اتخذها الحسن بقعة أولها قطعة شعر قد صور من الأمل، وجسم من الكحل وخلى من السحر فثبت وقيد بالحرير فثبت تتبعها رسالة سلسالة، كم سارقت الحواجب خط نوناتها ضاربه، وخطت الأصداغ على مثل لامتها مباحدة ومقارنة، واستمدت حبل التخفيف وخدع الصنع اللطيف فأياس التابع فضل المتبوع، وفضح التطبع شيمة المطبوع، آخرها وكتب فلان بن فلان المقطوع اليد والقطعة هي هذه:

غربة تتبع قلة
أن في الفقر مذلة
أكرم الناس ويأمن
جوده فيه جبلة
لا تجد لي لسؤالي
إنما جودك لله

فوعيت ما رأيت واستملحت ما لمحت وذكرت له ما رويته بسندي إلى الحافظ أبي طامي أحمد بن أحمد السلفي قال: أخبرنا أبو محمد بن السراج أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد الخلال الحافظ عن أبي عمر بن حيوية الخزازي حدثنا أبو عبد الله النوبختي قال: قيل أن هذا الشعر لابن علي بن مقلة قاله من الحبس بعدما قطعت يمينه وقتل بعد ذلك في شوال سنة ست وعشرين وثلاثمائة.

ما مللت الحياة ولكن توثقت
بأيمانهم فبانئت يميني
لقد أحسنت ما استطعت بجهدي
حفظ أرواحهم فما حفظوني
بعث ديني لهم بدنياي حتى
حرموني دنياهم بعد ديني

وهذا الشيخ جمال الدين من كبار علماء المسلمين، اعلم الناس بمذهب الإمام مالك وأعلامهم في دلالة تلك السبل والمسالك، نسب أشهر من الشمس في السماء وحسب كاتساق عقد النجوم في نحر الظلماء، وخلق أندى من الزهر وأسوغ من الماء إلى سبق في المنطق والجدل وحذق في الأصول والفروع، موقعي من الخطأ والخلل، وتشبت بأهداب من الآداب وتمسك من الرواية عن علماء أهل بيته وغيرهم بأسباب، وشأن هذا الرجل عجيب في نبوغه في طريق العلم وبلوغه، إلى أعلى مراتب التقى والعلم وأطباق الناس على تعظيمه وحبه، وانقباضه عنهم وانقطاعه إلى ربه، به يضرب المثل في العلم والزهد، وعند كلامه يقف الكلام في الفتوى والرد، مقبل على الآخرة معرض عن الدنيا، عار من زخرفها إلا ما يتخذ من ثوب حسن جميل حسنه وجهه الجميل. فترى رجلاً زينه الله بهيبة وجلال وألقى عليه مسحة جمال، وأكرمه أن يشغله بأهل أو ولد أو مال، فكان إذا خرج من مدرسته حيث سكنه وتدرسه، لم يخلف وراءه ما يتشوق إليه، وحفظ الله عليه حسنه من شبابه إلى شاخته فلم يتغير له ديباجه ولا انقطع عجب النواظر منه وعجبها به، لازمته كثيراً، وأفادني من أفانين العلم المحفوظ وقوانين المفهوم والمفوظ ما لا يفيدته إلا الأعلام الجلية. وسمعت عليه جميع الجزء المحتوي على ثلاثين حديثاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثلاثين شيخاً، وبآخره فوائد وأناشيد متصلة به تخريج الإمام الحافظ أبي الظفر منصور بن سليمان بن منصور الهمداني رواية الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي طالب الأزدي المعروف بابن الدهان عنه حدثني به عن أبي الدهان المذكور سمعاً عليه، وأطلق لي أن أحدث عنه وأن نفيد ما استفدته منه وأجازني إجازة تامة، مطلقة عامة، وكتب لي بخطه، وأخبرني رضي الله عنه قال رأيت ليلة من الليالي رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم جالساً وعن يساره امرأة بيضاء اللون والثياب فلما وقعت عيني عليها صرفت وجهي عنها مسرعاً ثم رددته فرأيتها فصرفت وجهي عنها أسرع من المرة الأولى فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هي عائشة فقلت: قال أبو حامد الغزالي قال فأصغى إلي مقبلاً على كلامي عندما ذكرته له في الوسيط له وتخمين الظن فيما لا حاجة إلى العمل به في الحال تضييع زمان واقتحام خطر فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، نعم نعم، قال: ثم شكوت له صلى الله عليه وسلم قضية، فقال لي: إذا دخلت الحمام لا تتكلم، قال: ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده الكريمة على ناصيتي وقام فقامت خلفه ثم رقى في الهوى فرقيت خلفه ولم يزل يرقى وأنا أرقى خلفه إلى أن استيقظت، قال ففتح الله علي ببركة تلك الرؤية المباركة في معرفة أشياء وافتتاح علوم لا يدركها

الغير والحمد لله ولنختتم علماء الإسكندرية بمسك ختامها ووسط نظامها، وعاقده نقضها وإبرامها، ومالك خطامها وزمامها، قاضي القضاة، والقائم بالمسير المرتضاة، الشيخ العالم الكبير محي الدين، أبي عبد الله محمد ابن عمرو بن عبد الوهاب بن خلف العلامي الشافعي معدن العلم والوقار ورافع راية المجد والافتخار. الآخذ بذؤابة الحسب الشامخ الذروة العالي النجار المفيض من جنانه وبنانه، بحار المواهب ومواهب البحار برز لرامح الخطب، فحطم سمهرية، ونزع عن قلب السخاء فلم أر عبقريا يفري فريه له سلف لم يعلق به صلف ولم يعرف له بغير العلم كلف، استوزرهم السلاطين والملوك، واستشعرهم الصدق والسلوك، فاستقلوا بأجل الرياسة، واستقبلوا الرعايا بأجل السياسة إن خطوا فالأقدام عنهم تتأخر أو خطوا فالأقلام بهم تفخر، بدورهم مشرقة وبحورهم مغرقة، ومآثرهم مشعمة معرقة، ولقد اذخروا لنا منهم درة تاجهم، ونكتة احتجاجهم وبشارة إقبالهم وقرارة أسياهم، ففرع هذا الفرع من تلك الأصزل وبرع في استقراء تلك الأبواب وتيك الفصول وشرع في تشييد المجد وتخليد الحمد، فأعطى ما شاء من سبيل إلى الوصول، فاستخلصه الجنب السلطاني الناصري القلاووني أيده الله، ثم أنعم به على العالمين، وآثر على نفسه المسلمين فولاه مدينة الإسكندرية قضي قضائها، والمسارع إلى مرضاة الله بمرضاتها فرفع علم الحق ونفع سائر الخلق حتى برئت تلك المدينة من سقمها وولدت بعد عمقها وبلغت أملها في نفوذ أمرها وعدل حكمها فاستقامت الأمور وانكشف الديجور وسرى عن الناس ما كانوا فيه فكأنما كانوا في حندس ليل قاتم. فتجلى عن ضياء فجر ساطع فالأحكام به باهرة والأيام بسيرته زاهرة، والأنام في دولته تشملهم نعم باطنة وظاهره:

كأنهم الكروان أبصر بازيا

ترى عظماء الناس من خوف لحظه

عليهم ولكن هيبة هي ما هيا

وما الخرق منه يرهبون ولا الخنا

هيبة التقوى لا هيبة الأقوى وخوف الجلال لا خوف الإذلال، وتلوح في أغطاف منطقته شيم النداء ومخائل الفضل، دخلت عليه وقد صرفتني الريح عن وجهتي الغربية من مواسطة البحور، وعرفتني الحوادث فأنكرتني معارف الجدة والوفور، ومكثت في مكابدة الأسفار ومعاناة البحار عدة من الليالي، ومدة من الدهور، فرفعت له من نظمي قصيدة ضادية حكمت نسجها حاكيا، ولكت فيها الزمان شاكرا وشاكيا، فتقبلها بقبول حسن وأيقظ لها اعتناؤه ولم يكن ذا وسن وإن كانت مزجاة البضاعة مستوجبة الإضاعة فعين الرضى كليلة عن كل عيب لا يرتضى، وقد أثبتتها في ديوان شعري، وربما والله أعلم أجادها فكري. فإنه رأيته يقرأها ويتمايل طربا ويردد ألفاظها استحسانا وعجبا وسمعت الناس يقولون إنها حسنة فلا أدري أصدقا أم كذبا، وكيف ما كانت فقد جعلها الله لا تنفعني به سببا، وإن كنت كتبته بالمداد فقد

ملاً يدي فضة وذهبا، وأمر لي مع ذلك بجراية نفقتي وراتي في كل يوم مدة إقامتي بالإسكندرية ومكثت كذلك تحت نائل جراتيه، وطائل عنايته، إلى أن افتصلت عنه مسافرا وودعته خجلا من فضله سافرا. فرحا برفده، مفصحا بحمده، متزودا من عنده فسمعت عليه بمترلة ومجلس حكمه من الإسكندرية الحروسة بلفظ إمام لمحدثين معين الدين بي عبد الله المصغوي المتقدم الذكر، وبفقد الرواية عنهما جميع تاريخ الرقة للحافظ أبي علي القشيري الحراني الرقي وحدثني به عن الشيخ الإمام أبي عمران موسى بن عثمان بن محمد البراز سمعا منه عليه، قال حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن ليبي يعقوب يوسف بن همة لله بن محمود بن الطفيل الدمشقي قال أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، قال أخبرنا المبارك ابن عبد الجبار بن أحمد الصيرفي قال: أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن جعفر السلماسي، قال: أخبرنا أبو أحمد محمد بن عبد الله بن أحمد بن القاسم بن جامع الدهان قال: حدثنا أبو علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن عيسى بن مرزوق القشيري الحراني حافظ الرقة بالرقعة، قال الإمام معين الدين المصغوي القارئ المذكور وهو في إجازتي من الشيخ أبي عمران موسى بن عثمان بن محمد البراز المذكور وقد سمعت عليه غيره من مروياته وكتب تدريسه المتداولة بين يديه في الحديث والفقهاء وتفقهها، وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة متلفظا لي بها غير مرة وكاتبا بخطه، ثم شرع الركب المغربي في السفر وانقلب مقضي الحاجة فائرا بالظفر فاشتاق أخي محمد إلى المواطن الأندلسية الكريمة ورأى أن يرجع بما سن الله تعالى له من الغنيمة فأثرت مذهبه في ذلك ورأينا أن لا تنقطع عن الأهل المنقطعين هنالك فصرفني المقادير عن صحبته وقضت بقفوله وتسنى سفره مغربا على بغيته وسؤله، ورحل ولا تسأل عن بقائي بعد رحيله، ورجوعي من وداعه إلى موطن قعوده ومواطن حلوله:

وبردا على الأحشاء عاد غليلاً

فلم أر أنسا قبله عاد وحشة

به كان ليل الحزن منه طويلاً

ومن تك أيام السرور قصيرة

ويا لساعات التوديع ما أشد كرها وأحد غربها، وأكثر إلهابها للخلد، وإذهاها بالجلد فصدر ووردت واجتمع وانفردت وعدت إلى مترلي:

ومديد وافر وطويل

ولو جدي من العروض بسيط

قطع القلب بالفراق لخليل

ولم أكن عارفا بهذا إلى أن

أدري دمع العين، وآسى لشمل لا ينفك من روعة البين، وأفكر في عهد كنت إليه استمنت، ولعيني في ظله أمنت، فما برحت الأيام حتى أخلقت برده وعلقت شاهده وأتته من بابها وعضته بناها:

وقد علاني خبل

ورجعت من تشييعهم

وكل من خاطبني
يقول من أبصرني
فلقد أصابني لفراقهم ما أنه:
قلت له قد رحلوا
وسوس هذا الرجل

لو كان بالفلك الدوار لم يدر
أو كان بالماء لم يشرب من الكدر

أو كان بالعيش ما في يوم رحلتهم
كأن أيدي مطاياهم إذا وخذت
أعيت على السائق الحادي فلم يسر
يقعن في حر خدي أو على بصري

فغودرت المنازل صماء عمياء، ودهيت من الفراق بدهية دهياء، وبقيت لا ميتا مع الأموات ولا حيا مع
الأحياء، أظنارح بين تلك المنازل، أتجرع غصص المنايا من خطب الفراق النازل، وأترامى على مواطئ
أخفاف الرواحل، وأمر بخدودي على ممر الحبيب الراحل. . .

وأنتسم نواسم تلك المعالم
ونمشي حفاة في ذراها تأدبا
فيفوح لي كالعنبر الممتنفس
نرى أننا نمشي بواد مقدس

وعجبت للإسكندرية كيف جمعتنا ثم فرقتنا ولم تغربنا معا كما شرقتنا وأنشدت:

من لم يكن أخذ الهوى بفؤاده
فرأيت أن أشد كل بلية
فلقد أخذت من الهوى بنصيب
قضيت على أحد فراق حبيب

وكان سفره مع الركب المغربي المذكور في غرة جمادى الأولى من عام تسعة وثلاثين وسبعمئة:

راق الفراق لجيرة من بعدهم
ولكم سألت لينجد الحادي بهم
ما راق لي عيش ولا دمعي رقا
يوم الندي فأبى السؤال وعرقا

رحلوا وللزفرات بين ركابهم
يا باكي بالأطلال بعد حبيبه
نار يكاد زفيرها أو يحرقا
حزنا يومل دمنة أن تنطقا

بح بالسرائر واهم دمعك واشتھر
أن الذين عهدتهم سكانها
وجدا بت النوم عنك مطلقا
نعب الغراب بشملهم ففرقا

فأقمت بعده للعلم ملازما، تارة متعلما وتارة معلما إلى أن يسر الله تعالى في تجهيز مركب سيف الدين،
وحان سفره بجمع عظيم من المسلمين فركبت فيه في يوم السبت السادس لشوال من العام المذكور،
وسرنا في مواسط تلك البحور طورا في الصعود وطورا في الحدور، ولنحذف زيادة الأنواء وإثبات الجرور

وعدة ما تكرر لي في تلك الموسطة من المرات والشهور إلى أن وصلنا "مرسى الحمامات" بليدة بقرب
 حضرة تونس فزلت بها ضحوة يوم الاثنين السادس لذي قعدة من العام المذكور وخرجت منها في
 ضحوة يوم الأربعاء الثامن لذي قعدة المذكور ودخلت حضرة تونس المحروسة في ضحوة يوم الخميس
 التاسع من الشهر المذكور، فزلت منها بمدرسة الشماعين واجتمعت بإخواننا وأوليائنا من الطلبة
 والمدرسين، فألفيتهم لم ينقص الله لهم عددا، ولا أراهم بالفراق شملا مبددا، فسر الجميع بالاجتماع،
 وأقمنا كما كنا على المذاكرة والانتفاع، وكأني ما مددت إليهم يدا للوداع فنشروا من در الشاء منشورا
 ومنظوما، ونشروا من برود الصفاء مطويا ومكتوما فأنشدتهم:

أني وإن شط المزار وبددت أيدي النوائب شملنا المنظوما

لم أخل من حسن الثناء عليكم مذ غبت عنكم ظاعنا ومقيما

وأقبلوا يطالبوني بما اجتلبت من الفوائد، ويقصدوني في إطلاق ما قيدت من القصائد، لا أحصي كم
 أدبيا كتب عني قصيدة صاحبنا جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن سليمان الدمشقي المعروف بالنابلسي،
 وهي:

أسر الفؤاد ودمع عيني أطلقا والوجد جدده وصبري مزقا

حلو الشمائل ما أمر صدوده متنع قد لذ لي فيه الشقا

بعث الغرام إلى المنام فرده عن عين عاشقه فبات مؤرقا

إن قلت مالي بالتجني طاقة ولي وباب الوصل عني أغلقا

ظبي من الأتراك ينفر خيفة في الحب من شركي به أن يعلقا

وتصح نسبته إذا حققها للترك لحظا والأعاريب منطقاً

طرح الذؤابة خلفه فحسبتها حنشا بغصن أراكه متعلقا

صل الركاب إذا تمثل راكبا فإذا ترجل ضمها متمنطقا

طالت فزاد سوادها فظننتها ليل الصدود فلم أزل متعلقا

للحسن ماء جال في وجناته كم فيه من إنسان عين غرقا

يسمو بطلعته عن قمر السما وبلين قامته على غصن النقا

وإذا تكلم أو تبسم ثغره ما يترك السالي إلى أن يعشقا

في مهجتي جمر الأسى مثلها وبثغره ماء الحياة مروقاً

يا طيبة ماء ويا ظمأي فهل
أروي به وأعب حتى أشرقاً
ومنها: يا عاذلي أقصر وتب عما مضى
ما أنت في عذل المحب موقفاً
قد قلت لي يسليك عنه مثله
وصدقت لكن مثله ما يلتقيا
يا فاتر الأجفان أحرقت الحشا
مني فذبت صباية وتشوقاً

يمضي الزمان وما أزور ديركم
من كثرة الرقباء عند الملتقا
وأريد أسبح في الدموع إليكم
فأخاف من ضعف القوى أن أغرقاً
وأرد عن برد النسيم تنفسي
أخشى يهب لكم لهيباً محرقة
أما غرامي من هوائك فإنه
باق ولكن في السلو لك البقا

وأخذت فيما كنت فيه من معرفة ولي أصطفيه أو عالم أبادر لملازمته وتخفيه، فممن لازمته كثيراً،
وأخذت أولاً وأخيراً، الشيخ الفقيه الأديب أبو العباس أحمد عبد الله الأنصاري المعروف بالرصافي شيخ
صالح غاد في طاعة الله رائج معهم في الحق، أخذ بالجد والصدق، لا يخالط أحداً ولا تراه إلا منفرداً
مشتغل بالعلم والعمل، خال من الحرص والأمل، محافظ على أوقات العبادة متقشف في أحواله تقشف
الزهادة، مقتصد اقتصاد العليل، مقتصر على أقل القليل، قد استعد للرحيل، وثمر للعبادة بجسمه النحيل
ورسمه المحيل فاستنفد الدهر علالته، واستنشق بلالته وغادره كالحيال الشعري، والغرض الأشعري، فهو
يتظاهر بشعار المتحلم ويسفر عن سن عوف بن محلم عزيز النفس نبيل الحدى، قوي المنة على الهمة مقبل
على الأمور الدينية المهمة، مهتم بما ينيله خير الدارين، قليل العيال، وقلة العيال إحدى اليسارين، قد سلك
في العزلة أحسن المسالك وعمل على ما قاله إمام البلاغة بن مالك:

منغص العيش لا يأوى إلى دعة
من كل ذا بلد أو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم ترض همته
سكنى مكان ولم يسكن إلى أحد

له حظ من الأدب وافر، ووجه بمحاسنه سافر، وعناية هو بها مكاثرة وأمام ناظم ناثر، رحل إلى المغرب
زمان شبابه، وسلك سبيل الهدى ودخل من بابه، فلقى جماعة من جلة العلماء وعلية الفضلاء منهم بسببة
الشيخ العالم العلم أبو القاسم بن الشيخ الفقيه المحدث أبي العباس العزفي اللخمي سمع عليه طائفة من
كتاب الدر المنظم تأليف أبيه وكتب له بالسماح والإجازة العامة والشيخ العالم الصالح الإمام في علم

العربية أبو الحسين بن الربيع القرشي سمع عليه كثيرا من كتاب سيبويه ومن الإيضاح ومن الجمل ومن شرحيه عليهما وأجازه وكتب له بخطه: والشيخ العالم الناصر الناظم أبو الحكم مالك بن المرحل سمع عليه كثيرا من تأليفه ومن أمداحه في النبي صلى الله عليه وسلم، ومن نظمه ونثره، وأجازه إجازة تامة مطلقة، وقد قرأت عليه كل ما سمعه عليهم من ذلك وحدثني به عنهم، والشيخ الفقيه الفرضي أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري التلمساني قرأ عليه قصيدته اللامية الشهيرة المتضمنة النسب النبوي الكريم، والمعشرات التي له على أعاريض الشعر، والرجز الذي نظمه في الفرائض، وقد قرأت عليه أنا بلفظي جميع ذلك كله، وحدثني به عنه قراءة عليه، ومنهم بغرناطة الشيخ الفقيه المقرئ أبو جعفر بن الطباع قرأ عليه بعض القرآن العظيم وأجازه وكتب له بخطه، والشيخ الأستاذ النحوي أبو الحسن ابن الضائع الأشبيلي سمع عليه كثيرا من إلقائه في علم العربية وأجازه إجازة تامة مطلقة وكتب له بخطه والشيخ الفقيه المقرئ أبو سهل اليسر بن عبد الله بن محمد بن خلف بن مروان بن اليسر القشيري قرأ عليه جميع الأربعين حديثا عن الأربعين شيخا وهي المسماة بالجواهر والدرر تأليف الشيخ العالم الحاج الزاهد المحدث أبي الحسن علي بن يحيى الأزدي الجبائي حدثه بها عن مؤلفها المذكور قراءة عليه، وقد قرأت جميعها عليه، وحدثني بها بالسند المذكور وأشيأه جماعة كثيرة احتوى عليهم برنامجي، وقرأت عليه جميع كتاب التيسير للحافظ أبي عمرو الداني رحمه الله تعالى، وحدثني به عن الشيخ المقرئ المسن أبي بكر بن محمد بن الفقيه أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر أحمد ابن مشليون الأنصاري البلسي قراءة عليه حدثه به عن أبي عبد الله بن نوح وأبي جعفر الحصار وأبي عبد الله بن مسعود الشاطبي قراءة عليهم قالوا: حدثنا أبو الحسن ابن هذيل عن أبي داود عن أبي عمرو الداني مؤلفه، قال أبو بكر بن مشليون، وكتب به إلى إجازة أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي حمزة المرسى عن أبيه سمعا عن مؤلفه، وقد قرأت بلفظي جميع كتاب التيسير المذكور ببلاد المغرب والأندلس وغيرها على أزيد من عشرين شيخا من الشيوخ الجللة الأعلام، وأخذته مبعضا وسمعا عن جماعة أخرى كذلك، كل واحد منهم كتب لي بذلك بخط يده، وأسانيدهم فيه مستوفاة في برنامجي، وقرأت عليه جميع تخميس قصيدة الإمام أبي عبد الله بن أبي الخصال البائية الشهيرة التي أولها "إليك فهمي والفؤاد يثرب" للشيخ الأديب، الفاضل أبي بكر ابن حبش رحمه الله تعالى عليه، وحدثني بالتخميس عن ناظمه ابن حبش المذكور قراءة عليه. وقرأت عليه نظمه الذي خمس به قصيدة أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الأشبيلي الإسلامي التي أولها "تنازعي الآمال كهلا ويافعا" وقرأت عليه كثيرا من نظمه، وأجازني وكتب لي بخطه ومولده بمدينة مرسية جبرها الله تعالى في اليوم الثاني والعشرين من شهر رمضان المعظم من عام خمسين وستمائة وأخبرني رضي الله عنه قال خمسست هذه القصيدة العينية المذكورة منذ عشرين سنة فارطة عن التاريخ وكنت في حين تخميس لها رمد العينين فساعة ما أتممت

تخميسها برئت من الرمد وشفاني الله تعالى وعاد بصري كأحسن ما كان، وهو والحمد لله كذلك إلى الآن ما شكوته بعدما كبر السن، وأخبرني قال: أخبرني بمدينة سبته شيخني أبو الحكم مالك بن المرحل رحمه الله تعالى قال: كان هناك معنا أبو إسحاق إبراهيم بن سهل المذكور وقد حسن إسلامه ولازمت الجماعات صلواته، ولازم القراءة واشتغل بها ونظر في الأدب فنبغ في الشعر وكان من جملة كتاب علي بن خلاص صاحب سبته إلى أن عين ابن خلاص ولده رسولا إلى المنتصر ملك تونس، ووجه ابن سهل معه فركبا في البحر في غراب، وسار إلى أن هال البحر فغرقا معاهما، وكل من كان ركب معهما ولم يخرج منهم أحد، ولما بلغت المستنصر وفاة ابن سهل في البحر قال عاد الدر إلى وطنه، وأنشدني لأبي إسحاق بن سهل المذكور:

تركت هوى موسى لحب محمد ولولا هدى الرحمن ما كنت اهتدي
وما عن قلى مني تركت وإنما شريعة موسى عطلت بمحمد

قد خرجت جميع ما أنشدني لنفسه ولغيره من القصائد والمقطعات جزءا كبيرا، ومن لازمت تعليمه ولزمت تعظيمه الشيخ الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن هارون أبقى الله بركته، إمام في الفقه وأصوله. . . وعلم الكلام وفصوله، متوصل بالجد والجد إلى حصله، فهو علم من أعلام المعارف ومعلم لأعلام الحلل الدينية والمطارف، نبغ بما وعى من العلم الأصيلي المعرق، وشفع ما استفاده من علماء بلدة تونس بما استفاده من علماء المشرق، وأظفرت رحلته بالمبرزين العلماء والمدرسين القدماء وآب من رحلته وقد قضى عنه فرضه، واشتاق إليه أرضه، وكمل فضله، واشتمل على الكمال الإنساني نقله وعقله، فانبسط في العلم بنباهته وانقبض عن العالم بتراهته، لزم مطالعة حدائق دواوينه، وحدث إلى متونها عيون حذقه وفهمه ودينه، فنفع الله بعلمه بشرا كثيرا، وأودع له في قلوب عباده من القبول حظا كبيرا، ولولا ما رزق من الزهد والقناعة لأعلق به قضاء الجماعة، فنيطت به أحسن تلك المدارس، وغبطت منه بالفوارس وأي الفوارس، فقام العباد بحقه، وصد قافيه الخبر النبوي، فلم يتماروا في صدقه، وعلموا أنه هو السابق في هذا المضمار الذي لا يترشح أحد لسبقه، فازدحم لإفادته أفواج الناس، اقتبسوا علمه، وهو النور الذي لا ينقص بكثرة الاقتباس حتى أقرت له السادات بالتسديد وأحيا الله به سنة الاجتهاد حين وقف غيره على سنن التقليد، فبرز في ميدان تدريسه بما برز، وأحرز من خصل السبق ما أحرز من جلالة القدر، وسعة الصدر، وحسن الخلق واعتدال الخلق، سهولة العبارة وصناعة صياغة الكلام للبدواة والحضارة، وقمع الباحث الملد، ومزج أليفاظ الهزل بالجد كامتزاز الماء بالنار في الخد، إلى تأليف قد اختص فيها بفصاحة البراعة واقتنص فيها أوضح طرق البراعة، فاحكم أصولها، وأتقن فصولها، ركب على

عواليها المثقفة نصولها، واحسن فيها ترتيب الإيراد والاعتراض، والقصد إلى توفية الأغراض، هذا إلى الاختصار والإيجاز، والمأخذ الذي يكاد ينتسب إلى الإعجاز يستوفي الإبداع في ذلك كله ببديهة ملاحظة للغايات البعيدة في اللوحة السريعة القريبة فإليها يطمح الأمل، بما الاعتماد وعليها المعول وهي:

أسرى وأسير في الآفاق من قمر ومن نسيم ومن طيف ومن مثل

وكانت لي بين يديه الكريمتين دول مأثورة له فيها حكم مثورة فأني كنت قارئ تلك الفصول وبارئ تلك النصول، والمعيد لما ييدي، والسبب فيما يهدي من ذلك ويسدي فيسحري ويسبي الحاضرين حسن إلقاء وملاحظة إشارة وإيماء، ونبل تنبيه، ولطف توجيه، وإصابة تنظير، وإجادة تنقيح، وقلما ترى العين، أو تسمع الأذن بأصل من الأصول، وأفرع من الفروع، وأبرع في نقد الكلام وسبكه، وأعرف بتبنيف ابن الحاجب وفتح مغلقاته وحل مشكلاته منه رضي الله عنه قرأت عليه نفع الله به نحو النصف من كل واحد من تأليفي ابن الحاجب الفروعي والأصولي قراءة تفقه وبحث، وسمعت عليه الكثير من التهذيب وغيره من كتب الفقه والأصول والعربية، وقرأت سمعت عليه كثيرا من تأليفه ومنها شرح مختصر ابن الحاجب الأصولي وشرح مختصره الفروعي، وشرح المعالم الفقيه واختصار المتبعية واختصار التهذيب وشرح التهذيب في مجلدات عديدة، وشرح الحاصل، وغير ذلك وسوغني الرواية في جميعها بالمناولة والأذن وأجازني جميع ما يحمله ويرويه وكتب لي الإجازة بخطه ومولده سنة ثمانين وستمائة ثم نضيف إليه ونعطف عليه من تبركت بالمثل بين يديه الشيخ الفقيه العدل أبا زكرياء يحيى بن الشيخ الفقيه العدل المرحوم أبي إسحاق إبراهيم ابن الشيخ الفقيه القاضي المرحوم أبي زكرياء يحيى بن يوسف بن إدريس الحسيني لشهير بالسلوي أبقى الله بركتهم.منه، شرف يا له من شرف، وسلف كريم خلف، وبيت أصيل شمع، في حرز منيع، وعز مكتنف فطال بالعلياء شغفه وزاحم منكب الجوزاء شرفه. وشرف بقومه وزاد على أمسه في الفضائل يومه، نشأة صالحة وركب إلى التقوى طريقا واضحا فاهتدى بسنن مبين واقتدى بسند متين وجمع له بين حسب وعلم ودين، هذا إلى أكرم النجار وعشق المنمى، وطيب الأرومة وشرف الخيم، وطهارة البيت وزكاء العقب، فما جملة الأعلام وحملة الأسياف والأقلام، إلا دون محطة العالي، وبمترلته السامية، فهو بحر حصاه الدر النفيس وروض يجني منه أطايب الثمر الجليس قدر برز من التوفيق في أحسن حلية وبرز في التوثيق وكان عنه في غنية، إلى وقار لا تحل حباه، وصون لا يتسنى الدنس رباه وسؤدد على رغم من أباه. أشبه فما ظلم ومن سعادة المرء أن يشبه أباه.

أشبا أباه فصار في أعراقه متوغلا وجرى إلى مضماره

فوافؤه كوفائه وحيائه

كحيائه ووقاره كوقاره

رحل إلى المشرق عام ثمانية وثمانين وستمائة فحج وزار، وحط الذنوب والأوزار، ولقى المشائخ فروى عن جلة، وعاد في كثرة من الفوائد وغيره في قلة، حضر تدريس الشيخ الإمام قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد وأجازه ولقى الشيخ الإمام الكبير قطب الدين القسطلاني وغيرهما من الأئمة الكبار وحاملي الآثار، ثم آب عن يسيرة من السنين، ورأى قرّة العين في النفس والمال والبنين، قرأت عليه بمثله المبارك من حضرة تونس المحروسة جميع كتاب موطأ الإمام ابن أنس رضي الله عنه، فأكمل لي قرأت عليه بلفظي في أوائل شهر ربيع الأول المبارك من عام أربعين وسبعمائة وحدثني به عن والده وعن الشيخ الإمام المحدث أبي جعفر أحمد يوسف الفهري الشهير باللبلي قراءة منه عليه بجمعيه وإجازة من والده بسندهما فيه وجميع برنامج الإمام أبي جعفر اللبلي موجود بيدي مصحح بخط يده رحمة الله عليه وقرأت عليه أيضا بمثله المذكور، جميع تخميس القصيدة النبوية الشريفة لمخمسها الإمام القاضي أبي عمرو عثمان بن عتيق بن عثمان القيسي مع القصيدة المذكورة، ولم يأت أحد لها بمثل فيما علمت، وحدثني به قراءة عليه عن والده المذكور، ومن خطه البارع نقلته حدثه به عن مخمسها أبي عمرو عثمان بن عتيق المذكور قراءة عليه وقرأت وسمعت عليه غير ذلك وأجازني وكتب لي بخطه، ومولده أواسط عام خمس وستمائة "ثم" نردفه برفيقه ومحل أخيه وشقيقه الشيخ الفقيه الخطيب أبي محمد عبد الله بن الشيخ الفقيه الجليل أبي عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه القاضي العالم المصنف أبي القاسم بن علي بن البر التنوخي هذه بيته غذيب بالعلم والأدب، وبنيت على المجد والحسب ورقيت في أعلى الخطط وأسمى الرتب، فإليهم ينتهي في حسن النقائب، وبفواضلهم تنطق ألسنة الحقائب:

قطفوا ثمار المجد من غرس العلا

بأكفهم فلنعم غرس الغارس

فهم لباب المجد عزة أنفس

وذكاء الباب وطيب مغارس

ما منهم إلا عالم أو أحد، لا ينعت ولا يحد، ولهم بالدولة الحفيضة سبق ذكر وحق لا ينكر، والقاضي أبو القاسم جدهم، به سفر مجدهم، وهو الذي عمر ربع الملك وأمر بالحياة والهلك، ودبح القرطاس وفوف، ودون العلم وصنف، وشيخنا الخطيب أبو محمد هذا بديع الإحسان بليغ القلم واللسان، وقد أتاه الله مقاليد هذا الشأن وملك بنان فضله أعنة المعاني، وأزمة البيان، وأقام من البراعة على منابر أنامله إظهارا لمعجز البلاغة خطيبا مشقوق اللسان، فهو ذو الفضل والكرم، والسيف والقلم والعلم الذي يخفق لنشره العلم، وتحلى المسامح بما تمنحه من لآلئ كلمه، وتنقل إلى رياض الآمال الظامية ما شهدته من دوام ديمه

فلا برحت مكارم الأخلاق وأخلاق المكارم، تشام من برق شيمه وأحرار المحامد ومحامد الأحرار تعد إمائته وخدمه، بمن الله تعالى وفضله وكرمه، لقيته بمثله المبارك من حضرة تونس فقرأت وسمعت عليه به وبالجامع الأعظم المشهور بجامع الزيتونة تصانيف وأجزاء، فإنه لما خيرته المحاسن في أنفسها، فاختص بأنفعها وأنفسها، وحكمته السيادة في معالمها، فحكم من الأوامر والأمر أعاليها، كان مما أقام به من الدين متونه إقامة الفرائض المكتوبة إماماً بجامع الزيتونة إلى غير ذلك من الخطابة بالحضرة العلية، والمراتب السامية السنية، فكنت كثيراً ما أقرأ عليه بالدويرة التي يخرج منها الخطيب وهي بأزاء الحراب، من جهة اليسار، ومما قرأت عليه بها بلفظي جميع ثلاثيات الإمام أبي عبد الله البخاري رضي الله عنه، وحدثني بها بسنده في برنامج روايتي وجميع المجالس الخمسة التي أملاها الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد ابن أحمد السلفي الأصهباني.

وحدثني بها عن جده أبي القاسم المذكور إجازة قال قرأت جميعها على الشيخ الإمام المحدث الزاهد أبي الفضل جعفر بن أبي الحسن الهمداني بمسجده بالإسكندرية، وحدثني بها سماعاً عن الحافظ ممليتها أبي الطاهر السلفي المذكور وقرأت عليه جملة من برنامجي الذي جمع فيه أشياخه وأسانيده، وتناولته من يده المباركة، وأجازني جميع ما يحمله ويرويه إجازة تامة مطلقة عامة وكتب لي بخطه حدثني رضي الله عنه قال: حدثني جدي أبو القاسم المذكور، قال أنشدني بالقدس الشريف عند محراب سيدنا زكرياء النبي عليه السلام الشيخ الصالح أبو علي حسن ابن أحمد الأوقي قال أنشدنا الفقيه الإمام العالم أبو الجيوش عساكر بن علي بن نصر المقرئ، قال: أنشدني الشيخ أبو الحسين عبد الكريم "التككي" قال: أنشدني الصقلي بالإسكندرية من شعره لنفسه:

مزرفي الصدغ يسطو لحظه عبثاً بالخلق جذلان أن يشكو الهوى ضحكا

لا تعبتن بورد فوق وجنته فإنما نصبته عينه شركا

وحدثني أيضاً قال وحدثني جدي المذكور عنه عن الحافظ أبي طاهر السلفي أنشدهم محمد بن علي السجلماسي المحاور بمكة شرفها الله تعالى بدار العجلة قال: أنشدني إبراهيم النحوي بسجلماسة لنفسه:

زعموا أن من تباعد يسلو ولقد زادني التباعد وجدا

أن وجدي بكم وإن طال عهدي وجد يعقوب حين أصبح فردا

وحدثني قال وحدثني جدي الشيخ المقرئ الصوفي الواعظ أبي عبد الله بن الجنان قال كنت مع جماعة من أهل التصوف بأصبهان في رباط هنالك، واجتمع أصحابنا ليلة في سماع فلما كان في أثناء ذلك بعد مضي جزء من الليل والوقت قد طاب إذ ضرب الباب ضارب فخرج إليه من سكب ذلك فوجد شيخاً طويلاً

لقامة، عظيم الهامة على رأسه كرزية وعليه فرجية ويده إبريق وعكازة، فقال ما هذا قلنا سماع اجتمع فيه الأصحاب فقال ندخل فدخل فوجد القائل يقول:

خليلي لا والله ما القلب سالم
وإن ظهرت مني شمائل صاح
وإلا فما بالي ولم أشهد الوغى
أبيت كأني مثخن بجراح
فرمى للمنشد ما كان على رأسه ثم قال له قل فقال:

يا بانة الجزع لولا رنة الحادي
لما تنقلت من واد إلى وادي
ولا سألت بنعمان الأراك ولا
شربت ماء به يا نهلة الصادي
وقال: كرر على حديثهم يا حادي
فحديثهم يطفي لهيب فؤادي
كرر على حديثهم فلربما
لأن الحديد لضربة الحداد
فترع فرجيته وبقي الشيخ عريانا وقال قل فقال:

غرام ووجد واشتياق ولوعة
وما ذاق إنسان من الحب ما ذقت

نحلت فلو علقت في جفن ذرة
لطارت ولم شعر بأني علقت
ولو نمت في جفن الذباب معرضا
من السقم لم تتشعر بأني قد نمت
ولو نفس من أنفها قد أصابني
من الشوق أو من حر أنفاسها ذبت

قال الشيخ أبو عبد الله بن الجنان فصاح الشيخ صيحة عظيمة وشهق شهقة قوية وخرجت روحه رحمة الله عليه، ولما أصبح الصباح وطلع النهار غسلناه وجهناه إلى حفرت، وتركناه في عظيم رتبته، وحدثني قال وحدثني جدي عن الشيخ أبي الفضل الهمداني عن الشيخ الشريف القاضي أبي محمد العثماني قال أنشدني الشيخ أبو بكر المبارك ابن كامل بمكة حرسها الله تعالى قال أنشدني أحمد بن عبد السلام لمديني قال أنشدني أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري قال: أنشدنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي:

قف بالديار فهذه آثارهم
تبكي الأحبة حسرة وتشوقا
كم ذا وقفت بها أسائل مخبرا
عن أهلها أو صادقا أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها
فأرقت من تهوى فعز الملتقى

وليكن خاتم علماء الحضرة الإفريقية وآخر المشائخ في الحلبة المشرقية من ختمت بجده حلبة الرسالة والنبوة، وظهرت عليه بركة السلالة الطاهرة والنبوة، الشيخ الفقيه الراوية أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن إبراهيم بن يحيى ابن موسى بن هاشم بن مجير بن أبي فليته بن جواد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب طاهر، ونسب ظاهر ووجه زاهر وفضل كامل باهر، فهو في الأرومة السنية، والدوحة الحسنية، ولدته الرسالة فيا شرف هذه الولادة وشهدت لجده أكبر السبطين بالسيادة وناهيك من منصب هذه الشهادة فلله دره من راضع در متواضع من شرف الأبوة أيسامي بشرف أو يداني بمفخر، من له هذا الشرف الأطهر، أو يفاخر في محضر، من ينتمي إلى السبط الأكبر بخ بخ، هذا المجد الأطهر، والسؤدد الأتلد النور. . .

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

كل خطوة، عند ذا الشرف محطة، وكل مرتبة، مع هذا الحسب مثلبة، هذا إلى ما له من البشر الرائق الحيا، والنشر العاطر الريا، والذات الفاضلة التي تمتعت بالدين والدنيا، وقد زين الله له حسن الوجه والأخلاق، وطيب المختد والأعراق، بكرم عظيم، وفضل عميم وقلب شفيق رحيم، فلا يزال في مواساة وتفضل وإيثار وتطول، وترق إلى المكرمات وتوصل، مهر في القراءات، وتبحر في الإسناد والروايات وأبدى في ذلك الأعاجيب، بل العجائب والآيات، فأخذ عن خلائق لا يحصرهم عدد وانفرد بما لم ينفرد به في ذلك القطر أحد، أفضل الفضلاء خلقا وأسمحهم نفسا، وأحسنهم للإخوان مشاركة وأعظمهم للضعفاء مواساة وأكثرهم على عباد الله شفقة:

مناقب شمخت في كل مكرمة كأنما هي في أنف العلى شمم

لقيته بحضرة تونس قبل توجهي إلى الحجاز الشريف، وبعد قفولي منه فقرأت عليه أولا القرآن العظيم، ختمة كاملة بقراءة الإمام أبي عبد الرحمن نافع المدني جمعا بين روايتي ورش وقالون عنه وكتب لي بذلك بخط يده إجازة مؤرخة بتاريخ الخامس عشر لشوال سنة ست وثلاثين وسبعمائة وخط فيها مولده بتونس في شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ستمائة، وحدثني أنه قرأ بقراءة نافع ختمة كاملة جمعا على الشيخ الفقيه الحاج أبي التقي صالح بن الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن سليمان بن وليد الطرطوشي الأصل البلسني المولد الأنصاري النسب المشتهر بابن شوشن، وأشهد له بذلك على نفسه في أواسط شهر رمضان المعظم سنة ست وثمانين وستمائة، قال: وأنا آخر من أخذ عنه هذه القراءة، ولم يبق ببلد تونس

من أخذها عنه غيري وحدثني بها عن جماعة من شيوخه أعلامهم طريقا الإمام المقرئ القاضي أبو عبد الله
 محمد بن عبد العزيز بن سعادة الشاطبي قراءة عليه بحرف نافع عن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن
 هذيل وأبي عبد الله محمد بن الحسن بن سعيد الداني قراءة عليهما، قالوا: قرأنا على الإمام أبي داود سليمان
 بن نجاح عن أبي عمرو الداني بسنده، وقرأ أيضا شيخنا هذا بالقراءات السبع على غيره، وقرأت عليه
 أيضا جميع كتاب التيسير للحافظ أبي عمرو الداني رحمه الله تعالى. وحدثني عن قاضي القضاة أبي العباس
 أحمد بن محمد الغماز قراءة منه عليه بجميعه حدثه به عن الفقيه الراوية أبي الحسن محمد بن أحمد بن محمد
 بن سلمون البلنسي سماعا عليه عن أبي الحسين بن هذيل وعن أبي داود سليمان بن نجاح عن مؤلفه أبي
 عمرو الداني سماعا متصلا، وحدثني به أيضا عن الأستاذ المقرئ أبي العباس البطراني قراءة منه عليه بسنده
 فيه، وقرأت عليه ثانيا جميع كتاب موطأ الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه وحدثني به قراءة وسماعا عن
 جماعة أعلامهم طريقا الشيخ الراوية المسن أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي قرأ عليه بلفظه
 جميعه وسمع كثيرا منه عليه وقد تقدم سنده فيه، وقرأ جميعه أيضا على أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم بن
 أحمد بن عقاب الجذامي، وحدثه به عن القاضي بي الحسن علي بن عبد الله بن قطرال الأنصاري قراءة
 لبعضه وسماعا لسائره عن أبي محمد عبد الحق بن عبد الملك بن بونة العبدري قراءة عليه قال: سمعته على
 أبي عمر أبي بحر سفيان بن العاص الأسدي قال سمعته على أبي عمر بن عبد البر قال سمعته من أبي عثمان
 سعيد ابن نصر عن قاسم بن أصبغ عن محمد ابن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك قال أبو الحسن بن
 قطرال: وأحمله عن الحافظ أبي عبد الله محمد ابن سعيد بن زرقون الأنصاري سماعا عليه لأبواب منه
 وإجازة لسائره عن أبي عبد الله أحمد بن محمد الخولاني إجازة عن أبي عمرو عثمان ابن أحمد بن محمد بن
 يوسف اللخمي القيجطلي سماعا عليه عن أبي عيسى يحيى ابن عبد الله بن يحيى عن عم أبيه أبي مروان عبيد
 الله بن يحيى بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى عن مالك، قال أبو الحسن بن قطرال في برنامجي وهذا السند
 أعلى الأسانيد المعروفة بالأندلس، وقرأت عليه أيضا جميع كتاب الشهاب للقاضي رحمه الله تعالى،
 وحدثني به عن قاضي القضاة أبي العباس ابن الغماز قراءة عليه ثم سماعا عليه أيضا حدثه به عن الخطيب
 أبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الله بن خيرة البلنسي سماعا عليه عن أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم عبد
 الرحمن بن الحضرمي سماعا عليه عن أبي عبد الله محمد بن أبي العباس الرازي سماعا عليه عن مؤلفه سماعا
 عليه، وقرأت أيضا على غيره وقرأت عليه جميع القصيدة اللامية الشاطبية في القراءات السبع، وهي
 المسماة بحرز الأمان وحدثني أنه عرضها من حفظه في مجلس واحد على الأستاذ أبي العباس البطريني بعدما
 سمع جميعها عليه، وحدثه بها عن جماعة من شيوخه، وقد استوفيت ذكرهم في برنامجي، وحدثني أنه
 عرضها أيضا على الإمام أبي جعفر اللبلي في مجلس قال سمعتها. مصر المحروسة على الشيخ الإمام كمال

الدين أبي الحسن بن علي بن شجاع العباسي، قال سمعتها وقرأتها على ناظمها، وقد كمل لي عليه ما بين قراءة وسماع في المرة الأولى وفي الثانية من الكتب والأجزاء نحو السبعين تأليفا انتقيتها من مسموعاته واخترتها من عوالي مروياته ولخصت أسانيدها في برنامجيه ومسنداته إلى غير ذلك من غرر الفوائد ودرر الأناشد، ومما انتخبت

هنا منها ما أنشدنيه بمثله من الحضرة التونسية قال: أنشدني الشيخ الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مسعود العبدري الحاحي لنفسه وذلك في رجب الفرد سنة تسعين وستمائة معارضا لأبيات القاضي أبي الفضل عياض التي في كتاب الشفاء له:

| | |
|--------------------------------|----------------------------|
| يا ساكني دار الحبيب عليكم | منى سلام طيب النفحات |
| يهنيكم قرب الأحبة فارحموا | صبا بكم قد صد بالنزلات |
| كم ذا أعلل بالوصول إليكم | قلبا شجيا مضرم الجنبات |
| قد نلتم قرب الحبيب فانتم | أبدا لذلك طيبو الأوقات |
| أن كنتم أهل اليسار فأني | أرجو نماء بضاعتي المزجاة |
| حسبي فخارا أن مصباح الهوى | من قلبي المفئود في مشكاة |
| فلأنثرن على ثرى آثاره | من عقد جفني لؤلؤ العبرات |
| حتى أروي القلب من ظمأ به | قاسيته في البعد طول حيائي |
| أعفر الخد المصون بتربة | تزري بعرف المسك في النشقات |
| بدر الدجا بحر النداء فخر الورى | وملاذهم في عرصة الحسرات |
| مالي سواه من المخاوف ملجأ | أرجو خلاصي عنده ونجاة |
| صلى الالاه وخلقه طرا على | من فاح منه معطر الروضات |
| يندي وينفح بالعبير نسيمه | ما شق نجم حالك الظلمات |

وأنشدني أيضا قال: أنشدني الشيخ الفقيه الفاضل أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن خلف الغافقي القتبوري قال: أنشدني نجم الدين بم مذهب الدين:

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| دمعي المنهل بعدكم من عيني | ما فيه لأجل بعدكم من عين |
| ما أغزره كأنه من عيني | بالعين أصبت يا لها من عين |

وأنشدني أيضا قال: أنشدني الشيخ أبو القاسم المذكور:

من أودع ريقه رحيقا سلسل

من بلل شعر قاتلي من سلسل

يا عادل أن جهلت ما بي سل سل

من غللي من سلسل

وأنشدني أيضا:

والسحر من مقلتيك واق وافر

الورد من وجنتيك زاه زاهر

يرجو ويخاف وهو شاك شاكر

وللعاشق في هواك ساه ساهر

ثم توفي الإمام الرئيس أديب الجماعة وجامع الآداب وكاتب العلماء وعالم الكتاب. أبو عبد الله ابن عمر المذكور قتل رحمه الله تعالى في غرة المحرم مفتح عام أربعين وسبعمائة أثر وصولي واستقلالي في تلك الحضرة وحصولي، فتعطل بعد ذلك الديوان.

وأرجف بأن ليس له غير فلان، فاستبعدت الأمر لما بيننا من بعد البون، والإرجاف مقدمة الكون، فما راعاني إلا رسل أمير المؤمنين إلي وإقبال الدولة الحفصية مع إعراضي علي، وولايتي خطة الإنشاء ومثول الكتاب بين يدي، فهناك كم صارفة صرفت، وعاربة عربت وعقيلة عقلت، وكلمة رمقت فومقت ومقلت فنقلت وكم مطايا ركبت وعطايا سكبت. وكسا كسيت وكبت، فيا لك من أيام غرر جلت غسقا. وتوالت نسقا كم بثت من ذكر عطر، وأخلصت من ثناء ثمين وأحييت من أمل دفين، وما برحت أتفياً ظلال الخلافة العلية، التي أقامها الله تعالى ميزانا للحق، وظلا على الخلق، فالتأم بها الصدع. واجتمع الأمان، وأمن الجمع، وكفت نوب الزمان، وحسمت بجدها وجدها أدواء البغي والعدوان، واعتز بها الإسلام. وافتر بها الدهر عن ثغر بسام. وانعقد على فضلها الإجماع. واستقرت بيدها قناة الدين يحملها الأمر المطاع، خلافة مولانا أمير المؤمنين وناصر الدنيا والدين الهمام المرتضى، والحسام المنتضى. حسنة الأيام، وقرة عين المسلمين والإسلام. غمام الندى الهاطل. وحمام العدا العاجل. ناظم شمل الفريق والفارج لباب الأزمة والضيق. جامع أشتات المعالي. ومحرز شروط الكمال، فلم يك يصلح الإله الأمر العالي السلطان الملك المؤيد. المنصور المظفر الأجدد الأسعد الأوحده العالم العادل، الفاضل الكامل. أبو يحيى أبو بكر بن أمير المؤمنين أبي زكريا بن أمير المؤمنين أبي إسحاق بن أمير المؤمنين أبي زكريا ابن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص:

وبدر دياجيها وشمس ضحاها

هلال لياليها وإنسان عينها

وجامع شملي مجدها وعلاها

مؤيدها منصورها وجوادها

أدام الله بهجة الدنيا بهجة سلطانه ووالي تمهيد ربوعه وتشبيد أوطانه وضاعف التأييد، والسعد الجديد في

أمره وشأنه، وشكر عن الإسلام وأهله عميم طوله وامتنانه. ولا زالت حوزة السمحة البيضاء مكنوفة برايته الحمراء وكتيبته الخضراء. ما نفح إحسانه بالصفراء، ودمت عدله جوانب الغبراء:

هذا دعاء تسبق الدنيا إذا سمعته مسرعة إلى التأمين

فإنه من كل أنور من الشمس ضياء، وأكمل من البدر بهاء، وأندى من الغيث كفا. وأحمى من الليث أنفا، وأسخى من البحر بنانا. وأمضى من النصل لسانا. وأوسع من الدهر صدرا وأرفع من النجم قدرا، يقر الملك ويذل الشرك، ويرفع علم الحق ويسط العدل بين الخلق فهم يحتلون منه بدر الحلك، وقطب الفلك، ويشاهدون من جلاله، وباهر كماله الطلعة الأنسية في صورة الملك، وقد احتوى القصر المبارك منه على أسد ورد أو ملك جعد، مخلف أيعاد ومنجز وعد:

ذو عزمة كالتماع البرق واقدة تجيء من نصره بالعارض الهطل

لولا السعود التي نيطت بهمته لكنت أنسبها بعدا إلى زحل

فانتهى من إشاعة الفضل، وبسط العدل، وبذل الصفح إلى الحد الذي فات الكمال دفعة واستوفى الخصال جملة، حتى كان ملك الدولة في إسعاد مدتها واحتشاد مواد النعم عندها، وارتفاع حوادث الغير عنها، نذر للدهر قضاءه أو أسبوع لعمره وفاه، إشراق أيام وليال، في قضاء أوطار وآمال، في كنف ملك مقبل السعد ميمون الطائر، غافل عن الأيام، مظاهر للأنعام، مسرور بما تنافس فيه رعيته، من زخرف دنياها، مقتصر لها من ذلك كله ما جانبها وعطاها آخذ عفوها، قابل يسرها، فلا أمير بعد أبي يحيى ولا خليفة بعد أبي بكر تبنكا في المجد، وانغماسا في النعم، اجتمع الناس على حبه، ولم يدهنوا في طاعته فصفا عيشه، واستراح قلبه، وكان من فرط الشجاعة في غاية بعيدة أحد العجائب ذكاء لب، وصرامة قلب، وتقدما إلى حرب عظيم الأناة، رفيع المهمة، على أخلاق حميدة، ومكارم جميلة، ذكيا يقظا، أديبا لبيا. حسن الكلام، جيد القريحة، مليح البلاغة، يتصرف فيما يشاء من الخطابة، بديهة وروية ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة وقصائد طويلة، في فنون كثيرة، لم يقصر فيها عن الغاية فطمحت إليه النفوس، وتعلقت به القلوب، ونزحت نحوه الهمم قصده الخلق من المغرب والمشرق، لسعه إحسانه، وعظيم تطوله، ووفور عطائه لمن نأ عنه وقرب منه، فهو في وقته نسيج وحده به ختمت فضلاء أهل بيته فلم يعهد فيهم مثله، ولقد أنشدته رضي الله عنه قصيدة لامية بعد أخرى زائفة، كلتاها من نظمي في مدحه، فلما فرغت منهما قبلت يده وانصرفت إلى مترلي فما وصلت حتى وصل من نعمه، أرضاه الله، من الملابس الحسان والمواهب والإحسان، ما أوجب الشكر بكل لسان، وأغنائي مدة عن شكوى الزمان وكذلك أنشدته

رضي الله عنه من نظمي أيضا جملة قصائد، في روى واحد على نحو ما كان ألقى إلي واقترح علي، فلما فرغت قال لي: قد أتيت بكل جميل، ونفع فيك ماء زمزم، وماء النيل، ثم أوماً بحاجبه إلى الحاجب، وأمر بإضافة الإحسان، وتنمية الراتب، فقبلت ما أمر به، وقبلت الأرض بين يديه، وقمت أشكر نعمه، وأقمت أنشر الثناء عليه، وما برح قلبي يجول في إقليمه وكلمي يجود بדרه بين محاورته وتكليمه، وأنا أريش وأبري، وأقيم وأقعد بنهني وأمري وأدير المملكة بهزازي نظمي ونثري، حتى عقب الشكر، وطبق الذكر، وكمل لي تصنيف لذة السمع والفكر، فيما أنشأته عن أمير المؤمنين أبي بكر، وهو أدام الله أيامه، وشكر في الخافقين ألوته وأعلامه يعتمد على قلبي ويعتضد بكلمي وينجد كتيبه بكتابتني، ويسعد رعيتي برعايتي، ويعد غرائبي من رغائبه، ومناقبي من مناقبه، حتى طمى الإيغال، في الاشتغال، وآل الإكرام إلى الإبرام وعاد الجنى إلى العنى، فرمقت الدنيا بالعين الزاهدة، وآثرت القفول إلى الوالدة، وسئمت من النوى والشئات وأزعجني اللجنة تحت أقدام الأمهات. وهمت بالوطن، هيام ابن طالب بالحوض والعطن وحننت إلى تلك البقاع حينه إلى أثلاث القاع وكلما أخذت في الإزماع صرفت عن تلك الأطماع، حتى فجئت بالوداع. وعزمت عزما إذن للدموع بالانسكاب وللقلوب بالانصداع وقد تمجر نفائس الأعلاق، وتبلى المليحة بالطلاق وحين علم مني أيده الله خلوص النية وتداركي هذا الفرض المتعين قبل احترام المنية، سلم لي في الوفاء بهذا النذر، ولم يكن ليقبل مني غير ذلك العذر، فأكبت على تقبيل يده متودعا، وأنشدته متفجعا لفراقه متوجعا:

يفض ضلوعي أو يفيض دموعي

وداع كما ودعت فصل ربيعي

فإني قد فارقت منك جميعي

لئن قيل في بعض يفارق بعضه

فأوسعت ملء عيالي حباء وأصبحت مركوبا وجنية وخباء، وأمطيت صهوة طرف من عتاق الخيل. رائع رائق، قيد الأوابد، مما أنجب الوجيه ولاحق، أشهب كالصباح يسابق الطرف، ويباري الرياح. ويمرح ما بين احتيال وارتياح. وارتجاج وارتباح:

بكمال خلقه ورقة حسنه

يستوقف اللحظات في خطوات

وشهامة طمحت به عن قرنه

ذو نخوة شمخت به عن نده

وجعلت أحب وأخذ ولا ألوي على من أجد، وكلما لاح بارق، ارتحت إليه، أو در شارق سلمت من البعد عليه، ذا بدت النجوم توهمت هممه، وإن هطلت الغيوم تذكرت نعمه، لا أسمع الغريبة، إلا قلت من كلماته، ولا أرى العجبية إلا قلت من فعالاته، أحل الرياض فأحسبها شمائله، وأرد البحار فأظنها نوافله:

ولكنها إحدى أنامله العشر

وما شبهوا بالبحر كفيه في الندى

وحن بسنان وانبرى مأرب يجري

يدان إذا أومى بها اشتاق صارم

من الدهر حتى نمت في مقلة الدهر

أمنت بها من كل شر أخافه

خرجت من تونس المحروسة عند طلوع الشمس يوم الخميس السادس عشر لشهر رمضان عن عام أربعين المذكور، ودخلت مدينة "باجة" المحروسة في عشي يوم الجمعة السابع عشر من الشهر المعظم المذكور، وخرجت منها في صبيحة الأحد التاسع عشر من الشهر المذكور ودخلت مدينة "الغناط" في ضحوة يوم الخميس الثالث والعشرين منه، وخرجت منه في يوم الجمعة الرابع والعشرين ودخلت "قسطنطينية" في عشي يوم الأحد السادس والعشرين من رمضان المعظم المذكور، فزلت بمزل صاحبنا الفقيه الجليل الكاتب البارع الناظم الناصر الماجد الأكمل أبي إسحاق إبراهيم بن الوزير الكبير الحسيب الأصيل أبي محمد عبد الله بن الحاج النميري لغرناطي، ذو المعالي العلية، والفنون العلمية، والحكم الأدبية والآداب الحكيمة والكرم المفضل والفضائل الكريمة والبلاغة التي لها على البلغاء منزلة المزيدي، ومزيد المزية، مع الحسب الأصيل. والكفاية في طلب العلم والتحصيل والمعارف التي بها جيد الزمان حال على الجملة والتفصيل شهادة قبل أدائها من كل نفر، ويثبتها قول الفاروق رضي الله عنه الذي زكى عنده رجلين، أكنت معهما في سفر، فهو صديقي الحق، ورفيقي المرفق، ومعاشري ذاهبا وآتيا في بلاد المشرق، فتهادينا تحية الأصدقاء وتنادمنا بمحدث ذلك السفر وأولئك الرفقاء ولا تسأل عن حسن هذا الاجتماع وأنس هذا اللقاء:

لما هز من أعطافه تتقصف

حديث تخال الروح عند سماعه

ونما الخبر إلى حفيد مولانا السلطان الأجل الأسنى الأسمى الأكمل، أبي زيد عبد الرحمن بن السلطان الأجل الهمام الأواحد المرحوم أبي عبد الله محمد بن مولانا أمير المؤمنين ابن يحيى أبي بكر أيد الله سلطانهم ومهد أوطانهم وهذا صاحب الفاضل هو كاتبه الذي تحلى بكتابته ملكه، وانتظم بدرر نظمه ونثره سكه وملكه أبوه رحمه الله المماليك والأملاك، فحصل له ملكه فرأى أيد الله أن ينوه بجاني وأن لا يترك حظه من إكرامي لصاحبي وأمر بتجهيز منزل حافل وانتقالي إليه. وإجراء كل ما احتاجه ويحتوي المنزل عليه، وأقمت أتطرق عوارف أياديته وأحل كل يوم بناديته، وصاحبي يعرفني بما يجتنيه. من أنعامه ويجتنيه، ويطرفني بغرائب وغرائب أبيه ومنها ما أنشدني قال أنشدني لنفسه السلطان، الأجل الفاضل الكامل، ولي عهد أمير المؤمنين قرة عين أبيه وأعين المسلمين أبو عبد الله محمد بن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر رضي عنهم أجمعين:

وأرثا عن الفاروق وهو عظيم

نكون ملوك الأرض ذاتا ومنصبا

وتملكنا هيفاء خود غزالة

مريضة طرف أن ذا لعظيم

وما أنسى لا أنسى خروج هذا النجل السعيد، إلى المصلى صبيحة ذلك العيد الذي كان وجهه في عيد، في مركب نبيل من وجوه عبيد، متناسف في فخورة الملابس محففين من أداة الفوارس، يحفونه حف النجوم بالقمر الأضحيان، وقد ركب بين يديه صنوف من العبيد، وألوف من أبطال الجنود، تضيق بهم الفجاج، وتزخر في بحر الحديد منهم الأمواج، وقد أشرق ذلك اليوم بإشراق غرته، وتبلج صباحه من تبلج أسرته، ولاح الصباحان فكان الفضل لنور جبينه، وغسق طرته، فبهر كماله وتحمّلت حاله، ورزق من أعين الناس قبولاً، واستبانوا منه على علو صيته ذكاء وتهذبا، في شخص حسن الخلق، ساجى الطرف، لين العطف، يقظ الحس، تشهد مخايله بما تحتها من ذكاء وفطنة، تحمل من نتائجها، من لدن صباه، نواذر شاهدة بنهائه، وقد كان الناس انتشروا حفا في طريق السلطان مستبقين إلى لقائه، يسبق راكبهم راجلهم، إلى أن أقبل في كتائبه، معبأة يروق منظرها وهم يستقدمون إلى المركب الذي هو فيه فوجا بعد فوج، ركبانا ورجالا، وقد وكل طرفه بملاحظتهم، وسمعه بأسماعهم، فقسم بين وجوههم من إمساك عنانه وطلاقة وجهه بل بشره وجميل رده ما ملأهم مسرة، وبلغهم مبرة، ولم يسموا من مسامرة كوكبه، وتكرير معانيته، وإعلان الدعاء له ونثر الثناء عليه، إلى أن نزل منزله من المصلى، وذلك القطر قد راق محضره، واجتمع باديته وحضره، وأبدع في الجمال مرآه ومنظره، والنهر قد تدفق مأؤه، والزهر قد مدت ملاؤه، والربيع قد بدت كبرياؤه وخيلاؤه، والجميع قد جمعهم آلاء الله ونعمائه، وشهدت بصدقهم إلى يومهم أرضه وسماؤه، فقضيت الصلاة والخطبة وحانت الوقفة للبيعة والثوبة، وضربت الطبول فمادت الأرض لعودها وقفلت الجنود، فرجفت الجبال لحدورها وصعودها، وقيدت الجنائب من كرام خيول القادة، وقالوا جميعا على اليمن والسعادة، وأقبل السلطان وقد اجتلوا من غرته السعيدة البدر في الكمال، وعانوا من هيئته في حال بنوته ليثا أبا الأشبال:

أرق من الماء الذي في حسامه

طباعا وأمضى من شباه وانجد

له سورة مكتنة في سكينه

كما أكتن في الغمد الجراز المهند

ونفض والعيون إليه رامقة، والقلوب له وامقة، وعذبات الألوية على عذباته خافقة، وكل علم منها بيد علم، ومن أشبه أباه فما ظلم، وصار الركاب لميمون، والنصر يقدمه والأقدار تسعده والسعود تخدمه:

بعسكر تشرق الأرض الفضاء به

كالليل أنجمه القضبان والأسل

لا يمكن الأرض منه أن يحيط به

ما يأخذ السهل من عرضيه والجبل

وكان عيداً سعيداً، مبدياً في الجمال والإجمال معيداً، لم نزل نغيس في جديد خلعه ونتاجس بحسن مترعه
ونتبهنس بين مرتع ذلك القطر ومربعه، وركب السلطان أثر صلاة العصر ثاني يوم عيد الفطر في جيشه
اللهم، ذي العدد القمقام، فركبت أنا وصاحبي في موكبه، وركنت إلى جميل مواخاته، وكريم مذهبه،
وسرنا وسار الركاب السعيد يحمل جواده الكريم عن المقام الكريم، طود حلم وأسجاح، وليث بسالة
وكفاح، وبحر جود وسماح، وبدر دجنة تسربل ثوب صباح، رأيته الرشيد وعزمه المنصور وسيفه السفاح:

كأن الله خيرَه فسوى خلائقه الحسان كما اشتهاها

فبرز إلى الميدان على تعبئة رائعة رائقه في إعداد تكاثر الحصا فائقة من جرد مسومة، قب مطهمة، قد
صففت على مخائل سبقها ورتبت على منازل عتقها من كل أشهب بالمصباح مجلل، وأدهم بالظلام
مسربل وأصفر كسى قميص ورس وأشقر خلع عليه رداء شمس وأشعل، مزج ماؤه وأبلق خلط ليله
بنهاره:

خيل مسومة غر محجلة من اللواتي تفوت الوهم والنظرا
كأنما هي في المضمار جائلة ريح الصبا قابلت من ريحه المطرا

وفرساها ممسكة بالأعنة وقائمة في سروجها كالأسنة قد اعتقلوا عوالي المران، وتقلدوا من المرهفات كل
هندواني، من الهند غيروان، وتنكبوا محنيات القسى أهلة لا تفضى إلى المحاق، ولا تني رجوم سمائها عن
شياطين المراق، بالإحراق واستلتموا اليب الحسان، والجحف التي سوغها الأنعام والإحسان، ما شئت من
تراس تروق عيونا، وتفوق أنواعا وفنوننا، ودرق ينفرد الكمي بها كميننا، وتقيه الختوف حصنا حصينا
ويقدم بها على مقارعة الأبطال واقتحام الأهوال فتبدي النصر مكينا، وتدني من عقائل المعازل الفتح مبينا،
وتسربلوا من الزرد المضاعف نسجه سرايل. وطاروا في ذلك الميدان عقبانا كواسر وطيرا أبابيل:

جباها فغدت آثارها غررا مخافة أن تبدده العيون
يسيل على البسيطة منه سيل عباباه الحوادث والسنون
به خدع المنى ورقى المنايا وصرف الدهر يخشى أو يلين
وما تدعو الرياح وما تلبي وما تخفي الصدور أو تبين
وما نمت المهاري أو المهاري وما احتبت القيول أو الفيون
سما علا تلوح بها العوالي نجومها نوءها الحرب الزبون

وقد هبت عتاق الخيل فيها

عواصف لا يتاح له سكون

وجال السلطان المؤيد في ميدان أشب الجوانب منسرب المذانب قد اخترقت الجداول ساحاته، ودبجت الأزاهر مساحاته، وأدواحه تنعطف في أكف الرياح، وتكاد تنقصف من الارتياح. قد نشرت ورقها نشر ذوائب الحسان وزهرت لتأملها كأنها زهرة نيسان. في أرض تروق، وروض كأنما خلع عليه الشروق:

وكأن نرجسه المضاعف خائض

في الماء لف ثيابه في رأسه

فلم أر مثله ميدانا حوي كل الفخر ما بين روض يانع:

وواد حكى الخنساء لا في شجونها

لكن له عينان تجري على صخر

وجال بين يديه من أنجاد الأجماد، وحماة الكماة أسود على عقبان، وجنود كأنهم الكثبان قد أخذوا أرجاء الميدان وجوانبه، وملأوا مشارقه ومغاربه، وهم يسمون صفحات صفحات البسيطة بحوافر الخيل ويثيرون قتاما كقطع الليل والأسنة تبدو كأنهم سماء والسيوف تلوح كأنها جداول ماء، والقنا تخطر كأنها بروق خواطف، وجياد يصم منها الصهيل كأنها رعود قواصف، والكتيبة قد كتبت المنايا إليها كتبنا تقع عليها وتسقط والبيض تشكلها والأسنة تنقط:

والسيف دامي المضربين كجدول

في ضفتيه شقائق النعمان

فغدا حماها وهو مباح، وأرواح فوارسها تكاد تستباح، والأنابيب تتخلل كأنها الأرماع والظهور توسم، والوجوه قد أنختتها الجراح، ووجهه الصبيح والشمس قد أومضا إيماضا وأفاض من سناها أفاض. وأعلام الدولة قد حفوا بلوائه. وتألقوا في سمائه. كأنهم النجوم إشراقا. والدر انتظاما واتساقا، ولما فنى اليوم أوهم. وكاد وجه النهار أن يدهم، انعطافا للرجوع في صهوات الجهاد. وانصرفنا نميس طربا كالغصن المياد، وسرنا ويمن الملك الأجل يهدينا. ونوره يسعى بين أيدينا فلا زالت دولة مولانا أمير المؤمنين أيده الله بمثله من أوليائه المستظلين بظل أفيائها، محمية الأقطار مقضية الأوطار، تتوالى عليها الأعياد توالى العهد على الروض. والوارد على الحوض، ولا زال أمرها المطاع وجدها لصاعد وعزها الأقعس، وراياتها الظاهرة وحزبها الغالب وأيامها السعيدة ولياليها البيض وعبيدها الأحرار وغنائمها الدول، ونواها السفاح ولواؤها المنصور ومنارها الهادي، ورأيها لرشيد، وغيبها الأمين، وسطوها المأمون جارها المعتصم، ومؤملها الوائق، وخادمها الموفق، وهنا الله مولانا عيدا، وهو عبده وموسما زانته سيماء، وفطرا بكرمه كرمته فطرته، ولقاه الروح والريحان عن قيامه، كما اختصه بأجور من فطر من الصائمين:

أمين أمين لا أرضى بواحدة

حتى أضيف إليها ألف آمينا

وما برحت مع صاحبي الفاضل ألقى من فوائده انتفاعا، وأرى من أخلاقه انطبعا واجد من أكنافه رحبا واتساعا. وأرد من موارد كرمه مناهل أشيم برق الجنى من سحائبها لماعا، وهو وإن كان أمامي الذي به اقتديت فقد روى عني كما عنه رويت فإنه لم يمهلي سوى ريشما نزلت عن ظهر الجواد، حتى طلبني بما حصلت بعده من الفوائد والأناشيد في تلك البلاد، فأرسلت عليه سيلا عرما من الأنشاد، وهمت معه من الأدب في كل واد، فكان مما أطربه من ذلك وأعجبه ولم يلبث أن قيده ساعته تلك وكتبه من فلق فيه، وبديع قوافيه شيخنا الإمام عز الدين أبو إسحاق بن حباسة المتقدم الذكر لشهاب الدين التلعفري مقدم شعراء الناصر وذلك قوله:

| | |
|------------------------------|--------------------------|
| أي دمع من الجفون أسأله | إذ أنته مع النسيم رسالة |
| حملته الرياح أنفس عطر | أودعتها السحاب الهطالة |
| مر فيه والزهر زاه فأضحى | ناشرا فوق نوره أذياله |
| نشر القلب نشره من غرام | بات فيه مكابدا بلباله |
| عذبتة من قلبه عذبات | وفروع على اللوى مياله |
| يا خليلي وللخليل حقوق | اجبات الأحوال في كل حاله |
| سل عقيق الحما وقل إذ تراه | خاليا من طبائه المختالة |
| أين تلك المراشف العسلية | ت وتلك المعاطف العسالة |
| وليال قضيتها كلئال | بغزال تغار منه الغزالة |
| بابلي الألفاظ والرمق والألفا | ظ، كل مدامة سلساله |
| ونقى الجبين والخد والثغر | فطوبى لمن حسا جريا له |
| وسقيم الجفون والعهد والخصر | وكل أراه يشكو اعتلاله |
| وطويل الصدود والشعر والمطل | فمن لي بأن يديم مطاله |
| ما كساني ثوب السقام دقيق | النسج إلا جفونه الغزالة |
| وإعذابي بعذب تلك الثنايا | وأغليلي بما حوته الغلالة |
| من بنى الترك كلما جذب القوس | رأينا في قوسه بدر هالة |
| يقع السهم حين يرمي فما تدري | يداه أم عينه النبالة |

قلت لما استباح دين وصالي
بيننا الشرع قال سر بي فعندي
شهودي من خل خدي قدي
أنا وكلت مقلتي بدم الخلق
وهو مثر وقادر لا محالة
من جمالي لكل دعوى دلالة
لي شهود معروفة بالعدالة
فقلت قبلت هذي الوكالة

وقوله:

تولهي بك شيء عنك غير خفي
واعدل عن الظلم واعدل في النفوس ولا
يا راميا أسهما من لحظ ناظره
سبحان معطيك خصرًا غير مختص
إذا شكوت لترثي لي وترحم ما
يردني آيسا من ذاك عارضك اللا
فراقب الله في الهجران لي وخف
تجر على المستهام المغرم الدنف
فوق فغير فؤادي ليس من هدف
من العذاب وعطفا غير منعطف
ألقاه من وجدي المضني ومن كلف
مي والمنثني من قدك الألف

وأنشدته مقطوعات كثيرة فكان مما أعجبه منها قول بعض المشاركة:

بهت العذول وقد رأى ألاحظها
فتنى الملام وقال دونك والأسى
تركية تذر الحليم سفيها
هذي مضائق لست أدخل فيها

وقول بعضهم:

همت في حبها وهامت بهجري
وادعت أن في فؤادي هواها
أنصفتنا فكلنا مستهام
صدقته فيه لوعة وغرام

وقول أبي الحسن علي بن طاهر بن مفوز:

أعرضت حين أبصرت شعرات في
قلت هذا تبسم الزهر قالت
عاري كأنهن الثغام
قد سعى في صدودك الابتسام

ورأيته معجبا بالرباعيات المشهورة بالدوبيتين، وهي التي أولع المشاركة بها. فجلت معه في هذا الميدان مجالا، وقلت وخير الشعر أشرفه رجالا، وكان مما أنشدته منها قول الملك المعز، بن طغديكين أيوب صاحب اليمن:

قم نشربها سلافة كالذهب
لما برزت ولم تنزل في حجب
من قبل حلول عائق أو سبب
من خجلتها تبرقت بالحجب

وقول الشهاب التلعفري المذكور:

قالت: وقد انتضت سيوف اللحظ

ذا حظك ما ألقه قلت لها

وقول الملك الأجد ابن أيوب صاحب بعلبك:

كم حلفت بكل أم وأب

حتى حلفت على التجني فوفت

وقول مظفر الدين صاحب أربل:

لولا خبر يأتي به الطيف إلى

لما ظهرت أدلة العشق على

وقول الأمير حسام الدين الحاجري الأربلي:

أقسمت بعهدي لكم والذمم

في اليقظة قد حرمت أن تنظركم

وقوله:

طيف لكم زائر جميل الوصف

ما أسعدني وقد تمتعت به

وقوله:

لما سلك الخيال سبل الغسق

بالرحب لقيته وفي رجعت

وقوله:

يا طيف خياله إذا عدت إليه

أعلمه بما جنى به ناظره

وقوله:

مذ صد عن عهد وصالي حالا

أدعو بلساني يفعل الله به

وقوله:

والسحر ممازح لذاك اللفظ

لو شئت لما كنت قليل الحظ

أن تسمح لي فأعقبت بالكذب

ما تصدق إلا في يمين الغضب

ما كنت وقد بعدت عن حبك حي

موهت بحاجر وعرضت بمي

لولا إمام طيفكم لم أنم

عيني فعسى نراكم في الحلم

قد صار لكثرة التداني الفتي

لو صب على نوم أهل الكهف

وألواني يشتكي ظلام الطرق

ألقيت عليه جذوة من حدق

أشرح قصصي وقبل الأرض لديه

والحاجب ما أنكر في ذاك عليه

لم يبرح دمع مقلتي هطالا

مثلي وحشاشتي تنادي لا لا

لما نظر العذال حالي بهتوا
لا تحسب إلا أنا نعدله

وقوله:

في الحال وقالوا لوم هذا عنت
من يسمع من يعقل من يلتفت

يا من خطراته لقلبي عنت
قد قيل محاسن الظبا لفتتها

وقوله:

هل ترجع في العتاب تلك النكت
يا ظبي فنى العمر متى تلتفت

بالذل رفعت قصة الدمع إليه
في الحال إلى حاجبه وقع لي

وقوله:

والأرض لثمت خاضعا بين يديه
هذا الشاكي يزاد في الجور عليه

يا من تجلى إلى المصلى غلسا
بالله وعرض بغرامي فعسى

وقوله:

أن جزت بشادن الحماقف نفسا
يستعطف قلبه فقد قيل قسا

أحبابي مالي بحياتي نفع
في الليل إذا أرقني ذكركم

وقوله:

مذ عز شملنا بشت جمع
أبكي أسفا جهد المقل الدمع

يا سعد أوامر الهوى لا تحصى
ناشدتك عج دمعي على ربعكم

وقوله:

قف نبك فبينهم بهذا أوصا
نبك بحقوق دارهم لا تحصا

يا خشف مها فدتك نفسي خشفا
يا من ألف الضنا بجسمي ألفا

وقوله:

يا غصن نقا حرمت منه العطفا
لا تسرف بعض ذا التجني يكفي

لما خطرت ريح صبا يبرين
هاجت حرقى فقال صبحي دوني

وقوله:

ليلا وتعطرت على النسرين
ما أشبهه بحالة المجنون

النوم لبعدكم على الطرف حرام
كانت بوصالكم تلذ الأيام
والصب أسير لوعة حلف سقام
غبتم فعلى لذاذة العيش سلام

وقوله:

لما رحلوا وصار رشدي غيا
ويلاه بأي حجة ألقاهم
لم أبصر بعدهم لجسمي فيا
أن بعد فراقهم رأوني حيا

وقول الملك الأشرف ابن أيوب صاحب دمشق في مملوك كان يهواه. وجعله على خزائنه:

أهوى قمرا تحار فيه الصفة
ماذا عجب يحفظ مالي ويرى
يسخو بدمعي وهو أمين ثقة
روحي تلفت به ولا يلتفت

وقول ابن الفارض المكي رضي الله عنه وأرضاه:

أهوى قمرا له المعالي رق
بالله تدري ما يقول البرق
من ضوء جبينه أضاء الشرق
ما بين ثناياه وبينني فرق

وقول سعد لدين بن العري الدمشقي:

أفدي قمرا لعاشقيه ظهرا
النمل على وجنته قد رقمت
إن واصلني فطالما قد هجرا
لا غرو إذا ما وصلتها الشعراء

وقول العماد الأصبهاني كاتب السلطان صلاح الدين بن أيوب:

الشوق إليكم شديد البرح
صبرا فعسى سماؤه أن تصح
والوجد يجل شرحه عن شرح
لابد لكل ليلة من صبح

وقوله:

هبت سحرا فنبهت وسواسي
أهدت أرج الرجاء بعد اليأس
نشوى خطرت علية الأنفاس
ما أحسن بعد وحشتي إيناس

وقوله:

بالله عرفت ما بقلبي صنعوا
ما لم أر شملي بهم يجتمع
خلوه بنار شوقهم ينصدع
ما أحسبني بعيشتي انتفع

وقوله:

ما كنت أظن أننا نفترق
بالله صلوا لعلنا ننفق
والقلب بنار شوقكم يحترق
من باقي العمر ساعة نسترق

وقوله:

ما أصعب فراقكم ما ألقى
كم أتعب في هواكم كم أشقى
أبكي أسفا ودمعي ما ترقا
ما آمل من بعدكم أن أبقا

وقوله:

ما أحوج صبكم إلى بغياه
عودوا جودا وأدركوا لقياه
ما أشوق ميتكم إلى محياه
ما أعطش غرسكم إلى سقياه

وقوله:

الروض نسيمه حلیم سفه
والعیش كما تراه صاف رفه
والنور على الغصون زاه نزه
وماذا وقت الكرى ما تنتبه

وقوله:

البلبل قد غرد فوق الفن
هذا زمان الربيع والورد جنى
واهتز من النشاط عطف الغصن
قم فانتبهز الفرصة فالعمر فنى

وقوله:

منشورك العذار من أرخه
بالمسك على الورد وقد لطفه
كافورك بالعنبر من ضمخه
خط حسن أريد أن أنسخه

وقوله:

من رصع حل وردك المحمر
جدلي برحيق درك المفتر
ياقوتك بالزمرد المخضر
فالخمرة قد تباح للمضطر

وقول الفخر بن قاضي دارا رضي الله عنه وأرضاه:

مولاي أما ترحم مأسور جفاك
أن كنت تشك أن قلبي يهواك
حاشاك بأن تظلم مثلي حاشاك
هاأنت به فهل نرى فيه سواك

وقول الملك المنصور بن أيوب صاحب حماة:

عيني دمعت مسرة بالجمع
دع عينك تستغنم منهم نظرا
وقول العماد بن الزاهد بن أيوب صاحب البيرة:
ذي كاظمة والعلم الفرد يلوح
هاتيك منازل بها كان لنا
وقول باذكي صاحب البصرة:
زود نظري بنظرة قبل تسير
لا تأمن أن تذوق ما ذقت أنا
وقول الفخر بن بصاقة:
البلبل كم يصيح في الدوح بليت
لا يعلم ذا مقدار ما حل بذا
وقول ابن نبهان الدمشقي:
من حبك في حشاشتي أوطان
تالله لقد حولت في القلب فلو
وقول الجمال بن مطروح:
لا تستر ما جرى فما يستتر
لا بأس عليك فالفنا منبسط
وقول قمر الدول ابن دواس الفنا:
سكان قبا أفديكم من سكنى
لم أنس وقد قضيت معكم زمنا
وقول الصلاح الاربلي نديم الملك الكامل صاحب الكامل:
لما عرف الدار بكا وانتحبا
ما زال مرددا بها وأحرزنا
وقوله:

قالوا مهلا ما في البكا من نفع
ماذا زمن تشغلها بالدمع
والأجرع والغضا وبان وطلوح
عيش ومضى فنج أن كنت تتوح
من وجهك أن عمر ذا اليوم قصير
أو تصبح في حبات الحب أسير
والدوح يميل قائلا منك زهيت
حبي أبدا ينعم إذا قلت شقيت
ما مر بها العذل ولا السلوان
بالحجر مزجت طاب لي الهجران
عندي وحياء ناظريك الخبر
في حبك كل هفوة تغتفر
ما أطيب وقع ذكركم في أذني
أبغي بدلا يا ليت شعري بمن
واستجد أدمعا تحاكي السحبا
حتى ذهب المسكن مع من ذهب

بالله عليك أيها المرتحل
قل مات فان قالوا متى، قل لهم
وقو أيدر التركي:

بالله أن جزت على نعمان
وأحذر يعطوك غير قلبي غلطا
وقول الضياع بن ملهم المقدسي:

بالله لقد سمعت في الدوح أنين
الأفلف مجاوري وهذا كلفي
وقول العماد السلماسي:

يا من هجروا بالله ما نهجركم
العذر لكم في عيشنا بعدكم
وذكرت له ما ذكره أبو الحسن على بن سعيد رحمه الله قال: سمعت الملك الناصر ينشد لنفسه وقد جاءه
مملوك بياكورة ورد:

الورد قد أتى مبشرا بالأمل
لا تخجله ولا الذي جاء به
ولما عدت من العراق، وأنشدته من محاسن الدوبيتيات ما أمر بكتبه ثم قال لي هذا طرز لا تحسنه المغاربة
فقله له يا خوند كما أن الموشحات والأزجال طراز لا تحسنه المشاركة والمحاسن قد قسمها الله على البلاد
والعباد. قال: صدقت، فهات ما نظمت أنت في هذا الطراز فأنشدته:

مولاي أراك دائم الأعراض
كم أسألك الرضي وكم تمنعه
والعمر يمر ضائع الأغراض
الملك لمن أصبحت عنه راض

قال ما قصرت ركبت الجادة، وما تحتاج بعد إلى دليل، انتهى. ولم نزل نثير لئالي الفوائد ونسحب أذيال
المقطوعات والقصائد، ونرد من ذلك أحلى المصادر وأعذب الموارد إلى أن أزفت النوى. وأثارت الجوى،
ففرقتنا بعد تألف وأقصدتنا بسهم تحيف فبالغ في الإكرام واعتذر، وزود حتى لم يذر، وودعته الجوانح
ملتبهة والدموع منسربة والشوق بقلوبنا لاعب، وغراب البين وبعد الأحبة ناعب وكم سربلتي النوى

سقما، وأصارت في عقلي لمما، فلوان ما بي منها بجفن ما ألف هجوعا، أو بقلب لفاض نجيعا. ولكني خلقت جلدا بالحوادث حجرا صلدا:

يوم الفراق أقد خلقت طويلا

لم تبق لي صبورا ولا معقولا

قالوا الرحيل فما شككت بأنها

نفسي عن الدنيا تزيد رحبلا

ومما أنشدني لنفسه في تلك الأيام البادية الأتضح السائلة الغرر والأوضح قوله يخاطب السلطان الفاضل أبا عبد الله بن مولانا أمير المؤمنين عند قدومه حضرة تونس وقد وردت عليه عريه من رياح:

يا قادما وافي فعم خصبنا

لا تنكر العرب التي جاءت إليك

لو لم تواف رحمة ما أرسلت

فينا رياح نشرت بين يديك

وأنشدني قوله وقد دخل السلطان الأجل صاحب مدينة فاس أبو الحسن المذكور أولا مدينة تلمسان بعد أن حصرها مدة وهدمها بالجانيق:

تلمسان كانت في البناء منيعة

عليها من العدوان شر لباس

فلا غروان هدت لنا وتهدمت

فقد جاءها للهدم صاحب فاس

وأنشدني قوله وهو بحضرة فاس:

أيا عجا كيف تهوي الملوك

محلي وموطن أهلي وناسي

وتحسدني وهي محسودة

وما أنا إلا خديم بفاس

وأنشدني قوله:

لعمرك ما ثغر باسم

ولكنه حبيب لا عب

ولو لم يكن ريقه مسكرا

لما دار من حوله الشارب

وأنشدني قوله مخاطبا بما عند ورودي عليه بقسنطية المذكورة وقد لاح برق:

أنظر إلى البرق يجلو عنك أضلاما

وشمه يا خير من البرق قد شاما

كأنه إذ قدمت أرتاح من فرح

فظل يبدي إليك الثغر بساما

وأنشدني لنفسه وكتبها بخطه على ظاهر المبيضة من هذا الكتاب حين وقف عليه هنالك:

أن الإمام أبا البقاء لأوحد

عجب يعز بمغرب ومشرق

لو لم تكن دررا لنا كلماته

ما نظمت حليا بتاج المفرق

وأنشدني للشيخ الإمام العلامة الفاضل أبي العباس أحمد بن شعيب أحد كتاب السلطان أبي الحسن ملك المغرب:

يا رب ظبي شعاره النسك الحاظه في الورى لها فتك
يترك من هام فيه مكتئبا لا تعجبوا أن قومه الترك
أشكو له ما لقيت من حرق فينثني لاهيا إذا أشكو
وحين لم يقض من تعطفه أخذوا ولا من صبابتي ترك
صبرت حتى أطل عارضه فكان صبري ختامه مسك

ثم خرجت منها صخوة يوم الخميس السادس لشوال من عام أربعين المذكورة في لمة من فتيان الوفاء، وفرقة من أخوان الصفاء ترسل أولى الخيل على أخرها وتعرض السوانح فيستحضرها أدجناها:

كان بزاتهم أمراء جيش على أكتافها صدأ الدروع

وما زلت أساير السبيل السالك حيث سار، وأخذ اليمين تارة وتارة اليسار، ومل ناحية تسفر لي عن روض أزهر، وعذار نبت أخضر، وتبسم عن ثغر حباب في نهر كالحباب، وترفل من الربيع في ملا بس سندسيات، وتهدي نوامج مسكيات، وتزهي من بهجتها بأحسن منظر وتنيه بجلباب أينع من برد الشباب وانظر إلى أن دخلت "بجاية" الخروسة في يوم الأحد السابع عشر لشوال المذكور، فتزلت بها في قصر من الديار، ودار من القصور، دار تخجل منها الدور، وتقاصر عنها القصور، وتقر لها بالقصور:

دار مشي الإتقان من تجنيدها حتى تتناسب روضها وبنائها
مرقومة الجنبات ذات قرارة يمتد قدام العيوم فضاؤها
ما زال يضحك دائما نوارها في وجه ساحته ويلعب ماؤها

ونحن تحت ظلال ضيافة السلطان الأفضل الانجد الأبعد الأكمل سراج الدولة وريحانة الملك وطلعة النجابة أبي زكرياء يحيى بن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى بكر أعلى الله أمرهم وأعز نصرهم، فهو أسد الحملة وفارس الجولة الذي جاء بناية أوضح وأجلى وطلع من قنية الملك ابن جلا، فأحكم الله بأخباره أخبار الأول كما نسخ بهذه الدولة وملوكها الملوك والدولة، وجعلها مستولية على جميع المآثر والأثر، مستوفية لكل المجد من عين وأثر، وأقمنا يطاف علينا بالطيبات والطيب بين العود الرطب وجني الغصن الرطيب والنادي الذي احتوي الشادي الشادن والأديب اللبيب وجمع مه الصادق، والحميم الحبيب، هو الفقيه الأجل الفاضل أبو الحسن على بن محمد المشتهر بالحمى:

شقيق أخاء لا شقيق أخوة

نسيب صفاء أن ذكرت نسيبا

أحلتها هنالك الأقدار واطمأنت به في تلك المدينة الدار، ونزح في طلب العلم عن الأوطان حتى صار كتابا لهذا السلطان فتمتعت بموانسته وتمنعت إلا عن مجالسته. وتعاطينا أحاديث كأها رضاب وفوائد لها بيننا اقتضاء واقتضاب:

أحاديث أحلى في النفوس من المنى

وألطف من مر النسيم إذا سرى!

وتذكرنا أزماننا بغرناطة، سقى الله أرجاءها المشرقة. وأغصانها المورقة، ولله أيامنا بها التي كانت موشية. وعكوفنا على العلم فيها غدوة وعيشة وقد امتد ببيغيتنا في ميدانها عنان. وجن بتسنى أمنيته فيها جنان، والزمان غلام، والدنيا تحية وسلام. والغصن رطيب وبرد الشباب قشيب والشمل جامع، والدهر مجيب وسامع، وأيامنا أعياد وللسعد في زماننا انقياد ولا هم إلا مباحثة صحاب، أو مجاذبة آداب أو ائتلاف على تأليف درر الفوائد وانتداب، فبالغ الزمان في تفريقنا حتى بلغ الغاية، وأبدى من تغريينا وتشريقنا العجب والآية، وذهب البين بنا كل مذهب وقدر لنا أن اجتمعنا ببجاية:

وقد يجمع الله الشنتيتين بعدما

يظنان كل الظن أن لا تلاقينا

وحين تباثنا الأسرار، وتناشدنا الأشعار، وأنشدني من المقطوعات ما لم أرضه ولا أثبته وكنت قديما قد سمعته فنبذته، فقال لي: إنما الأعراب للأسماء ولا يجوز التيمم مع وجود الماء إياك أردنا، وأنت فأنشدنا فأنشدته في المعنى الذي أشار إليه والمورد الذي حام عليه لجمال الدين بن العطار:

إذا ما بدا مرخى الذؤابة وانثنى

ضحوك الثنايا مرسل الصدغ في الخد

بدا البدر في الظلماء والغصن في النقا وزهر الربا في الروض والآس في الورد

وأنشدته لبعض الفضلاء من أهل العصر:

تأمل ترى خضرة الشارب الذي

على الشفة اللمياء والمورد العذب

زمردة خضراء فوق عقيقة

وتحتها سمطين من لؤلؤ رطب

وأنشدته لبعضهم:

لم يكفهم وهو روض حسن

حراسة الأعين المراض

خافوا على زهره قطافا

فشكوا حائط الرياض

وأنشدني لأبي فراس الحمداني:

من أين للرشا الغرير الأحور

في الخد مثل عذاره المتحير

مسكا تساقط فوق ورد أحمر

ويميتها بفتور طرف ساج
سبح أضيف إلى جوانب عاج

يحيى فتور جفونه ويميت
ولصدغه مسك عليه فيت

نبتت بروضات الربا ريحانها
شبت فلفع عارضيه دخانها

وبعطفه فكلاهما نشوان
مع مائه فعلا هناك دخان

هوى قلبي عليه كالفراش
وهذا أثر الدخان على الحواشي

ألبستني للحزن ثوب سمائه
نزلت بخدك فانطفت في مائه

كيف يجفو وأنت في سودائه

فأحمى الخال غير نقطة خائه

رشا كان بعارضيه كليهما

وأنشدته لابن المعتز:

يحيى النفوس إذا يشاء بقربه

لاح السواد بخده فكأنه

وأنشدته لأبي القاسم بن كامل:

وهويت سكران اللاحظ أغيدا

للحسن كافور على وجناته

وأنشدته لابن كامل أيضا:

نبت العذار بخده فكأنما

وكأن نارا للجمال بخده

وأنشدته للعماد الأصبهاني:

ومعذر لعب الدلال بطرفه

وتواقعت نار الصبا في خده

وأنشدته لعز الدين ابن العجمي:

لهيب الخد حين بدا لعيني

فأحرقه وصار عليه حالا

وأنشدته لأبي تمام غالب بن باح:

يا سالب البدر المنير جماله

أحرقت قلبي فارتى بشرارة

وأنشدته له أيضا:

يا حبيبا له الفؤاد محل

كتب الحسن فوق خدك خلا

وأنشدته لابن عبد ربه القرطبي:

يا ذا خط العذار بخده
خطين هاجا لوعة وبلا بلا
ما كنت أقطع أن جفئك صارم
حتى حملت من العذار حمائلا
وأنشدته لابن حصن الأشبيلي:
غزال كحيل له ريقة
يخالطها المسك والقرقف
كأن العذار على خده
نجاد ومقلته مرهف
وأنشدته للملك الناصر بن العز سلطان الشام:
سلوا قوام الغصن لم ذا غدا
عنى لا لي في الهوى مائلا
وخده التبري ما باله
عذاره قد جاعني سائلا
وأنشدته لعز الدين بن العجمي الحلبي:
قد كان من قبل ذا نهار
فأين منه وهل مفر
وأنشدته لبعض المشاركة:
وأحزني من فرند خد
وعرقت نون عارضيه
لم يعد ذاك الخد خال أسود
يلعب بي والهوى مجد
وأنشدته للأمير حسام الدين بن بهرام الحاج الأيلي:
لم لا أحن إلى الحجاز صباية
ورضابه الخصر العذيب وخده
وأنشدته لأبي الحسن رستم المعروف بابن الساعاتي:
ومشوب الوداد ساغ هواه
لم يعد ذاك الخد خال أسود
بلغت وحيه الذوائب قلبي
في خفى الأحشاء أي مساغ
قمر نور وجهه يكشف الشمس
ما على المرسلين غير البلاغ
وأنشدته لأبي الحسين الهاشمي:
إذا حل عقدة الأصداغ
رشاد دينه التشيع بالك
رخ يضاهي الغصون بالميل

فليته قبل ذلك لم يصل

بسحرها العاشقين يا لعل

واصلني ثم صد عن ملل

تصبح الحاظه إذا قتلت

وأنشدته لابن الرضى الفضل بن منصور الفارقي:

خذ بيدي قد وقعت في اللجج

كالبحر حدث عنه بلا حرج

سلط سلطانها على المهج

ثم ادع لي من هواك بالفرج

مولاي يا بدر كل داجية

حسنك ما تنقضي عجائبه

بحق من خط عارضيك ومن

مد يدك الكريمتين معي

فقام وقبل رأسي، وقال كيف يعارض من جال آفاق المغرب وهو ينفض الغبار من خوض أحشاء المشرق، فلما أظن فيما به أثني، سلكت به في غير هذا المعنى، وأقمت منها بين جداول كالسيوف المرفهة وبسط نبات كالبرود المرفوعة وأيام معلومات الذبول، عاطرات عرقي الصبا والقبول، نعمنا بكرها وآصالها. وأمتعنا بتواليها واتصالها. والسعد لنا خادم، وما غير السرور علينا قادم، ولما هصرت من أنسى غصنا مياد، وانصبت بميدانها للأنس جياتا، خرجت مودعا لذلك الأخ الفاضل، وشاكرًا لتلك الشيم والمخائل وسائر بين تلك الربى والخمائل، في يوم الأحد الرابع والعشرين من شوال المذكور. ولم نزل نصعد أنف كل ثنية ونعقد لجهاد كل مارق أفضل نية، ونجدد لعربان جبل الزاب. كماء ورماء، معتقلين عوالي سمر ردينية، ومتنكبين أعطاف قسي محمية. قد صفوا متقدمين وحفوا عن الشمال وعن اليمين. واستحثوا فلبوا مسرعين، وأسرعوا مهطعين. وأقبلوا ينفضون، كأهم إلى نصب يوفضون:

ويبادرون الحرب وهي فناء

من دونها تتلجج الخطباء

يتوددون الخطب وهو مهالك

ويخاطبون بالسن البيض التي

وقد تلاقت على أمحاض النية الأرواح في أحسادها، وكادت الأسنة تطير من عواليها. والسيوف تنسل من أغمادها، وتهبأت طيور السهام في وكنات الكنائن كمينا، ومدت من الاشتياق إلى مقاتل أهل الشقاق والنفاق يمينا، وأطالت حنينا، لما كان قو تولى من بغيهم وفسادهم وقطعهم للطرق وعنادهم، وهذا الجبل المذكور هو من أجل اعتمادهم وأتم مرادهم لاختلاف أهوائه، وائتلاف شعرائه، وعظم ساحته واتساع مساحته، وتوعر أرضه، وانخراق طوله وعرضه، وثمراته الشامخات في عنان السماء، التي تبهر في العلو والنماء، وتظهر في إشراق محيا النهار معتكر الظلماء، وما أظن مثلها تحت أديم القرصة الدهماء فدخلناه صبيحة يوم الاثنين ثاني يوم خروجنا في أزيد من مائة إنسان من مشاة وركبان. ورجال وفرسان. نخطر

في القنا والأعنة. ونمطر سحائب المنايا من بروق الأسنة فمن عوالي رماح تثير خطيبتها وهج الكفاح. من كل مثقف ربح الخط ضحك المدخل أزرق لا يني عن ورود الأكحل، يمس في اعتداله وإن لم يعدل، قد جرى الموت في عطفه جرى القضاء المتزل، ومن مواضي سيوف، قد طبعها أيدي القيون، من شتى حتوف، من كل صارم ذكر، محمود الخبر، يتيه بصدق الأنباء فخرا على الأقلام ويسبق الخطى إلى برى الطلا وإلهام. وتعرف مواقعه بحيث تدور رحا الحرب الزبون بالجيش اللهم:

يعلو الرجال بإرجوان نافع

ذكر برونقه الدماء كأنما

ملح تتأثر من وراء الدارع

وترى مضارب شفرته كأنها

خدر المدامة أو نعاس الهاجع

وكأنما خدر الحسام بهامه

ومن القسى شتى الحنايا، تهدى إلى الأرواح إرسال المنايا، من كل زوراء تسبق العين وتدني من الحين، وتصدق الخبر بلا ريب ولا مين، تصمى وهي في التزع مرنان، وتجنى ولها ترنم النشوان وانة الشكلان تشكو وهي ظالمة. وتهدي السبيل وهي به على بعد المدى علامة:

ترنم تكلى أوجعتها الجنائز

إذا نبض الرامون عنها ترنمت

ومن غدران الماضي ما شئت من سابغات دروع، يغني عنها البطل الشجاع، ويفزع إليها الجبان المروع قد قدر سردها، وأبدع من نسج داود بردها، ومن حسان الدرق اللمطية التي تنبو عن صفحتها بيض الصفاح وسمر القنا الخطية إعداد تروق العيون، وتدفع عن مستلمها حادث المنون من كل فادية الكماة بنفسها، واقية من كل محذور وبؤس بقوتها وبأسها:

فتردها مفلولة الأغراب

وصلبية تلقى الصفاح بصفحة

وجه اللئيم قسى على الطلاب

نقسو على قرع السيوف كأنها

وما شئت من مجن تروق عند النظر، ويعكس شعاعه ضوء البصر يحتوي من الحسن على كل بديعة، ويزري بمجن ابن أبي ربيعة، ومن بيض الرؤوس أمثال حباب طاف أو أنصاف بيض نعام لاحت كزرق نطاف، إلى غير من العدد التي بها تشهد الحرب الزبون، ويهزم العرب الذين هم لاذية المسلمين يتحزون، وصحبنا من الصافنات الجياد، التي لم يزل الخير منها في النواصي والأجياد. كرام الخيول وأمثال السيول، من كل نهد يسبق الطرف ويستغرق الوصف:

يروقك كالقرطاس حبره الحبر

ومن كل قلبي القميص مدثر

وأصفر فيه يمزج الماء والخمر

وورد كأن الخمر صرفا بجلده

وغرته ثم استبد به التبر

وأشقر حلاه اللجين حجوله

فلما تمشي فيه ضايقه الفجر

وأبلى أعطى الليل شطر أديمه

وأشهب في أرجائه يضحك النصر

وأدهم في أعطافه تعبس الوغى

وطفقتا نخبط في سهل هذا الجبل ووعره، ونخلط سير أترابه بصخره، ونشق أعطافه شقا. وندق جنادله بالحوافر دقا إلى أن أتمنا سيرا عند سقوط الشمس للغروب، وقد أنضيت الرواحل من الإعياء وضعفت النفس من اللغوب، وعندما ملنا للتزول، وعطفنا من تلك الحزون إلى السهول، وتصارخت العرب واجتمع الابن منهم والأب، ثم حملوا علينا حملة ظننا أن الجبال إلينا راجفة، وإن الأرض بنا واجفة، فصبرنا لحر طعائمهم وتجرعنا مرارة مراهم وأقبلناهم أوجها تهلل إذا عبس الحمام، وأنفسا تتجلد كلما عضها الحسام، فتجرعنا الغصص وتجرعوا، وأشرعنا إليهم مثل ما إلينا أشرعوا:

تبشرهم بأعمار قصار

لقيناهم بأرماح طوال

وتوافقنا طويلا وقد حميت الصدور، وكؤوس المنايا تدور، ثم صدقناهم الجلال والطعان، وجملنا عليهم كأننا الرعان. . . وازلناهم عن مركزهم، وبدلناهم بالذل من تعززهم، ووالينا عليهم الكرة بعد الكرة وحوزنا عليهم في كلها أشد المعرة، فلوا أمانا مدبرين، وأضحوا كالنعام مجفلين، وحال بيننا الظلام المفكهر، فلم ندر من فر منهم إلى أين يفر، وانحاز بعضنا من بعض وقد عضتهم نار الحرب أيما عض:

تحدث عنه ربات الحجال

ورحنا بعد ذاك إلى مقام

ففي بعض على بعض تعال

كأن الخيل تعلم من عليها

وبات الجمهور من أصحابنا متقلدين لصوارمهم مخلصين أصدق النيات في عزائمهم باذلين في ذلك مشكور اعتمادهم واعتمادهم، مصدقين لقول من قال في أمثالهم:

بعزائهم وأسنة وصفاح

نفسى فداء معاشر شادوا العلا

خلقوا اليوم كريهة وكفاح

ما للرجال وللنعيم وإنما

ثم رحلنا ظافرين وأدلجا مسافرين، وأفضى بنا الركض إلى ملة بيضاء مفيضة إلى قرارة حضراء تتفجر فيها عين ورقاء مأوها صفاء إنسانها وأحرق بها النبت مهدب اجفائها، فنهلهما في غديرها وكرعنا في غديرها، وركزها رماح الخط فوق رياض القصب واقترشنا مطارق الوشي فوق دارنك العشب، وجعلنا من اللحم أوتادا مرفودة واتخذنا من الأعنة أسبابا ممدودة فقدم الخباء، واستوي البناء، والماء يقهقه في خريه والقمري يقرقر في هديره، والنسيم يعبق من المسك الذكي والجو مضمخ بزعفران العشي:

شدو القيان عزفن بالأعواد

تشدو بعيد أن الأراك حمامة

مال النسيم بقضبه فتمايلت

مهتزة الأعطاف والأجباد

هذي تدع تلك توديع التي

قد أيقنت منها يوشك بعاد

واستعبرت لفرافها عين النداء

فابتل مبرز غصنها المياد

فأنا لكذل إذ برقت السماء فسلت مذهب نصولها وأرعدت. فضربت منذر طبولها. وجعل الغمال يهيئ
مراكبه وأخذ الربان يرتب كتابه، فبعد ما أعز السير وامتد طلقه وغلبه البهر فتصيب عرقه خر هنالك
ولقى، فعندها نادم الروض فغنى وسقى، فتتنفس الأرض عن نكهة العروس وتبرجت في حلية الطاووس:

وكان صوت الرعد خلف صحابه

حاد إذا ونت الركائب صاحا

مرتجة الأرجاء يحبس سيرها

ثقل فتعطيه الرياح سراحا

أخفى مسالكها الظلام فأوقدت

من برقها كي تهتدي مصباحا

جادت على التلعات فاكتست الربى

حلا أقام لها الربيع وشاحا

فساعة خمد ذلك البرق، وانقشع ذل الودق، واعتزمتنا على الرحيل والتحول في برد الأصيل:

وبدا لنا ترس من الذهب الذي

لم ينتزع من معدن بتعمل

مرأة تبر لم تشن بصياغة

كلا ولا جليت بكف الصيقل

تسمو إلى كبد السماء كأنما

تبغي هناك دفاع خطب معضل

حتى إذا بلغت إلى حيث انتهت

وقفت كوقفة سائل عن منزل

ثم انتثنت تبغي الحدور كأنها

طير أسف مخافة من أجدل

بين الأنهار والأزهار في العشايا والأبكار:

ورب عشية فيها طفقنا

نرود الظل والماء القراحا

وقد ضرب الضيب بها قبابا

على الأدواح أبهجت البطاحا

كان جنابها يخضر آسا

فأصبح وهو مبيض أقاحا

كأن الخضر جربها يمينا

ومد عليه جبيل جناحا

وما زلنا في طريقنا ذلك نتجول على تلك المنازل، ونتحول في تلك الحمائل، ونضرب في الأرض
كالعقبان الكواسر والليوث الخوادر، إلى أن وصلنا إلى مدينة "الجزائر" فدخلناها في يوم الأحد الثاني لذي
قعدة من العام المذكور فأصلحنا بها الأحوال وجددنا منها الترحال، وخرجنا ضحوة يوم السبت الثامن

لذي قعدة المذكور وسرنا بعزم غير مرتاب وسير يطوي البيد طي السجل للكتاب، إلى أن وصلنا إلى مدينة "تلمسان" وقد انجلى ظلامها وأزيل عن يد الباطل زمامها، وعوفيت من احتلالها، وشفيت من اعتلالها وأشرق منها الجو وأنار، ولاح للعدل بها علم ونار، فدخلناها يوم الأربعاء التاسع عشر لذي قعدة من العام المذكور، وخرجنا منها عشية يوم الجمعة الحادي والعشرين لذي قعدة المذكور فترلنا تلك الليلة على بعض قراها. واستعملنا ما كنا استصحبنا من قراها ثم قمنا للرحيل وأدجلنا وما عجننا على غير المسير ولا عرجنا، إلى أن وصلنا "هنين" والشمس مستوفية اللالاء، مرتقية درجة العليا، لا إلى هؤلاء إلى هؤلاء في يوم السبت الثاني والعشرين لذي قعدة المذكور فوافقت قرقورة كانت هناك قد كملت وسقا، وخفقت بنودها للسفر خفقا، وقلدت القرية وعملت على المرية فاستخرت الله تعالى في ركوبها، ودعوته في تيسير مرامها ومطلوبها، وخرجت من هنين راكبا فيها يوم الأربعاء السادس والعشرين لذي القعدة المذكور وحين فرغت من الأرض وصحوت من سراها ومساها قربت إلى الفلك باسم الله مجراها ومرساها، وما زلت بين قوادمها وخوافيها إلا حظ المنايا حيننا وحيننا أكاد أوافيها قد تبدلت من ظل علا ومفاخر، يقفر طامي اللجج زاهر وعوضت من صهوات الخيل، بصهوات اللجج والليل حتى آليت ألا ودع الريح تحية، ولا يورثني هبوبها أريحية، فهي التي أثارت من الموج حنقا، ومشت عليه خبيا وعنقا، حتى أعادته كالكتبان وأصارت المركب فوقه يتلاعب كقضيب الآن وأخرجته عن طريقه وأزالت كل واحد منا عن مركزه وفريقه. ورقت غصصه وأغصته بريقه، حتى لكاد يغوص في اللجاج ويخوض عليها بحر عجاج إلى أن حط بي في مرسى "بحاقر" الشراع والسفين، وآويت من جزيرة الأندلس الكريمة إلى الكهف المنيع والمكان المكين. واستقبلت مواطن ظلال السيوف فقلت ادخلوها بسلام آمين "وقد جاء"

عن النبي صلى الله عليه وسلم آثار في فضل الأندلس وفضل الجهاد فيها والرباط في ثغورها، وعلى سواحل بحورها، في فضل العابرين في البحر برسم الرباط فيها والجهاد وتكثير السواد، فمن ذلك ما حكاه ابن حبيب قال: روى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم سينقطع الجهاد والرباط من المشرق والمغرب إلا جزيرة بالمغرب يقال لها الأندلس الذي يربط بها على ساحل بحرها من وراء عورة المسلمين أفضل من شهيد يتشحط في دمه وحدث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أعظم رباط خلقه الله على جديد الأرض جزيرة بالمغرب الأقصى شرقيها عدو وغربيها عدو وجوفيها عدو وقبليها عدو وهي جزيرة يقال لها الأندلس، وروى عنه أيضا أنه قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من المسجد فأشار بيده تلقاء المغرب مسلما، فقيل له على من تسلم يا رسول الله قال على أناس من أمتي يكونون في هذا المغرب بجزيرة يقال لها الأندلس إليها آخر ما ينتشر هذا الدين رباط يوم فيها أفضل من رباط عامين في ثغور غيرها حياها مرابط وميتها شهيد، تحشرهم

السحاب يوم القيامة من وراء هذا البحر الكافر على ظهورها فتمطرهم على أرض المحشر كما تمطر السحاب الماء وهم ممن استثنى الله تعالى في كتابه: "فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا أن شاء الله" قيل يا رسول الله بم نال أهل الأندلس هذه الفضيلة، قال بجهادهم ورباطهم فيها وبأخذهم مذهب أهل المدينة خير أمتي في الحيا والممات وأني سألت الله ألا يتليهم بدعة حتى يلقونين وقال صلى الله عليه وسلم ، طوبى لمن أدرك زمانا يدخل الإسلام الأندلس ويرابطون في ثغورها في آخر الزمان فهم بمنزلة المرابطين من أهل بدر من المهاجرين والأنصار ثم قال من رابط في ذلك الزمان ساعة واحدة كتب له من الثواب عدد كل نفس في الدنيا، وروى عن شهر بن حوشب أنه قال ما من بقعة من الأندلس إلا ولها ثواب لا يدركه إلا العاملون يبعث الله تبارك وتعالى أهل الأندلس يوم القيامة على حدة لا يخالطهم أحد، قد جللهم النور

والبهاء وهم رؤساء المجاهدين، وقال أبو جعفر الطبري: قال كعب الأحبار يعبر البحر إلى الأندلس قوم يعرفون بنور وجوههم يوم القيامة وقال وهب بن منبه يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ستفتح بعدي جزيرة يقال لها الأندلس يأتي الصغير منهم والكبير يوم القيامة يمتطرون على بيت المقدس كما تمطر السحاب الماء وهذه الأخبار إن صحت فيها ونعمت وإلا فالقاعدة تقتضي صحة المعنى فيها إذا الأصل في الأجر والثواب في ذلك أن يكون على قدر تعب النفس وتعبها، وفضل الأندلس مبين ومكانها من القلوب مكنين ولقد أنصفها حين وصفها أبو عمار البصري بقوله:

الله أندلس وما قد جمعت
من كل ما جمعت له الأهواء
فكأنما تلك الديار كواكب
وكأنما تلك البقاع سماء
وبكل قطر جدول في جنة
ولعت بها الأفياء والأنواء

ثم رحلنا من ذلك المرسى وتبدلنا من تلك الوحشة أنسا، وأهل تلك الأفطار، يطيطون إلينا كل مطار، في تلك الأودية والأهوار، بين سار بالليل وسار بالنهار:

يا ساري الليل هل من رامة خبر
فأنني لسواه ليس أنتظر
بأنك ربك خبرني فها كبدي
تكاد من ذكرهم بالوجد تنفطر
أحباب قلبي وجيرني وأهل مني
روحي إذا طربت والسمع والبصر
أعندكم أنني من بعد فرقتكم
لا أستلذ بما يهوى له النظر
ترى أراكم على بانات كاظمة
والعذل قد غاب والأحباب قد حضروا
ويجمع الله شملا طالما لعبت
به الليالي ولم يسعف له القدر

فدخلت محاجر المذكور في يوم الأحد الموفى ثلاثين لذي القعدة المذكور:

عندي ولا كمنازلي وبلادي

كل المنازل والبلاد عزيزة

فأنحنا بها من عطن، وقد أشرفنا بحمد الله على ثنایا الوطن:

إذا دننت الديار من الديار

وأبرح ما يكون الشوق يوما

وبتنا بها نعالج آلام الأشواق، ونطارذ ذوات الأطواق، ولما طرب طائر السحر وأذهب الصبح ما بصدر الساهر من الوحر، فوقت سهم العزم وأطرت عن زنده شرار الحزم، وأدخلت على معتل التواني حرف الحزم، وخرجت منها في صبيحة يوم الاثنين أول يوم من ذي الحجة من عام أربعين المذكور، وسرنا في ظل ظليل وزهر بليل وهواء صحيح ونسيم عليل:

حتى تشبهها سبائك عبقر

وحدائق ينسبك وشى برودها

غمست فضول ردائه بالعنبر

يجري النسيم خلالها وكأنها

في ضفتي نهر وادي المنشور الملتوي كالأيم الذاهب منظره بالسائم والأين، من نهر يدوخه هبوب النسيم ويتراءى الشقائق كأنه العذار في وجه الوسيم، ونحن نخف في سبيل دلالتة، ونلتحف بظل جلالتة ونغازل تلك الأغصان، ونعتد من أوراقها بخرصان وننظر ذلك النهر السلسال، فنذكر دمع المهجور إذا سال:

ومن أجل من فيها تحب المنازل

أحن إلى الوادي ومن فيه نازل

ففي البرق من تلك الثغور رسائل

وأشتاق لمع البرق من نحو أرضكم

بأعطاف ذاك الزند والبان مائل

يرنحني مر النسيم لأنه

فبين غصون البان منكم شمائل

وإن مال بان الدوح ملت صباية

ليسأل دمعي وهو للركب سائل

ولي أرب أن ينزل الركب بالحما

ويصبح نجد وهو بالحي أهل

بي أنه لا تتقضي أو أراكم

وما برحنا تلتحف من ظل أيكه أبردا، وكأنا دخلنا منه صرحا ممردا، وأوطأنا المطى من أديمه زردا، والناس قد ثاروا إلى، وأطالوا التسليم على، وتفاوض في ذلك سرهم ونجواهم، فما زالت تلك دعواهم حتى دخلت بلدي "قتورية" حرسها الله تعالى:

لأمر لنا بين الجوانح مضمر

هي الدار لا أصحابها عن علاقة

منازل جيران كرام ومعشر

فجاد على أرجائها الغيث إنها

ودخلت عند أذان العصر من يوم الاثنين المذكور فاجتمع والحمد لله الشمل وسر الأحباب والأهل:

وألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عينا بالإياب مسافر

فاستوطنها قرار، ولم نشم بعد العشية من نجد عراران وذكرت عند ذلك مخاطبا أهلا ودارا:

صب يحث مطاياہ بذكرکم فليس ينساكم إن حل أو سارا

لو يستطيع طوى الأيام نحوكم حتى يبيع بعمر القرب أعمارا

يرجو النجاة من البلوى يقربكم والقرب يلهب في أحشائه النارا

وحللتها حلول الحياة بالجسم، والأعراب في آخر الاسم، فاتقد سراج الأنس في ليل ذلك التوهم، وأومض برق التبسم في وجه ذلك التجهم، ومضى لنا من ذهول الألباب، ومحاذة الأحباب، ومجاذبة أهذاب الآداب:

يوم كأن نسيمه من عنبر وتخال أن أديمه من جوهر

لو باعت الأيام آخر مثله بالعمر أجمع كنت أول مشتري

وقد قيل ليس تعدل ساعة الفراق إلا ساعة اللقاء:

فلولا البعد ما حمد التداني ولولا البين ما طاب التلاقي

فجاءت هذه الغيبة المباركة خمسة أعوام إلا شهرين اثنين وثمانية عشر يوما.

ومن النادر أني لما أتممت هذه الرحلة المباركة وأصبحت بمترلي أول صباح أصبحت فيه صليت الصبح وجعلت أقرأ في مصحف كريم بين يدي إلى أن غلبتني عيناى فسمعت هاتف يهتف بي وأنا بين النائم والمستيقظ وهو ينشدني هذين البيتين ولم أكن قط سمعتهما وهما:

تم للعشاق أمرهم وكذلك الأجر قد كمالا

فاعذر العشاق أنهم قد جفاهم كل من عدلا

وها أنا أقف موقف الخجل والتقصير، وأسأل الله العلي الكبير، بحاه سيدنا ومولانا محمد رسوله البشير النذير، أن يجعله حجا مبرورا سعيا مباركا مشكورا وعملا صالحا متقبلا مذخورا وأرغب ممن وقف على التقيد من الأولياء أن يخلص في التأمين على هذا الدعاء، وأن يتفضل بالسمح والصفح والأغضاء ويعلم أن اللسان يقصر ومعاني الكلام لا تنصحر، وقديما قيل من ألف فقد استهدف ومن ركب الأكتار، لم يسلم من العثار والمرء مستور ما لم يؤلف تأليفا أو يقل شعرا، وهذا ما سنح مع الكد والاجتهاد،

واجتهاد مقصر خير من تقصير ذي اجتهاد، وأختم هذا المجموع بما أنشدني لنفسه بحرم القدس الشريف
الشيخ الإمام الأوحـد جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن نباتة المتقدم الذكر وذلك:

دعوني في حلي من العيش مائسا ومرتقبا من بعده عفو راحم

أد إلى ذات الأساور مقلتي وأسأل للأعمال حسن الخواتم

اللهم اختم لنا بالحسنى وبئنا من رضاك المحل الأشرف الأسنى، انك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين
وصلى الله على سيدنا ومولانا خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وأزواجه وذريته وصحابته أجمعين وآخر
دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كملت الرحلة المباركة بفضل الله تعالى وحسن عونه الموالي والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى
وحسبنا الله سبحانه مفوضا إليه وكفى. "وبخط عبيد الله سبحانه الفقير الخائف المشفق الراجي المستغفر
خالد بن أحمد بن خالد المؤلف بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن علي ابن أبي خالد البلوي تاب
الله عليه، ورده ردا جميلا إليه، برحمته وفضله وأكملها في اليوم الحادي والعشرين لصفر المبارك من عام
تسعة عشر وثمانمائة، وذلك برشانة الحروسة بفضل الله من خط جدي رحمه الله المؤلف والد والدي رحمة
الله عليهم أجمعين وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا إلى يوم
الدين والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

قال خالد بن أحمد بن خالد المؤلف رحمه الله تعالى: نقلت من خط مولاي الجد ما كان مكتوباً على ظهر نسخته التي انتسخت هذا منها ما هذا لفظه:

كملت الرحلة المباركة التي هذه آخر نسخة منها بخطي وهي التي اعتمدتها وعولت عليها بفضل الله تعالى وحسن عونه الموالي، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وحسبنا الله سبحانه مفوضاً إليه وكفى، وبخط مؤلفها ومنشئها عبید الله الفقير الخائف المشفق الراحي المستغفر خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن علي بن أبي خالد البلوي تاب الله تعالى عليه ورده رداً جميلاً إليه برحمته وفضله، وأكملها في اليوم الآخر من الشهر المبارك السعيد شهر ربيع الأول من عام سبعة وستين وسبعمائة، وذلك برشانة من وادي المنصورة حرسها الله مدة ولايتي للقضاء بها حسن الله فيه العاقبة وأجمل الإنابة إليه سبحانه وتعالى، وختم بخير وسعادة أبدية برحمته وكرمه وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وعلى جميع النبيين والمرسلين والملائكة والمقربين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين انتهى ما ألفيته بخط جدي رحمه الله تعالى وصلّى على سيدنا محمد وآله، وبعد هذا بخطه رحمه الله تعالى ما نصه قال خالد بن أبي خالد: وخط بيده لطف الله تعالى به بفضله ورحمته الله سبحانه وتعالى وصلاته وسلامه الأكملان على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه هؤلاء العلماء الفضلاء الذين أثبت أسماءهم هنا بعد هذا القسم الثاني من الذين مدحوا هذا الكتاب المفروغ منه قبل هذه الكراسة وكتبوا ما نظموه ونثروه من ذلك بخطوطهم في المبيضة الأولى من هذه الرحلة المذكورة وهم الذين أشرت إليهم ونهت عليهم في الأوراق الأوائل من ظاهر هذا الكتاب قبل ترجمتها فأولهم الشيخ الفقيه القاضي العالم المحدث القدوة أبو القاسم بن سلمون بن علي بن سلمون الكناني أبقى الله بركته كتب بخطه من نظمه على أول مبيضة منه بعدما طالعه واستوفاه نظراً واستحسنه غاية الاستحسان أدباً ونثراً ما نصه: وقرأته عليه وسمعت من لفظه وذلك لفظه بالمرية المحروسة مدة قضائه بها في وسط شهر ربيع الأول المبارك من عام ستة وخمسين وسبعمائة:

أتى بها خالد تندى أزهارها

ياروضة من جنان الخلد يانعة

تحوي غرائب من شعر ومن أدب
فيا لها رحلة أو حلية بهرت
صيغت قلائد من بحر البيان لهم
وحق للشرق أن يزهى بطلعتها
وللمعارف أن تسمو بمطلعتها
أبي البقا خالد إذ هو ماهرها
ومن علوم بانئت سرائرها
لأهل فضل بهم جلت مفاخرها
فيا لها حلية فاقت جوارها
إذ هي شمس أنار الأفق باهرها

الشيخ الفقيه القاضي العدل الرضي المتفنن الفاضل أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن النجار، كتب بخطه من نظمه على المبيضة الأولى من هذه الرحلة المذكورة بعد أن طالعها واستوفى، واستحسن وأثنى ما نصه: وقد سمعته منه وقرأته عليه، وذلك بالمرية في عقب شهر ربيع الأول المبارك من عام ستة وخمسين وسبعمائة:

خلدت يا خالد فوق السماك
نزهت منها في رياض ندا
سميتها اجا تحلت به
الست صدرا في القضاة العدول
فأنت ما حليتهم إنما
أريتنا مفترقا فيهم
فبارك الله تعالى اسمه فيما به
ودمت لا تمد للثم في
بهذه الرحلة قدرا علاك
أيادي كبرى اقتضاها نداك
مفارق الأعلام درا ثناك
اقتبست أنوارها من سناك
قسمت بالعدل عليهم حلاك
ما فيك بالإجماع مجموع ذاك
من ذي المعالي حباك
أندية التعظيم الأيداك

الفقيه الأجل الكاتب البارع الناظم النائر ذو الخط الفاتن الساحر والأدب البارع الباهر والشمائل الزكية المفاخر العذبة الأوائل والأواخر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سلمة الغرناطي وقف على المبيضة الأولى بمترلي من وطني قنورية مهنثا لي به بعد قدومي من الوجهة المشرقية المشروحة في هذه الرحلة المذكورة فكتب عليها بخطه الرائع المعجب البديع ما نظمه على البديهة بحضري وسمعته منه وقرأته عليه ونصه:

أيها الحبر الذي
وسجاياك التي
أن ما تكتبه
تلقح الأذهان عنها
فاق علما وأدب
دونها ضوء الشهب
لغريب المكنتب
نهى لا تستلب

وسواها من خشب

أو نوفي ما يجب

يس بصفرة الذهب

إنها من درر

حق أن تكتبها

بسواد العين ل

الفقيه الأجل الأفضل الأزكى العدل الرضي الأسدي، الأكمل أبو الحجاج ابن حصن وقف على النسخة الأولى من هذه الرحلة ببلده بلش في وجهتي إلى "مالقة" وإلى غريبها يرسم لقاء العلماء الفضلاء وذلك في شهور ست وخمسين وسبعمئة فكتب عليها بخطه ما نصه، وعليه قرأته ومنه سمعته، لما وقف العبد الفقير إلى مولاه الغني به عمن سواه يوسف بن علي بن محمد بن علي بن محمد الخولاني ثم ابن حصن الشاطبي المحتد البلشي المولد على هذه النسخة بل الرحلة المباركة المآثر الشريفة الأوائل والأواخر، انشد بلسان المتلثم مرتجلا وقريجة التقصير مستعجلا:

فاق به مغربنا مشرقا

قلبا من الغم له مشرقا

حاز من المجد بها مفرقا

لاح من الشرق هلال سما

جاء من اليم بدر يضيء

رحلة الحج من حلا خالد

"الفقيه الوزير الكاتب" الماهر الناظم النائر أبو جعفر احمد بن زرقاله وقف عليها وكلف بها ونسخ بخطه البارع الرائع العجيب نسخا منها وقرأها علي بلفظه وسمعها بلفظي وبلغظ غيري بالمرية الحروسة مرات كثيرة ونظم في مدحها مقطوعات عديدة وقصائد جملة جميلة واعتني بها غاية الاعتناء وجمع كل من نظم فيها شيئا من النظم أو النثر في مجموع رائق أنيق حافل منفرد بنفسه وعرف بهم تعريفا حسنا نفعه الله بقصده، فمما نقلت هنا من نظمه الذي كتبه على النسخة الأولى من هذه الرحلة، ما نصه مقترنا بما قبله وبعده، وذلك الحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده، يقول كاتب هذه بخطه عبد الله الراجي رحمته أحمد بن محمد بن زرقاله ختم الله له تعالى بالسعادة لما وقفت على هذه الرحلة البارعة من إنشاء شيخنا رئيس الأدباء وإمام الفصحاء البلغاء أبي البقاء أطال الله بقاءه ووالى سموه وارتقاءه نظمت بديها بتاريخ اليوم التاسع عشر لشهر ربيع الأول من سنة ست وخمسين وسبعمئة:

حلى بالدرر والجواهر

مختلف النور والأزاهر

فتم عرف شذاه عاطر

لله تاج وأي تاج

نزهتني منه في رياض

جرت عليه الصبا ذيولا

ثم كتبت ونظمت بعد ذلك:

وشيت التاج يا تاج المعالي

رقمت جهاته ورشقت فيها

فلم أر قبله في الطرس تاجا

فجل على المفارق والرؤوس

بمسك الحبر كافور الطروس

يرصع عاجه بالأبنوس

ومما كتبت هنا في قصائده التي نظمها في ذلك وكتبها هنالك قوله، وكتبتها هنا بما قبلها وبعدها الحمد لله حق حمده، ومما نظمته كاتب الأبيات أسفل الصفح يسرته أحمد بن محمد بن زرقالة وفقه الله وخاطب به مصنف هذه الرحلة شيخه القاضي الجليل الحسيب الفاضل ذاتا وأداة وخلقا وبيتا أبا البقاء خالدا حفظ الله مجده وبتاريخ اليوم الثالث والعشرين لربيع الأول من سنة ست وخمسين وسبعمئة ما نصه:

توجت أهل الشرق تاج جلالة

ونظمت ذكرهم بأسلاك العلي

ورفعت راية كجدهم وفخارهم

من دونها ما دبجته يد النداء

خلدت خالد من حلى آثارهم

وأثيت من بدع البديع برحلة

أو روضة قد جادها صوب الحيا

تهديك من نفحاتها أرج الصبا

شغفت بها مهج سمت لكنها

لا سيما إذ أفحصت بحديث من

سحرت محاسنها النهى فكأنها

وترى القلوب تصيخ نحو حديثها

قد أمحضت من لؤلؤ ألفاظها

مارئ قط بمثلها فيما مضى

ظرفا وترتيبا وحسن عبارة

لم لا تكون بهذه الأثر التي

وحللت من رتب البراعة ذروة

أزرى بتيجان بني قحطان

نظما كنظم الدر والمرجان

وكسوتهم حلا من الإحسان

في الروض غب العارض الهتان

كجدا تقر بمثله العينان

بل حلة موشية الأردن

فتزينت بزخارف الألوان

مسكا يضوع شذاه كل أوان

حلت محل الروح من جثمان

حل الحما من ساكني نعمان

وكأنه كالورد للظمئان

آذانها سبقا إلى الآذان

وصفت معانيها من لعقيان

من سالف الأحقاب والأزمان

لا يحتذى منها مزيد بيان

قد أشرفت شرفا على كيوان

بوئت منها في أعز مكان

فيمد فكرتك البيان بديمة
 ومتمى رقمت الطرس أو وشيته
 لسحابها سمو يدا سحبان
 أنسيت وشی أزاهر البستان
 فاهناً بما أحرزت من خصل ومن
 نوعي كمال بيان أو تبيان
 وابق الزمان أبا البقاء مرفعا
 في ظل عيش أخضر ريان
 وإليكهما من شاعر لم يحتكم
 في النثر حنكته وفي الأوزان
 غر صغير السن مبتدئ أتى
 في حين سوق كاسد وأوان
 لم يلف مسعده على طلب العلى
 والعلم فهو مبدد الأحيان
 ولتسمحن إن كان جهلا أن لي
 عذرا مقال زيادة الذبيان

ثم كتب بعد هذا بخطه البارع ما نصه، خذها على حالها، وأنر بنورك أفق هلالها، فهذا الشأن وإن كان
 لأبائي فيه سبق السبق ولا مفاخرة، فبضاعتي فيه مزجاة قاصرة فأوف في سماحك الكيل، وأجد وإن
 وجدت خللا في القول فهي وإن كانت أقرب لسبيل الوهن. ومبتاعها يرجع على بائعها بالغبن، فمثلي
 على حداثة سنه، وتبلد حسه وذهنه، إن كان منه خطأ فواقع من محله وهو من ذويه وأهله، والله تعالى
 يعلى قدركم، ويسمة ذكركم والسلام الكريم الكريم الطيب العاطر، يخص به محكم الطاهر كاتبها
 وناظمها عبد الله الراحي رحمته احمد بن محمد ايم زرقالة وفقه الله تعالى بمنه وكرمه "انتهى" الفقيه الخطيب
 العالم العامل الصالح لورع الفاضل نخبه العلماء صدر الفضلاء وزين الخطباء الصلحاء رافع راية الفضائل
 وحامل اللواء أبو عبد الله محمد بن حسين أحسن الله إليه برحمته، سمع هذه الرحلة من لفظي مررا وقرأها
 بلفظه على مرارا وكان أكلف الناس بها وأحبهم فيها وأعرفهم بقدرها وأذكرهم لمحاسنها وأبر البارين
 بمؤلفها وأحب المحبين فيه نفعه الله تعالى ونفع به وكان مما كتبه بخطه العجيب البارع المغرب على أول
 نسخة منها ما نصه لما من الله تعالى على كاتب هذا عبيد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم ابن حسين
 الأموي بان أتخفه بقراءة جميع كتاب تاج المفرق هذا على مؤلفه أعجوبه دهره، وفريد عصره، الإمام،
 الأوحد جمال الأدباء وزين الحسبان، وسليل السادة الأدباء القاضي الخطيب المحدث الرحالة الراوية المسند
 أبو البقاء خالد بن الشيخ الفقيه القاضي الخطيب العلم الأعلم الأعرف المتفنن الأكمل المبرور المقدس
 الأطهر المرحوم أبي الأصبغ عيسى بن خالد وصل الله سعده وحرس مجده ووالي آلاءه عنده كان مما
 أنطقته به محاسنها التي تكاد تصير الجماد إنسانا وينقلب بأقل العي سحبان بيانا ولسانا: قوله:

في تاجك المجد كله خالد
 تاج إذا رءاه اللبيب رءا
 لا ينقضي والسناء يا خالد
 منك جميع النام في واحد

| | |
|----------------------------|------------------------|
| بالحسن إن شئت حده كأنما | خلدته ضمنه بلا زائد |
| من ذا الذي شام منه برق سنه | ثم أضحي لفضله جاحد |
| من لم يذق طعم ما حواه جنى | فليطلبن غير آدم والد |
| أطلعته تاج مفرق فغدا | شرقا وغربا بفضلكم شاهد |
| فالحافظ الله ربنا الواحد | عليك من كل عائن وحاسد |

وكتب بأثر هذا مصلا به ما نصه وكان نظمى لهذه الأبيات في آخر إتمام القراءة للكتاب المذكور قراءة السماع لبعضه وذلك في شهر ربيع الأول عام ستة وخمسين وسبعمائة ثم قرأها الآن كلها مرة أخرى على المؤلف أبقاه الله في مجالس بعضها بحمة مرشانة وبعضها بحمة بجاية وبعضها "جزاء" وبه كمل جميعها بمدينة المرية. قال هذا كله وكتبه بخطه محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن المذكور بتاريخ وسط شوال اصطفي "الفقيه" الخطيب الأستاذ المتفنن القاضي العدل الفاضل حامل أو فرحظ من العلم بالتقى والعقل والحكم أبو عبد الله بن الشيخ الفقيه القاضي العارف الفاضل المرحوم أبي عبد الله محمد بن جعفر بن مشتمل معرفة ويعرف أيضا "بالبلياني" نفع الله بركاته سمعها بجملتها علي واغتبط بها لما وقف على النسخة الأولى منها أعظم الاغتباط وكتب بخطه على ظاهر النسخة التي يسمعها على من هذه الرحلة ما هذا نصه، بما قبل النظم وما بعده ثم قرأ جميعها علي بلفظه بعد ذلك مرة أخرى الحمد لله كما يجب لجلاله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم المصطفى وعلى آله، لما أظفر الله تعالى بأسنى الآمال بعد لي من الزمان وطول مطال برؤية هذه الرحلة الواجب لها على الخفة والثقل السفر والرحلة وروايتها عن مبتدعها الذي خلد بها المآثر والمفاخر وفضح الأوائل من البلغاء الفصحاء والأواخر وسماعها عليه من أولها إلى آخرها حملي على النظم فيها وإن لم أكن هنالك فمن أنصاف المرء أن يسلم في كل فضيلة إلى أهلها الذين يحملونها حق حملها ولا يدخل في شيء ليس في يده طرق سببه ويدع الهوى لأناس يعرفون به، لكنني حين عن النظر في ذلك غفلت فتجرات وقلت:

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| أبا البقاء لقد أبقيت للزمن | تاجا بمفرقه يجل عن ثمن |
| رصعته من بدائع الربيع | وأنواع البديع بكل رائق حسن |
| لقد بلغت مدى البلاغة لم | يبلغه في لسن اللسان ذو لسن |
| شأوت من شئت في شأو الفصاحة | فالبليغ أضحي لديك وهو ذو لكن |
| فئال أهتم اهتم مفوهم | يفوه باللحن بعد الفوه باللحن |

"فخالد النثر لم تخلد محاسنه
وعمر نظمهم إذ جاء ما عمرت
جئت بها رحلة تقضي برحلتنا
جمال رونقها ودر منطقها
غدت صبا سحر على ربا زهر
نشيان نشوتها ميسان نسوتها
ملنا من السكر من سماعها طربا
فخر السراة وعادل القضاة ومعرب
خلدت يا خالد فخرا لأندلس
خلت بك الغر من أعلامهن فكم
فاسلم ودم في المعالي والجلال كما
وخالد إذ أتى بمعجز الفطن"
به المجالس في سر وفي علن
بكل ذي رحلة لها من البدن
مكحال العين أو مشنف الأذن
أو ظفر ذي سهر بشارد الوسن
فإنها الخمر تهمل بقوى حصن
من قاري يطرب القمري في الغصن
النحاة وحبر الفرض والسنن
بمصر والشام والعراق واليمن
لها عليهن من حق ومن منن
تحب في المال والأهلين والوطن

قال ذلك وخطه بيده المعترف بتقصيره الناشئ عن قصوره الراغب إلى مولاه الكريم وربّه في العفو عن
عظيم ذنبه، محمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن يوسف بن مشتمل الأسلمي شملته الآلاء من
الآهة سبحانه والنعم، وسأله بدعائه صلى الله عليه وسلم لمتناه أسلم وذلك في السادس عشر لشهر
شوال عام سبعة وخمسين وسبعمئة، قال مؤلف هذه الرحلة خالد بن أبي خالد لطف الله به، وهنا انتهى
ما أوردناه، من إثبات ما قصدناه مما أشرنا في أول الأوراق ظاهر هذا الكتاب إليه ونبهنا هنالك عليه،
وقد بقي من لم أذكره هنا من الفضلاء الذين اعتنوا بذلك، وسلخوا بنظمهم ونشرهم هذه المسالك،
توغلوا إكثاراً فدعاني الإشفاق والحنن إلى أن حذفتم اختصاراً، واقتصرت على من ذكرت هنا اقتصاراً،
والله عز وجل يحمل الستر وينعم بالسمح، ويمن بالتجاوز والعفو والحمد لله عوداً على بدء وشكراً له
سبحانه على كل نعمة وصلاته وسلامه على سيدنا محمد نبيه ورسوله الكريم المصطفى، وعلى آله
وصحبه وجميع عباده الذين اصطفى، وحسبنا الله تعالى مفوضاً إليه وكفى قال خالد بن أحمد بن خالد
المؤلف انتهى ما وجدت بخط مولاي الجد رحمه الله والد والدي وما قيدت منه وكان تمامه في اليوم
الخامس عشر لربيع الأول المبارك عام تسعة عشر وثمانمئة عرف الله خيرته أمين.
انتهى والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

| | |
|----------|--------------|
| 2 | الجزء الأول |
| 116..... | الجزء الثاني |
| 214..... | الخاتمة |
| 221..... | الفهرس |

To PDF: www.al-mostafa.com